جَامِعَةُ القُدْسِ المَفْتُوحَة

كُلِّيَّةُ الدِّرَاساتِ العُلْيا

ماجِسْتير اللُّغَة العَرَبِيَّة وَآدابِها

# الثبات والتغير في الصورة الفنية في القرآن الكريم

إِعْداد: سمير زاهر سمير سلامة. (0330011810018)

إِشْراف: أ. د. عُمَر عَتِيق.

قُدِّمَتْ هذهِ الرِّسالةُ استكمالًا لِمُتَطَلَّبَات الحُصولِ عَلى دَرَجَةِ الماجِسْتير مِنْ كُليّة الدِّراساتِ العُليا

في جَامِعَة القُدْسِ المَفْتُوحَة فِي بَرْنامَجِ ماجستير اللّغَةِ العَرَبِيَّةِ وَآدابِها

2023/2022م

فِلَسْطِين

# إقرار

أنا المُوقّع أدناه (سمير زاهر سمير سلامة) مُقدّم الرّسالةِ المَوسومةِ بِـ:

## الثبات والتغير في الصورة الفنية في القرآن الكريم

أُقِرُّ بأنَّ مضمونَ هذهِ الرسالةِ جهدٌ ذاتيّ باستثناء الاقتباساتِ والإشارات الواردة في الحواشي، وأنّ الرسالةَ لم تُقَدَّم مِن قبلُ للحصولِ على درجةٍ علميَّة في أيَّة جامعةٍ أو مؤسَّسة تعليميَّة.

**اسم الطالب:** سمير زاهر سمير سلامة

**التوقيع:** سمير زاهر سلامة

**التاريخ:** 2022/12/31م

# قرار لجنة المناقشة

نُوقِشَتْ هَذِهِ الرِّسَالَةُ:

## الثبات والتغير في الصورة الفنية في القرآن الكريم

وَأُجِيزَتْ، بِتَارِيخ: 2022/12/31م.

| أَعْضَاء لَجْنَة المُناقَشَــة | التَّوْقِيـــع |
|---|---|
| 1- أ. د. عُمَر عَتيق. (مُشْرِفًا ورَئِيسًا) | |
| 2- د. زاهر حنني. (مُمْتَحِنًا دَاخِلِيًّا) | |
| 3- أ. د. خليل عودة. (مُمْتَحِنًا خَارِجِيًّا) | |

# جَامِعَةُ القُدْسِ المَفْتُوحَة

# كُلِّيَّةُ الدِّرَاساتِ العُلْيا وَالبَحْثِ العِلْمِيّ

# ماجِسْتير اللُّغَة العَرَبِيَّة وَآدابِها

# (نموذج تَفْويض)

**أنا الطّالب (سمير زاهر سمير سلامة)، أُفوّض جامعةَ القدس المفتوحة بتزويد المكتبات، أو المؤسّسات، أو الهيئات، أو الأشخاص بنُسخٍ من رسالتي عند طلبها، بما يتَّفقُ وتعليماتِ الجامعة.**

**اسم الطالب:** سمير زاهر سمير سلامة

**التوقيع:**

**التاريخ:** 2022/12/31م

# إِهْدَاء

**إلى كل من عشق السفرْ،**

**والتحليقَ بين زخات المطرْ،**

**ولم يحظ يومًا بتذكرة سفرْ،**

**لكل من عشق الأرض والحجرْ،**

**لمن رغب يومًا بركوب أمواج البحرْ،**

**أو الغوص بحثًا عن اللجج في بحار الأنوارْ،**

**إلى من يحاول الخروج من شلالات الكآبة واليأسْ،**

**أو الولوج إلى أعماق النفسْ،**

**وإلى من أراد مغادرة الدنى،**

**إلى روضات الجنات والأنهار والرُّبى،**

**إلى الدعوات التي لم تنمْ،**

**إلى منبع الحب والعشق والحنان الدائمْ،**

**إلى رمز الزمن السرمدي،**

**المحفور على جدران المعبد الأزلي،**

**والمنقوش على أبواب الهوى الأبدي...**

**سمير سلامة**

# شُكْرٌ وَتَقْدِيرٌ

أَتَقَدَّمُ بِجَزِيلِ الشُّكْرِ إِلَى الأُسْتَاذِ الدُّكْتُورِ الفَاضِلِ "**عمر عتيق**" الَّذِي سَهَّلَ عَلَيَّ مَشَقَّةَ البَحْثِ، وَكَانَ خَيْرَ مُشَجِّعٍ وَمُعِينٍ لِي بِنَصَائِحِهِ وَتَوْجِيهَاتِهِ وَمُتَابَعَتِهِ، فَكَانَ نِعْمَ السَّنَدُ وَالمُعِينُ، كُلَّمَا دَبَّ اليَأْسُ فِي نَفْسِي غَرَسَ فِيَّ الأَمَلَ لِأَنْهَضَ مِنْ جَدِيدٍ، وَكُلَّمَا أَظْلَمَتْ الدُّرُوبُ أَمَامِي، أَنَارَهَا لِي بِحِكَمِهِ الزَّاهِرَةِ وَعَقْلِهِ السَّدِيدِ، وَكُلَّمَا احْتَجْتُ لِنَصَائِحِهِ وَفَّرَ لِي مِنْ وَقْتِهِ الثَّمِينِ، فَالكَلِمَاتُ لَا تَفِيهِ حَقَّهُ بِصَبْرِهِ الكَبِيرِ عَلَيَّ وَبِتَوْجِيهَاتِهِ الزَّاخِرَةِ لِي.

**دُمْتَ أَهْلًا للعَطاءِ وَجَزَاكَ اللهُ الخَيْرَ كُلَّه.**

**سمير سلامة**

# الثبات والتغير في الصورة الفنية في القرآن الكريم


## إعداد: سمير زاهر سمير سلامة.

## إشراف: أ. د. عُمَر عَتِيق.


## مُلَخَّص


تهدف الدراسة إلى الكشف عن ثنائية الثبات والتغير في القرآن الكريم، من خلال الاتكاء على السياق، والدلالات المعجمية، والمحور الرأسي والأفقي؛ وصولًا إلى معرفة أسباب التغير بين الآيات الكريمة. وجاءت مكونةً من مقدمة وثلاثة فصول وخاتمة، ويدور الفصل الأول حول الثبات والتغير في صورة الظواهر الكونية في القرآن الكريم، وتوزع على ثلاثة مباحث، كشف المبحث الأول عن الثنائية الدلالية في الظواهر المناخية، بينما أظهر المبحث الثاني الفضاءات المتغيرة لصورتي الماء والبحر في القرآن الكريم، وأبان المبحث الثالث الثنائيات الدلالية في صورة الأرض والجبال.

وتحدث الفصل الثاني عن الثبات والتغير في صورة الإنسان، وجاء في ثلاثة مباحث، درس المبحث الأول الصورة السيكولوجية للإنسان، أما المبحث الثاني فكشف عن الثنائية الدلالية للإنفاق عند المؤمنين والكافرين، وحرص المبحث الثالث على تحليل البعد النفسي للبخل.

وتجلت ثنائية الثبات والتغير في الفصل الثالث في صورتي الحياة الدنيا والآخرة، وقسم إلى ثلاثة مباحث، أظهر المبحث الأول الآفاق الدلالية لصورة الحياة الدنيا، وعني المبحث الثاني بالثبات والتغير في صورة البعث والحشر، أما المبحث الثالث فكشف عن مشاهد تصويرية في الجنة. وتوصلت الدراسة إلى مجموعة نتائج أهمها: الكشف عن ظاهرة أسلوبية جديدة في القرآن الكريم، لم يلتفت لها من قبل، وعرضها بطريقة متطورة من خلال ربطها بنظرية السياق، وبالجانب الثقافي، والكشف عن أسباب

التغير بين الآيات القرآنية المشتركة بالثبات، من خلال الاتكاء على السياق وعلم الدلالة، والكشف عن بعض الأبعاد التربوية المكنوزة في داخل الآيات الكريمة، والقدرة على التعمق الدقيق بين لجج الآيات القرآنية. واتبع المنهج الأسلوبي في الدراسة اعتمادًا على أن ثنائية الثبات والتغير تشكل ظاهرة أسلوبية لم تُفرد لها دراسة من قبل.

**الكلمات المفتاحية: ثنائية، الثبات، التغير، الكسف، الأمواج البحرية، سيكولوجية، ضر، البخل، الأجداث، الجنة.**

# The Stability and the Change in the artistic image in the Holy Quran.

Prepared**: Sameer Zaher Sameer Salameh.**

Supervisor: **Prof. Omar Ateeq.**

# Abstract

The study aims to reveal the duality of stability and change in the Holy Quran, by leaning on context, lexical connotations, and vertical and horizontal axis, to find out the reasons for the change between the noble verses. It consists of an introduction, three chapters, and a conclusion. The first chapter revolves around stability and change in the image of cosmic phenomena in the Holy Quran. It is distributed into three investigations. The first topic revealed semantic dualism in climatic phenomena, while the second topic showed the changing spaces of the images of water and sea in the Holy Quran.

The second chapter talked about stability and change in the image of man. In three investigations, the first topic studied the psychological image of man, while the second topic revealed the semantic duality of spending among believers and infidels, while the third topic tried to study the psychological dimension of stinginess.

The duality of stability and change was manifested in the third chapter in the two forms of life in this world and the hereafter, and it was divided into three investigations. The first topic showed the semantic horizons of the image of the worldly life. The second topic required a discussion to discuss stability and change in the image of resurrection and gathering, while the third The study reached a set of results, the most important of which are: revealing a new stylistic phenomenon in the Holy Quran, which has not been heeded before, and presenting it in an advanced way by linking it to the theory of context and the cultural aspect, revealing the reasons for the change between the Qur'anic verses shared by persistence, by relying on context The stylistic approach to

the study was followed on the basis that the duality of persistence and change is a stylistic phenomenon that has not been studied before.

**Keywords: duality, stability, change, eclipses, sea waves, psychological, harm, stinginess, graves, paradise.**

# مُقَدِّمَةٌ

**أَهَمِّيَّة اَلْبَحْثِ:**

تمثلت أهمية البحث في الكشف عن ثنائية الثبات والتغير في القرآن الكريم بالاتكاء على السياق، والدلالات المعجمية، والمحور الرأسي والأفقي؛ وصولًا إلى معرفة أسباب التغير بين الآيات الكريمة.

**سبب اختيار موضوع اَلْبَحْثِ:**

كانت الرغبة في الدمج بين اللغة والنقد عاملًا أساسًا في اختيار موضوع الرسالة، ثم تفاعلت معها محبتي لكتاب الله، ومحاولتي لتدبر آياته منذ الصغر، وعشقي للتعمق والغوص بين آياته، بحثًا عن اللجج والكنوز العجيبة، فانطلقت من فكرة الثبات والتغير التي لفتت انتباهي، محاولًا غرف بعض من الأسرار الإلهية العظيمة.

**الدِّرَاسَاتُ السَّابِقَةُ:**

لم أجد –حسب اطلاعي– كتابًا أو مرجعًا أو دراسة سابقة تحمل عنوان البحث، أو تبحث فيه، لذلك لجأت إلى مراجع تساعد في تكوين البحث، أو تثريه، كالمعاجم اللغوية، وكتب التفسير: الديني والعلمي، وغيرها من الكتب التي تخص كل فصل من فصول البحث، كالتي تدور حول الظواهر الكونية والمناخية، والكتب المختصة بعلم النفس والسيكولوجيا، وكتب التصوير الفني والبلاغي.

**صعوبات إنجاز البحث:**

كانت أكثر الصعوبات التي واجهت البحث، هي عدم توافر مراجع مختصة في بعض المباحث، كالتي تتعلق بالجانب السيكولوجي القرآني بخاصة، أو قلة المراجع، كالتي تتعلق بالتفسير العلمي الدقيق

الذي لا يزال بحاجة إلى تجديد وتطوير وتدقيق وإضافة، أو تكرار المعلومة في غالبية الكتب في الموضوع الواحد، دون تجديد أو محاورة للفكرة، والاكتفاء بالرأي السابق، كالتي تتعلق بالمشاهد الأخروية.

**مَنْهَجُ اَلْبَحْثِ:**

سار البحث على المنهج الأسلوبي؛ لأن ثنائية الثبات والتغير تشكل ظاهرة أسلوبية في القرآن الكريم، ولاهتمام المنهج الأسلوبي بالعلاقة بين النحو والبلاغة، وبالتأثير في المتلقي، ولقدرته على الوصول إلى البنية العميقة للنص القرآني، مع الاتكاء على نظرية السياق، وإضفاء الجانب الثقافي عليه، فثنائية الثبات والتغير في القرآن الكريم تشكل ظاهرة أسلوبية مائزة تقتضي توظيف مبادئ الأسلوبية نحو المحورين الرأسي والأفقي، اللذين يوضحان العلاقة التجاورية بين مكونات النسيج اللغوي لثنائية الثبات والتغير، واختيار لفظة دون غيرها من الألفاظ المناظرة في سياق موضوع البحث.

**أسئلة اَلْبَحْثِ:**

- هل تجلت ثنائية الثبات والتغير في القرآن الكريم في صورة الظواهر الكونية، كالأرض والجبال، والمناخية، كالسحاب والماء والبحر وما يتعلق به من أمواج وسفن؟
- هل يمكن لثنائية الثبات والتغير في القرآن الكريم أن تعزز التفسيرات العلمية لأنواع السحاب؟ وأن توضح المراحل التي يمر بها السحاب، وما الفرق بين كل منها؟
- ما الفضاءات المتغيرة لصورتي الماء والبحر، وهل يمكن أن تدرس ثنائية الثبات والتغير في القرآن الكريم الصورة الكونية للبحار؟
- هل يمكن لثنائية الثبات والتغير في القرآن الكريم أن توضح دلالات التحول في صورة همود الأرض وخشوعها؟
- هل تستطيع ثنائية الثبات والتغير في القرآن الكريم توضيح صورة الجبال في مشاهد يوم القيامة؟ وهل استطاعت أن تفرق بدقة بين المراحل التي تمر بها الجبال يوم القيامة، وإبراز التحول بينها؟

- ما الفروقات الدلالية بين رج الأرض ورجفها وزلزلتها؟ وما الفروقات الدلالية بين رجف الجبال ونسفها وبسها وتسييرها؟
- هل يمكن أن تظهر ثنائية الثبات والتغير في صورة الإنسان، كالصورة السيكولوجية له، وما يتعلق به من أبعاد نفسية واقتصادية؟
- هل تساعد ثنائية الثبات والتغير في القرآن الكريم في تعزيز التربية الأخلاقية للإنسان، وفي تنمية المجتمعات اقتصاديًّا؟
- كيف يمكن لثنائية الثبات والتغير في القرآن الكريم أن تكشف عن البعد النفسي للبخل؟
- هل يمكن تقريب صورة الحياة الدنيا للناس من خلال ثنائية الثبات والتغير في القرآن الكريم؟
- ما الفائدة من تطبيق ثنائية الثبات والتغير في القرآن الكريم على صورة البعث وخروج الناس من الأجداث يوم القيامة؟ وهل استطاعت أن ترسم صورة الخارجين من الأجداث يوم القيامة، وأن تبين حركتهم، وسرعتهم، وأن تكشف عن حالتهم النفسية يوم القيامة؟
- كيف يمكن الوصول إلى فهم جديد، وآفاق دلالية متنوعة، في صورة أنهار الجنة، من خلال ربط ثنائية الثبات والتغير في القرآن الكريم بالدلالة المعجمية؟

**اَلْإِطَارُ اَلْعَامُّ لِلْبَحْثِ:**

تكون البحث من مقدمة وثلاثة فصول وخاتمة، ويدور الفصل الأول حول الثبات والتغير في صورة الظواهر الكونية في القرآن الكريم، وتوزع على ثلاثة مباحث، كشف الأول منها عن الثنائية الدلالية في الظواهر المناخية، بينما أظهر الثاني الفضاءات المتغيرة لصورتي الماء والبحر في القرآن الكريم، وأبان الثالث الثنائيات الدلالية في صورة الأرض والجبال.

وتحدث الفصل الثاني عن الثبات والتغير في صورة الإنسان، وجاء في ثلاثة مباحث، درس الأول منها الصورة السيكولوجية للإنسان، أما الثاني فكشف عن الثنائية الدلالية للإنفاق عند المؤمنين والكافرين، وحرص الثالث على تحليل البعد النفسي للبخل.

وتجلت ثنائية الثبات والتغير في الفصل الثالث في صورتي الحياة الدنيا والآخرة، وقسم إلى ثلاثة مباحث، أظهر المبحث الأول الآفاق الدلالية لصورة الحياة الدنيا، وعني الثاني بالثبات والتغير في صورة البعث والحشر، أما الثالث فكشف عن مشاهد تصويرية في الجنة. وختمت الرسالة بخاتمة مكونة من نتائج وتوصيات.

# الفصل الأوّل: الثّبات والتّغيّر في صورة الظّواهر الكونيّة.

## المبحث الأوّل: الثّنائيّة الدّلاليّة في الظّواهر المناخيّة.

## المبحث الثّاني: الفضاءات المتغيّرة لصورتيّ الماء والبحر.

## المبحث الثّالث: الثّنائيّات الدّلاليّة في صـــورة الأرض.

## المبحث الأوّل: الثّنائيّة الدّلاليّة في الظّواهر المناخيّة.

**مدخل.**

**المرحلة الصّفريّة: السّحاب السّاكن.**

**المرحلة الأولى: السّحاب المتحرّك بوساطة الرّياح.**

**المرحلة الثّانية: السّحاب المبسوط.**

**المرحلة الثّالثة: السّحاب المتراكم (الكسف).**

**المرحلة الرّابعة: السّحاب الممطر (الودق).**

# المبحث الأول: الثنائية الدلالية في الظواهر المناخية.

## مدخل

تتجلى ثنائية الثبات والتغير في الظواهر المناخية في القرآن الكريم، في قوله تعالى: ﴿**اللَّهُ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيَاحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَيَبْسُطُهُ فِي السَّمَاءِ كَيْفَ يَشَاءُ وَيَجْعَلُهُ كِسَفًا فَتَرَى الْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَالِهِ فَإِذَا أَصَابَ بِهِ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ**﴾ (الروم:48)، وقوله: ﴿**أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُزْجِي سَحَابًا ثُمَّ يُؤَلِّفُ بَيْنَهُ ثُمَّ يَجْعَلُهُ رُكَامًا فَتَرَى الْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَالِهِ وَيُنَزِّلُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ جِبَالٍ فِيهَا مِنْ بَرَدٍ فَيُصِيبُ بِهِ مَنْ يَشَاءُ وَيَصْرِفُهُ عَنْ مَنْ يَشَاءُ يَكَادُ سَنَا بَرْقِهِ يَذْهَبُ بِالْأَبْصَارِ**﴾ (**النور**:43)، فيظهر أن الثابت المشترك بين الآيتين هو السحاب، والمتغير هو تحول السحاب إلى أربع مراحل متقاربة.

## المرحلة الصفرية: السحاب الساكن*.

**تتناغم مادة (سحب) مع دلالة التكاثف وتكون الغيوم**، إذ تؤكد معنى الانجرار، أي انجرار قطرات الماء بعضها لبعض، فنقول: "سَحَبَه فانْسَحَبَ: جَرَّه فانْجَرَّ"[1]، و"سحبت الشَّيْء إذا جررته، وكل منجر منسحب"[2]، و"السَّحْبُ: جَرُّ الشَّيْء على وَجْهِ الأَرْضِ"[3]، و"سُمِّيَ السَّحَابُ سَحَابًا؛ لانْسِحَابِهِ في الهَوَاء، أَو لِسَحْبِ بَعْضِه بعضًا، أَو لِسَحْبِ الرِّياح لَه"[4]، و"السَّحاب: الغَيْمُ"[5]، أو هو "الْغَيْم سَوَاء أَكَانَ

---

* يعد السحاب الساكن مرحلة صفرية لا تعد من دلالة الثبات والتغير.

[1] ابن منظور، جمال الدين محمد بن مكرم: **لسان العرب**. ط:3، دار صادر، بيروت، 1414هـ، مادة: (سحب).

[2] الأزدي، ابن دريد: **جمهرة اللغة**. تح: رمزي منير. ط:1، دار العلم للملايين، بيروت، لبنان، 1987م، مادة: (سحب).

[3] ابن عباد، الصاحب: **المحيط في اللغة**. تح: محمد آل ياسين. ط:1، عالم الكتب، الرياض، المملكة العربية السعودية، 1994م، مادة: (سحب).

[4] الزبيدي، المرتضى: **تاج العروس من جواهر القاموس**. ط:1، دار الفكر، بيروت، لبنان، 1414هـ، مادة: (سحب).

[5] الفيروز آبادي، مجد الدين: **القاموس المحيط**. تح: محمد العرقسوسي. ط:8، مؤسسة الرسالة، بيروت، لبنان، 2005م، مادة: (سحب).

فِيهِ مَاء أم لم يكن، والسحابَةُ: فَضْلَةُ ماء تبقى في الغَدِير"[1]، **واصطلح على أن السحاب:** هو الْغَيْم الْمُذَلَّل الْمَسْحُوب؛ لِإِنْزَالِ الْمَطَرِ فِي الْبِلَادِ الْمُخْتَلِفَةِ.[2] ومن الدلالات السابقة نصل إلى أن قطرات الماء المتكاثفة، أو الغيوم* المتشكلة، تعني بدايةً لمراحل أربع متغيرة لاحقة. وقد أَسْمَيْتُ هذه المرحلة بالصفرية؛ لكونها ما زالت في مرحلة السكون أو ما قبل البداية والتشكل.

## المرحلة الأولى: السحاب المتحرك بوساطة الرياح.

يبدأ تغير صورة السحاب بتحرك السحب بوساطة الرياح المثيرة لها، **وتعد الرياح** جسمًا لا صوت له، منعقدًا من البخار، يتصاعد من الأرض، ثم يتكاثف من التئام بعضه إلى بعض.[3] فتنتقل كتل الهواء من مناطق الضغط المرتفع إلى مناطق الضغط المنخفض، وتختلف الرياح باختلاف جهاتها، وسرعتها، وشدتها، وأغراضها، ولها الدور الأكبر في إنشاء السحب والغيوم وإثارتها، وتكوينها، وتراكمها، بعضها فوق بعض، ورفعها للطبقات العليا، وتلقيحها بنويات التكاثف المختلفة، وتفريغها لشحناتها الكهربائية.[4]

تتجلى المرحلة الأولى (تحرك السحاب) في الآيتين في قوله تعالى: ﴿**اللَّهُ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيَاحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَيَبْسُطُهُ فِي السَّمَاءِ كَيْفَ يَشَاءُ وَيَجْعَلُهُ كِسَفًا فَتَرَى الْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَالِهِ فَإِذَا أَصَابَ بِهِ مَنْ**

---

[1] مجمع اللغة العربية: **المعجم الوسيط**. ط:4، مكتبة الشروق الدولية، جمهورية مصر العربية، 2008م، مادة: (سحب).

[2] ينظر: رضا، محمد رشيد: **تفسير القرآن الحكيم (تفسير المنار)**. ط:2، دار المنار، القاهرة، 1947م، ج:2، ص:51.

* يطلق على تكاثف قطرات الماء **مفهوم الغيوم**، إذ يتحول بخار الماء الزائد إلى قطرات مائية تتجاوز درجة التشبع، ويقسم تكاثف الماء إلى نوعين: سطحي، وعادي. يحدث التكاثف السطحي عندما تفقد الأرض إشعاعها، فيتكاثف بخار الماء على سطح الأرض نفسه في طبقة الهواء الملامس له أو القريب منه، وبمعنى آخر، يحدث في الطبقة السطحية دون أن يتغير مستوى الضغط الجوي للهواء. أما التكاثف العادي، فيحدث في طبقات الجو العليا؛ نتيجةً لصعود الهواء الرطب إلى الأعلى بفعل تيارات الحمل الحراري. عجيل، سحر عادل: **الغيوم في القرآن الكريم دراسة في الفكر الجغرافي العربي الإسلامي**. مجلة آداب الفراهيدي، كلية الآداب، جامعة تكريت، العراق، ع:35، أيلول/2018م، ص:212-213.

[3] **المرجع السابق**. ص:215-216.

[4] الحاج أحمد، يوسف: **موسوعة الإعجاز العلمي في القرآن والسنة المطهرة**. ط:2، مكتبة ابن حجر، دمشق، سورية، 2003م، ص:254-255.

**يَشاءُ مِن عِبادِهِ إذا هم يَسْتَبْشِرُونَ﴾** (الروم:48)، وقوله: **﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُزْجِي سَحابًا ثُمَّ يُؤَلِّفُ بَيْنَهُ ثُمَّ يَجْعَلُهُ رُكامًا فَتَرَى الوَدْقَ يَخْرُجُ مِن خِلالِهِ وَيُنَزِّلُ مِنَ السَّماءِ مِن جِبالٍ فِيها مِن بَرَدٍ فَيُصِيبُ بِهِ مَن يَشاءُ وَيَصْرِفُهُ عَنْ مَن يَشاءُ يَكادُ سَنا بَرْقِهِ يَذْهَبُ بِالأَبْصارِ﴾** (النور:43)، في قوله تعالى: **﴿يُرْسِلُ الرِّياحَ فَتُثِيرُ سَحابًا﴾**، وقوله: **﴿يُزْجِي سَحابًا﴾**، بوساطة **التغير في الفعلين (تثير) و(يزجي) ودلالاتهما**، فنجد أن إِثَارَة السَّحَابِ تعني إِنْشَاءها بِمَا تُحْدِثُهُ الرِّيَاحُ فِي الْأَجْوَاءِ مِنْ رُطُوبَةٍ تَحْصُلُ مِنْ تَفَاعُلِ الْحَرَارَةِ وَالْبُرُودَةِ، فالرياح تثير سحابًا، والإثارة: التحريك، وهو تحريك يؤدي إلى اضطراب وتغير للموضع الذي كان فيه، أو للحالة التي كان السحاب عليها،[1] فمادة (ثور) تعني التحريك والتهييج، أي إن السحاب يتحرك في السماء بفعل الرياح تهيئةً لمرحلة أخرى.

**وتوحي مادة (زجي) بانطلاق المرحلة الجديدة للسحاب الساكن**، وهي مرحلة تحرك السحب، **فتدل مادة (زجي) على معنى السوق والدفع برفق وقلة**، فنقول: "**يزجي** الراعي الماشية ويزجيها: يدفعها ويسوقها سوقًا رفيقا، أي: يدفعه برفق"[2] و"يزجي الضعيف: يسوقه ليلحقه بالرفاق"[3] و"أزجيت أيامي: دافعتها بقوت قليل"[4] و"المزجى: الشيء القليل، وبضاعة مزجاة: أي: قليلة"[5] "لم يتم صلاحها"[6]، **وتدل على معنى التيسير والتسهيل**، فنقول: "الريح تزجي السحاب، (أي: تُسَيِّر)، وهو يزجي أيامه بشيء

---

[1] ينظر: ابن عاشور، محمد الطاهر: **التحرير والتنوير. (تحرير المعنى السديد وتنوير العقل الجديد من تفسير الكتاب المجيد)**. (د.ط)، الدار التونسية للنشر، تونس، 1984م، ج:21، ص:121.

[2] الزبيدي: **تاج العروس من جواهر القاموس**. مادة: (زجو).

[3] ابن منظور: **لسان العرب**. مادة: (زجو).

[4] مجمع اللغة العربية: **المعجم الوسيط**. مادة: (زجو).

[5] الجوهري، إسماعيل: **الصحاح تاج اللغة وصحاح العربية**. تح: أحمد عطار. ط:4، دار العلم للملايين، بيروت، لبنان، 1990م، مادة: (زجو).

[6] ابن منظور: **لسان العرب**. مادة: (زجو). والفيروز آبادي: **القاموس المحيط**. مادة: (زجو).

يسير، وزجى فلان حاجتي، أي: سهل تحصيلها"[1]، **وتدل على معنى الدنو والاقتراب**، "فالْإِزْجَاءُ أُطْلِقَ عَلَى دُنُوِّ بَعْضِ السَّحَابِ مِنْ بَعْضٍ بِتَقْدِيرِ اللَّهِ تَعَالَى الشَّبِيهِ بِالسَّوْقِ حَتَّى يَصِيرَ سَحَابًا كَثِيفًا"[2]، أي إن الفعل (يزجي) يدل على الحركة البطيئة للسحاب، واقتراب السحاب من بعضه بعضًا، فندرك ابتداء المرحلة الأولى (تحرك السحاب) بوساطته.

ومن هذه المعاني والدلالات مجتمعة لمادة زجى (السوق والدفع، التيسير والتسهيل، الدنو والاقتراب)، تتجلى صفات الله العظيم، الخالق، الفاطر، المسهل، الميسر، –جلَّ جلاله– الذي خلق كل شيء من العدم، لا يعجزه أن يخلق من الشيء القليل الذي لا يكترث له أحد، جبالًا عظيمة، فهو الذي يزجي الضعيف، وييسر أحواله؛ ليلحقه برفاقه، وهو الذي ييسر الغازات والذرات وغيرها مما هو صغير لا يُرى، ولا يشعر به أحد، فييسر طريقها، ويسوقها، ليسهل اجتماعها بعد ضعف، فتكون سحابًا بعد نفاذ أمره.

تبدأ الرياح بتحويل بعض الإشعاع الشمسي الواصل إلى سطح الأرض إلى طاقة حركية، تؤدي إلى جعل جزيئات الهواء بحالة حركة مستمرة، وتنتقل حركة جزيئات الهواء إلى مناطق الضغط المنخفض، فالفروق الحرارية ما بين الأجزاء العليا والسفلى من الجو، وما بين خط الاستواء والقطبين تعطي الطاقة اللازمة لتحول القدرة الحرارية إلى قدرة حركية.[3] فالله يُرْسل الرّيح فتأتي بالسحاب من بَين الْخَافِقين (طرف السَّمَاء حِين يَلْتَقِيَانِ)، فتخرجه، ثمَّ تنشره، فيبسطه فِي السَّمَاء كَيفَ يَشَاء، فيسيل المَاء

---

[1] الزمخشري، أبو القاسم: **أساس البلاغة**. تح: محمد باسل عيون السود. ط:1، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، 1998م، مادة: (زجو). ج:1، ص:410.

[2] ابن عاشور: **التحرير والتنوير**. ج:18، ص:260–261.

[3] يُنظر: عطية، عطية محمد: **الظواهر الفلكية والجغرافية في القرآن الكريم**. ط:1، دار يافا العلمية للنشر والتوزيع، الأردن، عمان، 2012م، ص:338.

على السَّحَاب، ثمَّ يمطر السَّحَاب بعد ذَلِك، وَيُرْسل الله الرّيح، فَتحمل المَاء من السَّحَاب، فتمر بِهِ السَّحَاب، فتدره متفرقًا.[1]

كان الرأي السائد أن مياه المطر تأتي من السماء، ولم يكن معروفًا أن الرياح هي التي تثير السحاب، إلى أن أثبت علم الأرصاد الجوية أن الأصل في إثارة السحب ونزول المطر، هو إرسال الرياح، وسبق القرآن الكريم بلفت الأنظار إلى ظاهرة ارتباط الرياح بالسحب والمطر بوجود علاقة تلازم بين الرياح والسحب والمطر أقرها العلم الحديث.[2]

**المرحلة الثانية: السحاب المبسوط.**

**يستمر تغير صورة السحاب بالتآلف والتجمع عموديًّا أو بالانتشار أفقيًّا في السماء، بعد** أن أثارت الرياح السحب وهيجتها، أو بعد أن أزجتها ودفعتها وساقتها سوقًا خفيفًا، **وتدلنا مادتا (بسط) و(ألف) على ابتداء المرحلة الثانية الجديدة،** فعند البحث في مادة (بسط) في قوله: (فيبسطه) نجد أن "الْبَسْط يعني: النَّشْر، فنقول: "بسط الشيء: نشره، والبسطة: السعة"[3]، و"بسط الله الرزق: كثَّره ووسعه، وبسط يده إليه: مدّها، وبسط يده: فرشها"[4]، وهي معانٍ تدل على الانتشار الواسع، والتمدد، والعطاء بإفاضة تمهيدًا للخير الوفير، والنماء القادم. أي إن السحب في هذه المرحلة تنتشر وتتمدد باتساع كبير في السماء، تتهيأ لمرحلة أخرى قادمة.

**يتصاعد التغير في صورة السحاب بالتعالق بين دلالة زجو السحاب السابقة وقوله تعالى: ﴿ثُمَّ يُؤَلِّفُ بَيْنَهُ﴾ إذ تدل مادة (ألف) على معنى الانضمام والإتباع والإلزام، والوصل والجمع بعد تفرق،**

---

[1] ينظر: السيوطي، جلال الدين: **الدر المنثور في التفسير المأثور**. (د.ط)، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، لبنان، 2011م، ج:6، ص:499.

[2] العبادسة، فتحي: **الماء في القرآن الكريم (دراسة موضوعية)**. (رسالة ماجستير). إشراف: مروان أبو راس. الجامعة الإسلامية، غزة، فلسطين، 2002م، ص:233-234.

[3] ابن منظور: **لسان العرب**. مادة: (بسط).

[4] مجمع اللغة العربية: **المعجم الوسيط**. مادة: (بسط).

**والأنس والتآنس،** "فالتَّأْلِيف: كل شيء ضممت بعضه إلى بعض"[1] **أو هو** انْضِمَامُ بَعْضِ السَّحَابِ إِلَى بَعْضٍ"[2] وهو الذي يؤلف بين السحاب، الذي أوجده من الشيء القليل، فيجمع بينه، جمعًا لا تفريق فيه، و"الأُلف: اجتماع مع التئام"[3]، و"الإيلاف: العهد، وأَلِفت فلانًا: أنِستُ به، وألّفت بينهم تأليفًا: جمعت بينهم بعد تفرق، وألّفت الشيء: وصلت بعضه ببعض"[4]، فكأن السحب تستأنس بعضها مع بعض، وتقترب كل سحابة مع أخرى تناسبها، وتتصل بها، أو تنضم إليها، فتصيران سحابة واحدة، تكبر بانضمام السحب لها حتى تكون سحابة ضخمة، تشكل بداية لمرحلة أخرى جديدة.

**وتعقيبًا على الدلالات السابقة،** فإن الذي يسّر اجتماع الأشياء القليلة، التي صارت سحابة، قادرٌ على أن يربط بقوة وبلا تفريق بين هذه السحب، أي إنه يقدر على أن يربط بين الأشياء الكبيرة أيضًا، فيُتبع بعضها بعضًا، ويصلها بها، ويجمعها، دون انقطاع.

## المرحلة الثالثة: السحاب المتراكم (الكسف).

يتضاعف التغير في صورة السحاب بانقسامه إلى نوعين، المتفرق المنتشر في السماء، والمندمج الموصول مع بعضه، وبهذا الانقسام تبدأ المرحلة الثالثة (السحاب المتراكم/ الكسف).

تصنف السحب تبعًا لارتفاعها إلى سحب منخفضة، ومتوسطة الارتفاع، ومرتفعة، ويضم كل منها أنواعًا مختلفة، وتصنف حسب مكوناتها أيضًا.[5] **بينما تصنف من حيث طبيعة التكون:** إلى ثلاث مجموعات رئيسة، هي:

---

[1] ابن فارس، أحمد: **معجم مقاييس اللغة**. تح: عبد السلام هارون. دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، سورية، 1979م، مادة: (ألف).

[2] ابن عاشور: **التحرير والتنوير**. ج:18، ص:260-261.

[3] عجيل: **الغيوم في القرآن الكريم دراسة في الفكر الجغرافي العربي الإسلامي**. ص:220-221.

[4] ابن منظور: **لسان العرب**. مادة: (ألف).

[5] مندور، مسعد سلامة: **مصطلحات الطقس والمناخ في القرآن الكريم**. المجلة العالمية لبحوث القرآن، ص:95.

1- **السحب الركامية:** تظهر كتلًا منفصلة، وتبدو أبراجًا؛ لكبر حجمها، وتنزل منها زخات مطر غزيرة مصحوبة ببرق ورعد.

2- **السحب الطبقية:** تكون في طبقات منخفضة رمادية اللون تتألف من كتل كروية تتجمع في مجموعات على شكل خطوط قريبة من بعضها، تقطعها الرياح إلى أجزاء منفصلة، فتُرى على شكل صفائح تغطي السماء وهي ليست ماطرة إلّا في حالات نادرة. (وبسبب ندرتها، عند نزولها، يشعر الناس بالبشرى والخير الوفير، فالناس تفرح عندما تشعر بالفرج خاصة بعد انقطاع أو بعد فقد الأمل).

3- **سحب السمحاق:** أكثر أنواع السحب ارتفاعًا، رقيقة، تشبه الصوف المنفوش والريش، لونها أبيض، تسير في السماء، ولا تسقط مطرًا.[1]

تحدث القرآن الكريم عن **أنواع الغيوم**، فذكر الغيوم المنخفضة والغيوم الركامية، فعبر عن الغيوم المنخفضة بقوله: ﴿**اللَّهُ الَّذِى يُرْسِلُ الرِّيَاحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَيَبْسُطُهُ فِي السَّمَاءِ كَيْفَ يَشَاءُ وَيَجْعَلُهُ كِسَفًا**﴾ (الروم:48)، وعبر عن الغيوم الركامية بقوله: ﴿**أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُزْجِى سَحَابًا ثُمَّ يُؤَلِّفُ بَيْنَهُ ثُمَّ يَجْعَلُهُ رُكَامًا**﴾ (**النور**:43).

**تحمل مادة (كسف) في قوله تعالى: ﴿وَيَجْعَلُهُ كِسَفًا﴾ دلالات متنوعة، منها دلالة القطع والتفريق، فنقول:** "كسف الشيء: قطعه، وكِسْف السَّحَابِ وكِسَفُه: قِطَعُه، وَقِيلَ إِذَا كَانَتْ عَرِيضَةً فَهِيَ كِسْف"[2]، وَ"الْكِسْفَةُ: الْقِطْعَةُ مِنَ الْغَيْمِ"[3]، "وَيَجْعَلُهُ كِسَفًا: بتجميعه وتكثيفه، أو باصطدام بعضه ببعض، أو تنبعث شرارة كهربائية بين طبقة منه وطبقة، أو كسفة منه وكسفة"[4]، فالكِسْف القطع، أي يجعله منبسطًا يأخذ وجه السماء مرة، ويجعله قطعًا متفرقة غير منبسطة مرة. وتوحي **مادة (كسف)**

---

[1] عجيل: **الغيوم في القرآن الكريم دراسة في الفكر الجغرافي العربي الإسلامي**. ص:219-221.

[2] ابن منظور: **لسان العرب**. مادة: (كسف).

[3] ابن فارس: **معجم مقاييس اللغة**. مادة: (كسف).

[4] قطب، سيد: **في ظلال القران الكريم**. ط:9، دار الشروق، بيروت، لبنان، 1980م، ج:5، ص:2775.

**بدلالة الحجب والتضييق والتغطية**، فنقول: "كسف الشيء: غطاه"[1]، وتتشابك دلالات الألوان مع **مادة (كسف)**، فنقول: "كسوف الشمس: ذهب ضوؤها واسوَدَّت"[2]، وهو ما يتشابه مع لون السحاب الطبقي المائل للسواد، لكثرة الماء الذي يحمله، وقيل في تفسير قوله تعالى: ﴿**ويجعله كسفا**﴾ يعني: "أسود من كثرة الماء تراه مدلهمًّا ثقيلًا قريبًا من الأرض"[3]، أي إن السحب في هذه الحالة تتقطع وتتفرق، وتحجب أو تعزل عن بعضها، فلا تلتقي، وكأن حالة التفريق والتشتيت التي تصيب السحب تؤثر عليها، فيضيق حالها، وتصير مُسْوَدَّة، حزينة، تمتلئ بالدموع، أو بالمطر الذي سيشكل مرحلة جديدة أخرى. و**تدل مادة (ركم) في قوله تعالى: ﴿ثُمَّ يَجْعَلُهُ رُكَامًا﴾ على معنى الجمع والضم والتكدس والتكاثر**، "فالركْم: أصل لغوي يدل على ما يُلقى بعضه على بعض أي مجمع الشيء"[4]، أو هو "جَمْعُ شَيء فَوْق آخَر حَتَّى يَصِيرَ ركامًا"[5]، ونقول: "رَكَمَ الشَّيْءَ يَرْكُمُه إذا جَمَعه وأَلقى بَعْضَهُ عَلَى بَعْضٍ، ونقول: قطيع ركام: ضخم"[6]، "وإذا تراكم السحاب بعضه على بعض حدث فيه ما يسمى في علم حوادث الجو بالسيال الكهربائي وهو البرق"[7]، وبعد اجتماع السحب مع بعضها وائتلافها وترابطها بروابط عظيمة قوية شديدة، وبعد أن علا بعضُها بعضًا، فإنها تصير كالركمة الكبيرة السمينة الضخمة، أي: كالطين المجموع، الذي يتصف بالصلابة والقوة، والتماسك، التي سيؤدي اجتماعها وتراكمها بعضها فوق بعض، إلى تكون الجبال، ولكنها جبال باردة تقابل جبال الأرض، لا تحتوي نيرانًا وحمومًا، وتبدأ بتفككها وتكسرها بعد ذلك مرحلة أخرى جديدة.

---

[1] أبو العزم، عبد الغني: **معجم الغني الزاهر**. ط:1، مؤسسة الغني للنشر، الرباط، 2013م، مادة: (كسف).

[2] ابن منظور: **لسان العرب**. مادة: (كسف).

[3] ابن كثير: **تفسير القرآن العظيم**. ج:3، ص:446.

[4] ابن فارس: **معجم مقاييس اللغة**. مادة: (ركم).

[5] الزبيدي: **تاج العروس من جواهر القاموس**. مادة: (ركم).

[6] ابن منظور: **لسان العرب**. مادة: (ركم).

[7] ابن عاشور: **التحرير والتنوير**. ج:18، ص:260-261.

## المرحلة الرابعة: السحاب الممطر (الودق).

يصل التغير في صورة السحاب ذروته في مرحلة (سقوط الأمطار) في قوله تعالى: ﴿**فَتَرَى الْوَدْقَ يَخْرُجُ مِن خِلَالِهِ**﴾ في الآيتين (الروم:48، النور:43) فبعد أن تفرقت السحب عن بعضها في المرحلة السابقة، وشكلت قطعًا صغيرة، أو كبيرة بتراكمها واندماجها مع بعضها، فإن السحابة تدخل في مرحلة إنزال الأمطار، وذلك بعد أن تبدأ جزيئات السحب بالتفكك والتكسر.

**تدل مادة (ودق) على الدنو والاقتراب والسيلان والإخراج،** "فالوَدْق: القَطْرُ أو المطر كله شديده وهينه"[1] أو هو "القطر يخرج من بين السحب"[2] ويسمى المطر ودقًا؛ لنزوله من السماء نزولًا مستمرًّا، وقيل: ما يرافق المطر من غبار يتطاير،[3] ويدل الودق على المطر أو القطر الذي يخرج من بين السحاب، فيفرح الناس بنزوله عليهم ووصوله إليهم؛ لحاجتهم إليه،[4] "والودق: المطر القريب من الأرض"[5]، ونقول: "ودق إليه: قرُب، دنا منه، وودق المطر: سقط، ونزل، وودقت السماء: أمطرت"[6]، فعند الاقتراب من المرحلة النهائية هطول الأمطار وتساقطها، ناسب أن يأتي بلفظة (ودق)؛ لدلالتها على خروج قطرات المطر من السحب وسيلانها وسقوطها ودنوها من الأرض. ويظهر من الآيتين المدروستين أن للودق صورتين: صورة المطر غير المصحوب بالبرد في سحب الكسف، وصورة المطر المصحوب بالبرد في سحب الركام.

---

[1] جابر، صلاح مهدي: **معجم ألفاظ المطر**. كلية الإدارة والاقتصاد، جامعة كربلاء، ص:211.

[2] مندور: **مصطلحات الطقس والمناخ في القرآن الكريم**. ص:101.

[3] عباس، صاحب منشد، ومحيسن، محمد جعفر: **ألفاظ المطر في القرآن الكريم الدلالة والإشارة**. مجلة أوروك للأبحاث الإنسانية، مج:3، ع:4، تشرين الثاني، 2010م، ص:27.

[4] ينظر: ابن كثير: **تفسير القرآن العظيم**. ج:3، ص:446.

[5] يُنظر: عجيل: **الغيوم في القرآن الكريم دراسة في الفكر الجغرافي العربي الإسلامي**. ص:213.

[6] أبو العزم: **معجم الغني الزاهر**. مادة: (ودق).

**وظيفة الرياح في الصورة المتغيرة للسحاب.**

تسوق الرياح السحاب، إلى أن تتم عملية بسطه، ونشره، وتوسعته في السماء، وبعد ذلك تقطيعه، وكل منها يأخذ فترة زمنية كبيرة، مقارنة بالنهاية، فبعد إثارة السحب وبسطها وتقطيعها، أي بعد كل مرحلة من المراحل المذكورة، فإن السحابة ستنضج وستتهيأ لإلقاء حملها، فتتشابه في مرحلة الودق الذي يحمل دلالة الغيث، بعد نضجه، الذي بمجرد الوصول إلى نقطة التفكك من السحابة أو عند الوصول إلى نقطة الخلل فيها أو الضعف، فإنه يسقط إلى الأرض، فيرتبط بالبشرى والخير الوفير.

يستدل من إِرْسَالِ الرِّيَاحِ في قوله تعالى: ﴿**اللَّهُ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيَاحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا**﴾ عَلَى التَّفَرُّدِ بِالتَّصَرُّفِ وَتَصْوِيرِ الصُّنْعِ الْحَكِيمِ الدَّالِّ عَلَى سَعَةِ الْعِلْمِ، ثُمَّ أعقبَ الِاسْتِدْلَال بِإِرْسَالِ الرِّيَاحِ تَوَسُّلٌ إِلَى ذِكْرِ إِحْيَاءِ الْأَرْضِ بَعْدَ مَوْتِهَا الْمُسْتَدَلِّ بِهِ عَلَى الْبَعْثِ، وَالتَّعْبِيرُ بِصِيغَةِ الْمُضَارِعِ فِي: (يُرْسِلُ)، و(فَتُثِيرُ)، و(فَيَبْسُطُهُ)، و(يَجْعَلُهُ)؛ لِاسْتِحْضَارِ الصُّوَرِ الْعَجِيبَةِ فِي تِلْكَ التَّصَرُّفَاتِ، فكَأَنَّ السَّامِعَ يُشَاهِدُ تَكْوِينَهَا مَعَ الدَّلَالَةِ عَلَى تَجَدُّدِ ذَلِكَ.[1] ويدل اخْتِلَاف الْحَالِ عَلَى سَعَةِ الْقُدْرَةِ، وَالْخِطَابُ فِي: (فَتَرَى الْوَدْقَ) خِطَابٌ لِغَيْرِ مُعَيَّنٍ، وَهُوَ كُلُّ مَنْ يَتَأَتَّى مِنْهُ سَمَاعُ هَذَا، وَتَتَأَتَّى مِنْهُ رُؤْيَةُ الْوَدْقِ، فالْوَدْقُ: الْمَطَرُ، وَالضَمِيرُ في (خِلالِهِ) لِلسَّحَابِ بِحَالَتَيْهِ الْمَذْكُورَتَيْنِ، وَهُمَا: حَالَةُ البَسْطِ، وَحَالَةُ الكسف، فَالْمَطَرَ يَنْزِلُ مِنْ خِلَالِ السَّحَابِ الْمُغْلَقِ.[2]

**المسارات الحركية البصرية في تغير صورة السحاب.**

حَصَلَ مِنْ قَوْلِهِ: ﴿**فَيُصِيبُ بِهِ مَنْ يَشاءُ وَيَصْرِفُهُ عَنْ مَنْ يَشاءُ**﴾ (النور:43)، حُسْنُ التَّخَلُّصِ لِلِانْتِقَالِ إِلَى الِاسْتِدْلَالِ عَلَى عِظَمِ الْقُدْرَةِ وَسُمُوِّ الْحِكْمَةِ وَسَعَةِ الْعِلْمِ الْإِلَهِيِّ،[3] ويعتمد التصوير بقوله:

---

[1] ابن عاشور: **التحرير والتنوير**. ج:21، ص: 120-121.

[2] ينظر: **المرجع السابق**. ج:21، ص: 122.

[3] **المرجع السابق**. ج:18، ص:260-261.

﴿**أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُزْجِي سَحَابًا**﴾ على طريقة القرآن في إحياء المشهد، ثم يعرضه حيًّا ماثلًا للعيون، وكأنك تراه الآن، وتجتمع الأدوات التصويرية في المشهد المعروض، من حركة، وهيئة، ومساحة، وخطوط، وأشكال، وألوان، فالسحاب يتحرّك، ويتجمّع على هيئات وأشكال ضخمة كالجبال، ويقطع هذه المساحات والمسافات، ثم ينزل المطر وفق مشيئة الله، على هيئة معروفة، فيتغيّر مسار الحركة الأفقية في المشهد المنظور، إلى حركة عمودية من الأعلى إلى الأسفل في المطر النازل، ويضاف إلى صورة المشهد نور البرق الخاطف، ليكتمل تصوير هذا المشهد الطبيعي من جوانبه كلها، والإطالة في العرض الفني للمشهد هنا، تهدف إلى إبراز قدرة الله في كل لقطة تصويرية فيه. ثم إن صورة المشهد تشير إلى أن ما تراه العيون، قد يكون مصدر خير بنزول الأمطار على الأرض، أو مصدر هلاك بنزول البرد والسيول لتحطيم الزروع والثمار، حتى يظل الإنسان بين خوف ورجاء يتوجّه إلى الله بطلب الرحمة والخير منه سبحانه.[1]

**وظيفة السحاب الطبقي في تغير صورة السحاب.**

تصف الآية الكريمة ﴿**اللَّهُ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيَاحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَيَبْسُطُهُ فِي السَّمَاءِ كَيْفَ يَشَاءُ وَيَجْعَلُهُ كِسَفًا فَتَرَى الْوَدْقَ يَخْرُجُ مِن خِلَالِهِ فَإِذَا أَصَابَ بِهِ مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ**﴾ (الروم:48)، **السحاب الطبقي**، الذي يمتد أفقيًّا مشكِّلًا طبقة قد تصل إلى 200 كم، ثم تأتي طبقة ثانية وتمتد في أسفل الطبقة الأولى، ثم طبقة ثالثة في الأسفل ثم طبقة رابعة إلخ ... ولا يصاحب السحابَ الطبقي برقٌ ولا رعدٌ ولا بَرَدٌ حسب قول العلماء، ولكن، في حالات معينة ينزل المطر، ولا ينزل المطر إلا عند اجتماع أربع طبقات من السحاب، وإذا اجتمعت ثلاث طبقات من السحاب فيتكون المطر، دون أن

[1] الراغب، عبد السلام أحمد: **وظيفة الصورة الفنية في القرآن الكريم**. ط:1، فصلت للدراسات والترجمة والنشر، حلب، سورية، 2001م، ص:219.

يتساقط، ولا يتكون المطر في حال تكون طبقة واحدة أو اجتماع اثنتين.[1] وانطلاقًا من هذا التحليل، تتأكد ثنائية الثبات والتغير في صورة السحب، فلا يحدث التغير إلا باجتماع أربع مراحل متتابعة معًا، فلو نقصت مرحلة منها فلن يكون هناك تغير، أو بعبارة أدق، لن نرى تغيرًا ملموسًا محسوسًا مرئيًّا، إذ لن نرى الأمطار تتساقط، ولو لم تحدث مرحلة من المراحل الأربع، فلن تحدث المرحلة التالية لها؛ لاتصال المراحل وتتابعها وتلاصقها بعضها مع بعض.

**التناغم بين تغير صورة السحاب وتغير أحوال الإنسان.**

**ترتبط الصورتان المرسومتان مع أحوال العباد في الحياة الدنيا**، إذ إن ذِكْرَ اخْتِلَافِ أَحْوَالِ الْعِبَادِ فِي وَقْتِ نُزُولِ الْمَطَرِ فِي وَقْتِ انْحِبَاسِهِ بَيْنَ اسْتِبْشَارٍ وَإِبْلَاسٍ، إِدْمَاجٌ لِلتَّذْكِيرِ بِرَحْمَةِ اللَّهِ إِيَّاهُمْ، وَلِلِاعْتِبَارِ بِاخْتِلَافِ تَأَثُّرَاتِ نُفُوسِهِمْ فِي السَّرَّاءِ وَالضَّرَّاءِ، وَفِي ذَلِكَ إِيمَاءٌ إِلَى عَظِيمِ تَصَرُّفِ اللَّهِ فِي خِلْقَةِ الْإِنْسَانِ، إِذْ جَعَلَهُ قَابِلًا لِاخْتِلَافِ الِانْفِعَالِ مَعَ اتِّحَادِ الْعَقْلِ وَالْقَلْبِ، كَمَا جَعَلَ السَّحَابَ مُخْتَلِفَ الِانْفِعَالِ مِنْ بَسْطٍ وَتَقَطُّعٍ مَعَ اتِّحَادِ الْفِعْلِ.[2] فتصرفات العباد وقت الشدة تختلف وتتنوع، وهو اختبار لهم؛ ليُرى ما سيفعلون، وكيف سيتصرفون، وقت الضيق، فمنهم من يتآلف ويندمج مع الآخر، فيجيره في مصيبته، ويصله، إلى أن يأتي الفرج، وتأتي رحمة الله، ومنهم من يتفرق، ويتشتت، ويهيج هائمًا على وجهه، لا ينظر خلفه، ولا يكترث لغيره، فيهمه حاله ونجاته فقط.

**التغيير التقابلي بين صورة السحاب والمطر وصورة الأرض.**

يقتضي السياق المجاور لصورة تغير السحاب الذي ينجم عنه المطر تأمل التغير في صورة الأرض، إذ يتقابل مشهد تكون السحب في السماء ومرورها بالمراحل الأربع، مع مشهد الأرض الميتة، إذ تنتقل الصورة في قوله: ﴿**اللَّهُ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيَاحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَيَبْسُطُهُ فِي السَّمَاءِ كَيْفَ يَشَاءُ وَيَجْعَلُهُ**

---

[1] ينظر: الصوفي: **الموسوعة الكونية الكبرى**. ص:67-68.

[2] ابن عاشور: **التحرير والتنوير**. ج:21، ص:122.

﴿كِسَفًا فَتَرَى الْوَدْقَ يَخْرُجُ مِن خِلَالِهِ فَإِذَا أَصَابَ بِهِ مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ﴾ (الروم:48)، إلى أثر المطر في إحياء الأرض بعد موتها، في قوله: ﴿فَانظُرْ إِلَىٰ آثَارِ رَحْمَتِ اللَّهِ كَيْفَ يُحْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا إِنَّ ذَٰلِكَ لَمُحْيِي الْمَوْتَىٰ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ (الروم:50)، وترتسم صورة الأرض مخضرة بالنبات، على مساحات واسعة، فتقابل صورة مشهد السحاب الممدود على مسافات واسعة أيضًا، وتتقابل خطوط الصورة أيضًا بين المطر النازل، والنبات الطالع، وتتصل خطوط المشهدين في التصوير، اتصال السبب بالمسبب، فتبدو الأرض محتاجة إلى رحمة الله، مطرًا كانت أو وحيًا سماويًّا، فاتصال الأرض بالسماء اتصال مادي ومعنوي، ولا يمكن الاقتصار على أحدهما دون الآخر، فهي تحتاج إلى المطر؛ لتحقيق الحياة عليها في نبات الزروع والثمار، وهي بحاجة إلى الوحي؛ لإرشاد العقول وهدايتها، فيتحقق بذلك الخير والحياة السعيدة.

ويمتزج الترغيب والترهيب في تصوير الطبيعة، من خلال عرض صورتين متقابلتين للسحاب، وتجسيم حالات النفوس أمام هاتين الصورتين، فالسحاب إما أن يكون مصدر خير ونماء، وإمّا أن يكون مصدر هلاك ودمار، فالنفوس تفرح بنزول الأمطار، وتستبشر بها، ولكن حين ترى السحاب مصفرّا، فهو نذير عذاب وهلاك، فتبدو النفوس يائسة كافرة، وهكذا تتقابل المشاهد في السياق الواحد؛ لتحقيق الخوف والرجاء.[1]

**التفسير العلمي لتغير صورة السحاب.**

توضح الآية الكريمة: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُزْجِي سَحَابًا ثُمَّ يُؤَلِّفُ بَيْنَهُ ثُمَّ يَجْعَلُهُ رُكَامًا فَتَرَى الْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَالِهِ وَيُنَزِّلُ مِنَ السَّمَاءِ مِن جِبَالٍ فِيهَا مِن بَرَدٍ فَيُصِيبُ بِهِ مَن يَشَاءُ وَيَصْرِفُهُ عَن مَّن يَشَاءُ يَكَادُ سَنَا بَرْقِهِ يَذْهَبُ بِالْأَبْصَارِ﴾ (النور:43)، خصائص وأسباب سقوط المطر وأنواع التساقط الصلب والسائل،

[1] الراغب: **وظيفة الصورة الفنية في القرآن**. ص:222.

فتبين كيف تُدفع قطرات الماء الصغيرة في السحب، ثم تُجمع السحب؛ لتكون ركامًا عظيمًا، ثم يبدأ الودق بالخروج من مناطق الضعف فيها، فلا تقوى على حمل قطرات المطر الثقيلة نتيجة الركام فتخرج من مناطق الخلل في جسم السحابة.[1] والمشهد يُعرض على مهل وإطالة، إذ تترك أجزاؤه للتأمل قبل أن تلتقي وتتجمع؛ لتلامس القلب وتوقظه، وتبعثه إلى التأمل والعبرة، وتدبر صنع الله، فالسحاب يُزجى ويدفع من مكان إلى مكان، ثم يؤلف بينه ويجمع، فيكون ركامًا بعضه فوق بعض، فإذا ثقل خرج منه الماء، وهو في هيئة الجبال الضخمة الكثيفة، التي فيها قطع البرد الثلجية الصغيرة، فيتحقق مشهد الجبال بضخامتها، وارتفاعاتها، وانخفاضاتها، وهو تعبير مصور للحقيقة التي لم يرها الناس، إلا بعد أن ركبوا الطائرات.[2]

يبين تعالى **كيف يخلق السحاب** الذي ينزل منه الماء، فيقول: ﴿**اللَّهُ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيَاحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَيَبْسُطُهُ فِي السَّمَاءِ كَيْفَ يَشَاءُ وَيَجْعَلُهُ كِسَفًا فَتَرَى الْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَالِهِ فَإِذَا أَصَابَ بِهِ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ**﴾ (الروم:48)، أي: يمده، فيكثره، وينميه، ويجعل من القليل كثيرًا، وينشئ سحابة تُرى في العين، ثم يبسطها حتى تملأ أرجاء الأفق.[3] وتكون السحب في طبقات منخفضة، رمادية اللون، تتألف من كتل كروية تتجمع في مجموعات على شكل خطوط قريبة بعضها من بعض، وعندما تقطع الرياح هذه السحب الركامية إلى أجزاء منفصلة تتحول إلى سحب طبقية، فتُرى على شكل صفائح تغطي السماء، وهي ليست ممطرة إلا في حالات نادرة.[4] أما السحب الركامية فتبدأ بالتكون بإثارة تيارات الهواء الصاعدة (ذات الشحنات الكهربائية الموجبة) وحدات عدة من السحب، فتتحد، فتتراكم في طبقات بعضها

---

[1] ينظر: عجيل: **الغيوم في القرآن الكريم دراسة في الفكر الجغرافي العربي الإسلامي**. ص:220-221.

[2] ينظر: قطب: **في ظلال القران الكريم**. ج:4، ص:2522.

[3] ينظر: ابن كثير، أبو الفداء: **تفسير القرآن العظيم**. تح: يوسف المرعشلي. ط:1، دار المعرفة للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، لبنان، 1992م، ج:3، ص:446.

[4] عجيل: **الغيوم في القرآن الكريم دراسة في الفكر الجغرافي العربي الإسلامي**. ص:221.

فوق بعض، وبعد اتحادها مع الشحنة الكهربائية في الفضاء، يتكون مجال كهربائي يؤدي إلى تحول البخار إلى قطرات ماء دقيقة، تكبر شيئًا فشيئًا إلى أن يسقط المطر.[1] ويبدأ السحاب الركامي قُزَحًا، أي: قطعة هنا وقطعة هناك، فيأتي هواء خفيف فيدفع السحب قليلًا قليلًا، فتجتمع سحابتان أو تنمو سحابة بسرعة، فيتكون تيار هواء تلقائي داخلها، وهذا التيار الهوائي الذي بداخلها يصعد إلى أعلى، وحين يصعد إلى أعلى يشفط الهواء من الجنب، فتسحب السحب بالشفط، بعد أن أصبح لها قوة سحب وجذب للسحب المجاورة، وبعد أن يؤلف بين السحب، وتتباعد بقية السحب بعدًا كبيرًا، يتوقف الشفط، ويحدث نمو رأسي إلى أعلى، يركم السحاب بعضه فوق بعض، فالسحابة نفسها تطلع وتعلو فوق، وتعلو بعضها فوق بعض، وعندما يتوقف الركم يضعف، فينزل المطر إثر ذلك.[2] وتتميز السحب الركامية بنموها الرأسي في شكل الجبال وقواعدها تكون داكنة اللون ويصاحبها سقوط أمطار غزيرة.[3]

**وتتصف السحب الركامية** بنموها الرأسي؛ نتيجة الحركات الصاعدة للهواء الحار أثناء ارتفاع الهواء البارد، وهذه الحركة هي سبب تكون الجبهات والمنخفضات الجوية، وتكون سببًا في سقوط الأمطار، وتتكون سحب الركام أيضًا من التسخين الشديد لسطح الأرض الذي يتولد عنها تيارات صاعدة تؤدي إلى سقوط المطر. **ومن أنواع السحب الركامية: سحب الركام:** وهي سحب يصاحبها سقوط الأمطار (تساقط سائل). **وسحب الركام المزني:** وهي سحب تشبه الجبال، ولا يسقط البَرَدُ إلا مع هذه السحب (تساقط صلب).[4]

---

[1] الصوفي، ماهر: **الموسوعة الكونية الكبرى**. ط:1، المكتبة العصرية، صيدا، بيروت، 2007م، ص:77.

[2] الحاج أحمد: **موسوعة الإعجاز العلمي في القرآن والسنة المطهرة**. ص:263.

[3] مندور: **مصطلحات الطقس والمناخ في القرآن الكريم**. ص:96.

[4] ينظر: **المرجع السابق**. ص:104-105.

## المبحث الثاني: الفضاءات المتغيرة في صورتي الماء والبحر.

**المطلب الأول: الثبات والتغير في الصـــورة الكونيـة للبحـار في القرآن الكريم.**

**المطلب الثـاني: الثبـات والتغير في صـــورة الأمواج البحريـة في القرآن الكريم.**

**المطلب الثالث: الثبات والتغير في صـــورة الجواري (الســـفن) في القرآن الكريم.**

## المبحث الثاني: الفضاءات المتغيرة في صورتي الماء والبحر.

### المطلب الأول: الثبات والتغير في الصورة الكونية للبحار في القرآن الكريم.

يتحول الفضاء الدلالي للصورة الفنية من حالة إلى حالة وفق مقتضيات السياق، فتكون مسوغات التحول معلنة وفق السياق، كالأسلوب الشرطي لآيات البحار في القرآن الكريم في قوله تعالى: ﴿**وإذا البِحارُ سُجِّرَتْ**﴾ (التكوير:6)، وقوله: ﴿**وإذا البِحارُ فُجِّرَتْ**﴾ (الانفطار:3)، فثبت نائب الفاعل وتغير فعل الشرط في الآيتين، فما سبب هذا التغير؟ وما دلالته؟

**تدور دلالات كلمة (سجر) في قوله تعالى: ﴿وإذا البِحارُ سُجِّرَتْ﴾، حول معانٍ متعددة، كالامتلاء، والتفجير، والتفريغ، والاختلاط، والإيقاد، والإحماء، والحنين، والسكون مع امتلاء**، فسجرت "تعني: ملئت، أو فَاضَتْ وذَهَب مَاؤُهَا، أو فُجِّرَت، والمَسْجُورُ السَّاكِنُ والمُمْتَلِئُ مَعًا، والْمَسْجُورُ يَكُونُ المَمْلُوءَ الَّذِي لَيْسَ فِيهِ شَيْءٌ، وَشَعر مَسْجُورٌ: مُسْتَرْسِلٌ؛ وسَجَرَت الناقةُ: حنَّت فَطَرِبَتْ فِي إِثر وَلَدِهَا، وانْسَجَرَتِ الإِبلُ فِي السَّيْرِ: تَتَابَعَتْ، وَعَيْنٌ سَجْراءُ: إِذا خَالَطَ بَيَاضَهَا حُمْرَةٌ، ولؤلؤٌ مسجورٌ إِذا انْتَثَرَ مِنْ نِظَامِهِ، وَلُؤْلُؤَةٌ مَسْجُورَةٌ: كَثِيرَةُ الْمَاءِ، وسَجِيرُ الرَّجُلِ: خَلِيلُه وصَفِيُّه، وسَاجَرَه: صاحَبَهُ وَصَافَاهُ؛ والسَّجِيرُ: الصَّدِيقُ"[1] وقيل في تفسير (سجرت): أنها "ملئت حتى فاضت فانفجرت وسالت"[2]، وقيل: سَجَرَ التنور إذا ملأه بالحطب، أي: ملئت وفجر بعضها إلى بعض حتى تعود بحرًا واحدًا، وقيل: ملئت نيرانًا تضطرم لتعذيب أهل النار، أو يذهب ماؤها فلا تبقى فيها قطرة.[3]

---

[1] ابن منظور: **لسان العرب**. مادة: (سجر).

[2] الطبري، ابن جرير: **جامع البيان عن تأويل آي القرآن (تفسير الطبري)**. تح: محمود شاكر. ط:2، مكتبة ابن تيمية، القاهرة، مصر، (د.ت)، ج:24، ص:243.

[3] الزمخشري، أبو القاسم: **تفسير الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل**. تعليق: خليل مأمون شيما. ط:3، دار المعرفة، بيروت، لبنان، 2009م، ج:30، ص:1182.

وقُصد بالتسجير: تفَجير الزلزال لما بين البحار حتى تختلط وتعود بحرًا واحدًا، أو إضرامها نارًا، فيظهر ما في باطن الأرض من النار بتشققها وتمزّق طبقاتها العليا، فيصير الماء بخارًا، ولا يبقى إلا النار،[1] أو إن تَسْجِير الْبِحَارِ يعني: فَيَضَانهَا، أو تَجَاوُز مِيَاهِهَا مُعَدَّلَ سُطُوحِهَا وَاخْتِلَاطُ بَعْضِهَا بِبَعْضٍ إثر اخْتِلَالِ قُوَّةِ الْهَوَاءِ الضَاغِطَةً عَلَيْهَا، وَإِذَا حَدَثَ ذَلِكَ اخْتَلَطَ مَاؤُهَا بِرَمْلِهَا فَتَغَيَّرَ لَوْنُهُ.[2] ومن التفسيرات الحديثة لتسجير البحار ملؤها بالمياه، وإما أن تجيئها هذه المياه من فيضانات، وإما بالزلازل والبراكين التي تزيل الحواجز بين البحار، فيتدفق بعضها في بعض، وإما التهابها وانفجارها.[3]

**تدور دلالات كلمة "فجر" في قوله تعالى: ﴿وإذا البِحارُ فُجِّرَتْ﴾، حول معانٍ متعددة، كالاختلاط، والاختراق، والانحراف، والانبعاث، والوضوح، والتوقيت، والتفجير، والكثرة، والإتيان من كل مكان، والميل عن الحق، والعصيان، والركوب إلى ما لا يحل، والشق والبثق والانصداع، والفساد، والمضي بلا اكتراث،** "فالفَجْر: تَفْجيرُ الْمَاءِ، وتَفَجَّرَ: انْبَعَثَ سَائِلًا، وفَجْرَة الْوَادِي: مُتَّسعه، وأَفْجَرَ يَنْبُوعًا: أَخرجه، وانْفَجَرَتْ عَلَيْهِمُ الدَّوَاهِي: أَتتهم مِنْ كُلِّ وَجْهٍ كَثِيرَةً بَغْتة، والفَجَر: الْعَطَاءُ وَالْكَرَمُ وَالْجُودُ وَالْمَعْرُوفُ، والفَجَرُ: كَثْرَةُ الْمَالِ؛ الافْتِجارُ فِي الْكَلَامِ اخْتِراقُه، وأَصل الفَجْر الشَّقُّ.[4] وقيل في كلمة (فجرت): فَجَّر بعضَها في بعض، فملأ جميعها، أو فُجِّر عذبها في مالحها، ومالحها في عذبها، أو فجِّر بعضها في بعض، فذهب ماؤها، أو ملئت.[5] أو فُتح بعضها إلى بعض وزال البرزخ وصارت البحار بحرًا واحدًا.[6] أو إن تَفْجِير الْبِحَارِ يعني: انْطِلَاق مَائِهَا مِنْ مُسْتَوَاهُ وَفَيَضَانهُ عَلَى مَا حَوْلَهَا مِنَ الْأَرْضِينَ، فيَعُمُّ الْمَاءُ

---

[1] ينظر: المراغي، أحمد مصطفى: **تفسير المراغي**. ط:1، مطبعة مصطفى البابي الحلبي، مصر، 1946م، ج:30، ص:54.

[2] ينظر: ابن عاشور: **التحرير والتنوير**. ج:30، ص:140-143.

[3] ينظر: قطب: **في ظلال القران الكريم**. ج:6، ص:3839.

[4] ابن منظور: **لسان العرب**. مادة: (فجر).

[5] الطبري: **جامع البيان عن تأويل آي القرآن (تفسير الطبري)**. ج:24، ص:267.

[6] ينظر: الزمخشري: **تفسير الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل**. ج:30، ص:1185.

عَلَى الْأَرْضِ فَيَهْلِكُ مَا عَلَيْهَا وَيَخْتَلُّ سَطْحُهَا.[1] ويمكن أن يعني تفجير البحار امتلاءها وغمرها لليابسة وطغيانها على الأنهار، أو أن يفجر ماؤها إلى عنصريه: الأكسجين والهيدروجين، فتتحول مياهها إلى هذين الغازين كما كانت قبل أن يأذن الله بتجمعهما وتكوين البحار منهما، أو أن يكون بتفجير ذرات هذين الغازين، كتفجير القنابل الذرية والهيدروجينية اليوم، فيكون تفجيرًا ضخمًا مهولًا، أو أن يكون بهيئة أخرى لا نعلمها.[2] فإذا انفجرت ذرات البحار تنطلق نيران هائلة يعجز الإدراك البشري عن تصور هولها العظيم أو تصور النيران الهائلة المنطلقة منها.

يتشابه التركيبان: ﴿**وإذا البِحارُ سُجِّرَتْ**﴾ (التكوير:6)، و﴿**وإذا البِحارُ فُجِّرَتْ**﴾ (الانفطار:3)، في الجزء الأول منهما، اللفظة الأولى، أي: البحار، مع تغير اللفظة الثانية، أي: سجرت، وفجرت. ومما يكشف لنا، سبب هذا التغير، الاتكاء على المحورين الرأسي (العامودي) والأفقي، وعلاقة الألفاظ وتناسبها مع بعضها بعضًا، في كلتا السورتين، مع ارتباطهما مع السياق، الذي عُدَّ رحمًا لتخلق المعاني.

ورد الفعل (سجرت) في سياق قوله: ﴿**إذا الشَّمْسُ كُوِّرَتْ * وإذا النُّجُومُ انْكَدَرَتْ * وإذا الجِبالُ سُيِّرَتْ * وإذا العِشارُ عُطِّلَتْ * وإذا الوُحُوشُ حُشِرَتْ * وإذا البِحارُ سُجِّرَتْ * وإذا النُّفُوسُ زُوِّجَتْ * وإذا المَوْءُودَةُ سُئِلَتْ * بِأَيِّ ذَنْبٍ قُتِلَتْ * وإذا الصُّحُفُ نُشِرَتْ * وإذا السَّماءُ كُشِطَتْ * وإذا الجَحِيمُ سُعِّرَتْ**﴾ **(التكوير:1-12)**.

تتفاعل البدائل اللغوية مع بعضها، وبعد الاتكاء على **السياق**، تتضح البنية الدلالية المكونة من معاني النسيج كله، فتتضح العلاقة بين الأجزاء والمجموع. ويكشف التأمل في دلالة مادة (سجر) عن روابط دلالية مع السياق العام للآيات، منها:

---

[1] ينظر: ابن عاشور: **التحرير والتنوير**. ج:30، ص:171-172.

[2] ينظر: قطب: **في ظلال القران الكريم**. ج:6، ص:3846-3847.

1- **النار والحرارة:** تدل مادة (سجر) على النار والحرارة، "فالسجر: الاتقاد في التنور، والسجور: اسم الحطب، وسجر التنور: أوقده وأحماه"[1]، فتتقاطع هذه الدلالات مع قوله: ﴿**وإذا الجَحِيمُ سُعِّرَتْ**﴾ (التكوير:12)، وترتبط مع حرارة الشمس في قوله: ﴿**إذا الشَّمْسُ كُوِّرَتْ**﴾ (التكوير:1)، ومع الحرارة المنبعثة عن النجوم عند انكدارها ووقوعها على الأرض في قوله: ﴿**وإذا النُّجُومُ انكَدَرَتْ**﴾ (التكوير:2)، فتشكل النار في البحار والجحيم مشهدًا متكاملًا ليقع الوعيد بتسجير البحار وتسعير النار.

2- **الإبل:** نقول: "سجرت الناقة، أي: حنت فطربت في إثر ولدها، وانسجرت الإبل في السير: تتابعت، والسجر: ضرب من الإبل"[2]، فترتبط بقوله: ﴿**وإذا العِشارُ عُطِّلَتْ**﴾ (التكوير:4)، فالعشار هي النوق الحوامل التي مضى على حملها عشرة أشهر.

3- **الوحوش:** يناسب الفعل (سجرت) حشر الوحوش في قوله: ﴿**وإذا الوُحُوشُ حُشِرَتْ**﴾ (التكوير:5)، الذي قيل فيه: إن الوحوش ملكت وقيّد اضطرابها، فتتشابه مع "ساجور الكلب الذي يجعل في عنقه، ويشده به"[3].

4- **الائتلاف والتقارب:** تحمل مادة (سجر) معنى ائتلاف الطباع وتقارب السجايا، فنقول: "ساجره: صاحبه وصافاه، والسجير: هو الخليل الذي يسجر في مودة خليله"[4]، فيتفاعل مع قوله: ﴿**وإذا النُّفُوسُ زُوِّجَتْ**﴾ (التكوير:7)، أي: قرن الصالح مع الصالح، والسيء مع السيء.

---

[1] ابن منظور: **لسان العرب**. مادة: (سجر).

[2] **المصدر السابق**. مادة: (سجر).

[3] **المصدر السابق**. مادة: (سجر).

[4] **المصدر السابق**. مادة: (سجر).

5- **اللون:** تدل مادة (سجر) على اختلاط الألوان وتداخلها، "فالغدير الأسجر: هو الذي يضرب ماؤه إلى الحمرة، وفسر قوله: ﴿**وإذا البِحارُ سُجِّرَتْ**﴾ (التكوير:6)، بأنها صارت حمراء كالدم، وعين سجراء: أي خالط بياضها حمرة، أو زرقة[1]، أو هي حمرة في زرقة، ويتقاطع تمازج الألوان وتداخلها مع حال الرؤية عندما تكور الشمس وتنكدر النجوم.

ويلحظ من الدلالات السابقة أن الفعل (سجرت) تناسب مع السياق العام له، فجاء في سياق التجميع، إذ إن انفجار البحار وتحولها بحرًا واحدًا، وحشر الوحوش وتجميعها، وتزويج النفوس واقترانها، هو ائتلاف واجتماع يناسب بعضه بعضًا، ونلحظ أن شبكة العلاقات الدلالية بين السياق العام ومادة (سجر)، لا تتوافر في مادة (فجر)، إذ أتى الفعل (فجرت) في سياق التفرق، فتناسب انفجار البحار مع انفطار السماء وانشقاقها، وبعثرة القبور، وانتثار النجوم.[2]

وتأسيسًا على ما تقدم، فإن مناسبة الألفاظ لسياقها، ووضعها في موضعها الملائم لها، يقود حتمًا إلى التغير، فعلى الرغم من تقارب الفعلين (سجرت) و(فجرت) وتقاطعهما دلاليًا، إلا أن السياق أدى إلى التغير الحتمي، فتتضح بذلك العلاقة المتجانسة بين السياق وثنائية الثبات والتغير. فالبحار ثابتة، ولكن التغير حصل في فعل الشرط، الذي سيكون علامة، تدلنا على مشهد سيكون، ونتيجة لتغير فعل الشرط ستتغير النتيجة الكلية. فالثبات والتغير، والتفاعل مع البدائل اللغوية، والسياق، كلها مجتمعة، أدت إلى دلالات جديدة، تحدد المعنى بدقة، وتبرز المقصود، من الآيات الكريمة، وتفرق بينها، فنصل إلى دلالات جديدة بوساطة المحور العمودي والأفقي، والسياق.

---

[1] ابن منظور: **لسان العرب**. مادة: (سجر).

[2] ينظر: عتيق، عمر: **ظواهر أسلوبية في القرآن الكريم التركيب والرسم والإيقاع**. ط:1، عالم الكتب الحديث، إربد، الأردن، 2009م، ص:16-19.

**توجد البحار على فوهات بركانية عظيمة قديمة مغلقة**، تنتظر ساعتها، فثوران البراكين يبدأ بإطلاق القذائف البركانية من الصخور، والحمم التي تحرق الأخضر واليابس، وتحول الأرض إلى سيل من النار الملتهبة المتحركة، وهذا ما أشار إليه القرآن بقوله: (فجرت، وسجرت) فالتفجر أولًا، ثم السجور ثانيًا، إذ إن النار الملتهبة تزداد اشتعالًا عند صب الماء عليها، فلذلك قال: (سجرت).[1] **أثبت العلم الحديث** من الناحية النظرية إمكانية احتراق الماء، وتحول البحار والمحيطات إلى أحواض فارغة، فالماء H2O يتكون من هيدروجين وأوكسجين، ومن خصائص الهيدروجين: أنه غاز قابل للاشتعال والاحتراق، بينما لا يقبل الأوكسجين الاحتراق ولا يشتعل، غير أنه يساعد على الاشتعال، ولو أمكن فصل ذرات الماء لحدث اشتعال واحتراق رهيب؛ لأن الناتج سيكون غازًا قابلًا للاشتعال، وآخر مساعد للاشتعال.[2]

وأزعم أن التفجير لا يعني اختلاط الماء العذب بالمالح، فالقرآن لا يخالف بعضه بعضًا، ففي قوله: ﴿**مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ يَلْتَقِيَانِ * بَيْنَهُمَا بَرْزَخٌ لَا يَبْغِيَانِ**﴾ (الرحمن:19-20)، وقوله: ﴿**وَمَا يَسْتَوِي الْبَحْرَانِ هَذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ سَائِغٌ شَرَابُهُ وَهَذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ وَمِن كُلٍّ تَأْكُلُونَ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُونَ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا وَتَرَى الْفُلْكَ فِيهِ مَوَاخِرَ لِتَبْتَغُوا مِن فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ**﴾ (فاطر:12)، يشير إلى عدم التقاء الماء أو اختلاطه تمامًا، في أي حالٍ من الأحوال، فهما لا يبغيان، ولا يمكن أن يبغيا، أو يطغيا بعضهما على بعض، أو أن يخالفا نظام الخالق -عز وجل- حتى في نهاية الحياة الدنيا، وأعني المشهد الأخير منها. **فما معنى التفجير** المقصود في قوله: ﴿**وإذا البِحارُ فُجِّرَتْ**﴾ (الانفطار:3)؟

---

[1] ينظر: الجبالي، محمد رجائي: **توجيه المتشابه اللفظي في القرآن الكريم بين القدامى والمحدثين أحمد الغرناطي وفاضل السامرائي: دراسة مقارنة**. (رسالة دكتوراه). قسم القرآن والحديث، أكاديمية الدراسات الإسلامية، جامعة ملايا، كوالالمبور، 2012م، ص:205.

[2] قاسم، أحمد: **الإعجاز العلمي في تسجير البحار**. مجلة القلم، منشورات جامعة القلم للعلوم الإنسانية والتطبيقية، ع:9، 2018م، ص:145.

أزعم أن تفجير البحار يعني خروجها عن النظام الكوني المألوف، وانحرافها عن سيرها الطبيعي، فتتحرك بمسارات عشوائية، وتؤكد ذلك مادة (فجر) التي من معانيها: الميل، أو الانحراف، والعصيان، والفساد، والمضي بلا اكتراث، فكأن البحار التي تسير بانتظام، وحركات منظمة، ستفسد حركتها، لحدث ما، قبل نهاية الحياة الدنيا وقبل المشهد الختامي لها، فيتبعثر النظام الكوني كله، فالسماء تنفطر، دون أن تنجلي أو تختفي، والكواكب تتفرق، دون أن تؤدي إلى انتهاء الكون، والقبور تتبعثر، والبحار تتفجر، أو تنحرف عن سيرها الطبيعي، فتسير بمسارات عشوائية، ولكنها تبقى ماءً، (عكس التسجير)، أي إن ما جُعل منه كل شيء حيًّا، لن ينعدم، ولن يصير نارًا إلا عند النهاية المحتومة، أي (بتسجير البحار)، فالماء، المصدر الأول والأساس لمقومات الحياة على الأرض، سيظل موجودًا، ولن يكون المشهد الختامي الأخير، وإنما يكون مشهدًا من مشاهد تسبق المشهد الختامي.

## المطلب الثاني: الثبات والتغير في صورة الأمواج البحرية في القرآن الكريم.

### مدخل.

تتجدد مياه البحر باستمرار، فهي في حركة دائمة، وتتعدد حركاتها، فمنها: الحركات المائية السطحية، كأمواج المد والجزر، والأمواج العادية، والتيارات البحرية السطحية، والحركات المائية تحت السطحية (السفلية)، كالتيارات البحرية الرأسية (الصاعدة والهابطة)، والتيارات الأفقية تحت السطحية، وحركات المياه التي تسببها الحركات التكتونية في قاع البحر.[1]

تعرف **الأمواج البحرية بأنها:** حركات متأرجحة للماء، تكون نتاج عدم التوازن المائي لسطح المسطحات المائية، ينجم عنها حركة دائرية مغلقة أو شبه مغلقة، وحركة رأسية وأفقية، وفقًا للمتغيرات

---

[1] أبو مايله، يوسف، وزميله: **محاضرات في علوم البحار والمحيطات (الأوقيانوغرافيا)**. (د.ط)، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، جامعة الأزهر، غزة، (د.ت)، (د.ص).
وينظر: الزوكه، محمد: **جغرافية المياه**. (د.ط)، دار المعرفة الجامعية، الإسكندرية، 1998م، ص:337.

التي تخضع لها، سواءً كانت إعصارية، أم مدية جزرية، أم اهتزازية زلزالية،[1] وهذه التحركات تكون ذات سرعة معينة، تؤدي إلى ارتفاع مياه البحر وانخفاضها في شكل أمواج متلاحقة منتظمة.[2] ويتعلق هبوب الرياح وسرعتها بتكوين أمواج البحر العالية، والمواسم المناسبة للملاحة البحرية في بحار العالم المختلفة.[3]

## الثبات والتغير في ظاهرة الموج في القرآن الكريم.

يؤثر السياق في التشكيل اللغوي لعناصر صورة الموج في قوله تعالى: ﴿**وَهِيَ تَجْرِي بِهِمْ فِي مَوْجٍ كَالْجِبَالِ وَنَادَىٰ نُوحٌ ابْنَهُ وَكَانَ فِي مَعْزِلٍ يَا بُنَيَّ ارْكَب مَّعَنَا وَلَا تَكُن مَّعَ الْكَافِرِينَ**﴾ (**هود**:42)، وفي قوله تعالى: ﴿**وَإِذَا غَشِيَهُم مَّوْجٌ كَالظُّلَلِ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ فَلَمَّا نَجَّاهُمْ إِلَى الْبَرِّ فَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ وَمَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَا إِلَّا كُلُّ خَتَّارٍ كَفُورٍ**﴾ (**لقمان**:32)، فيثبت المشبه (موج) ويتغير المشبه به (الجبال/ الظلل).

جاءت آية: ﴿**وَهِيَ تَجْرِي بِهِمْ فِي مَوْجٍ كَالْجِبَالِ وَنَادَىٰ نُوحٌ ابْنَهُ وَكَانَ فِي مَعْزِلٍ يَا بُنَيَّ ارْكَب مَّعَنَا وَلَا تَكُن مَّعَ الْكَافِرِينَ**﴾ (**هود**:42)، في سياق قصة نوح –عليه السلام– والطوفان العظيم الذي أغرق قوم نوح، إلا من سبق عليه القول. وتكاد تكتفي بعض كتب التفسير، بتشبيه الموج في سياق الطوفان في قوله: ﴿**وَهِيَ تَجْرِي بِهِمْ فِي مَوْجٍ كَالْجِبَالِ**﴾ (**هود**:42)، بالجبال، وإبراز وجه الشبه وقصره على العظمة والعلو والارتفاع والضخامة.[4]

---

[1] ينظر: أبو لقمة، الهادي، وزميله: **الجغرافيا البحرية**. ط:2، الدار الجماهيرية، ليبيا، 1999م، ص:100–101.

[2] الزوكه، محمد: **جغرافية المياه**. ص:338–339.

[3] ينظر: أبو العينين، حسن: **جغرافية البحار والمحيطات (الأوقيانوغرافيا)**. (د.ط)، الدار الجامعية، بيروت، (د.ت)، ص:238.

[4] ينظر: البغوي، أبو محمد عبد الله الزيد: **مختصر تفسير البغوي المسمى بمعالم التنزيل**. ط:1، دار السلام للنشر والتوزيع، الرياض، 1416هـ، ج:4، ص:426.

لا يتسم التحليل البلاغي السابق بالدقة والشمولية، إذ يعود تشبيه الموج بالجبال في الآية الكريمة إلى قول ابن نوح بأنه سيأوي إلى جبل، فيحميه من الطوفان، وينجيه من الهلاك، بدليل قوله على لسان ابن نوح: ﴿**قَالَ سَآوِي إِلَىٰ جَبَلٍ يَعْصِمُنِي مِنَ الْمَاءِ**﴾ (**هود**:43)، وتشكل لفظتا (الجبال) و(الجبل) ثنائية سياقية ضدية، فالجبال في قوله تعالى: ﴿**مَوْجٍ كَالْجِبَالِ**﴾ تقابل لفظ الجبل في قول ابن نوح، وتدل (الجبال) في قوله تعالى: ﴿**مَوْجٍ كَالْجِبَالِ**﴾ على القوة والتمكن والإهلاك، بينما تدل لفظة (جبل) في قول ابن نوح على الغرور والعناد والضعف والهلاك، وتمثل صورة الجبال تدبيرًا ربانيًّا، بينما صورة الجبل في قول ابن نوح فتمثل الوهم والغرور والضعف. فالذي ظن أن الجبل أقوى من الطوفان، فاحتمى به، واغتر بقوة الجبل، واغتر بحنكته وقدرته على الوصول إلى قمة الجبل، فوجئ بموج كالجبال، فناسب أن يكون جزاؤه مماثلًا لقوله.

تتناسب الألفاظ (تجري) و(موج) و(كالجبال) مع سياق عذاب الطوفان العظيم العجيب، في قوله تعالى: ﴿**وَهِيَ تَجْرِي بِهِمْ فِي مَوْجٍ كَالْجِبَالِ**﴾ (**هود**:42)، فنقول: "جرى إلى البيت: قصده وأسرع إليه"[1]، "وجرت السفينة: سارت"[2]، "وجرية الماء: حالة الجريان، والإجريا: ضرب من الجري"[3] فمن

---

وينظر: ابن عاشور: **التحرير والتنوير**. ج:12، ص:74.

وينظر: لجنة من العلماء: **التفسير الوسيط للقرآن الكريم**. ط:3، مجمع البحوث الإسلامية بالأزهر، مطبعة المصحف الشريف، 1992م، ج:7، ص:208.

وينظر: جماعة من علماء التفسير: **المختصر في تفسير القرآن الكريم**. ط:3، مركز تفسير للدراسات القرآنية، الرياض، المملكة العربية السعودية، 1436هـ، ج:12، ص:226.

وينظر: مركز الدراسات القرآنية: **الميسر في غريب القرآن الكريم**. ط:2، مجمع الملك فهد لطباعة المصحف الشريف، المدينة المنورة، المملكة العربية السعودية، 1430هـ، 2009م، ج:1، ص:226.

وينظر: السيوطي، جلال، والمحلي، جلال: **تفسير الجلالين الميسر**. تح: فخر الدين قباوة. ط:1، مكتبة لبنان ناشرون، بيروت، لبنان، 2003م، ج:12، ص:226.

[1] عمر، أحمد مختار: **معجم اللغة العربية المعاصرة**. ط:1، عالم الكتب، القاهرة، مصر، 2008م، مادة: (جري).

[2] ابن عباد: **المحيط في اللغة**. مادة: (جري).

[3] ابن منظور: **لسان العرب**. مادة: (جرا).

يريد النجاة في حالات الكوارث، سيجري وسيسير مسرعًا، **وتدل مادة (جري) على صغر الحجم**، "فالجِرْوُ: الصَّغِيرُ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ، والجارية: السفينة"[1] فتتناسب مع السفينة الصغيرة السائرة في الطوفان الكبير العظيم المعبَّر عنه بالجبال.

**تدل مادة (موج) على معنى: الاضطراب والتحير والتداخل، والحركة والجريان**، "**فالمَوْجُ**: مَا ارْتَفَعَ مِنَ الْمَاءِ فَوْقَ الْمَاءِ، ونقول: ماجَ البحرُ: اضطرَبَت أَمواجُه، وماجَ: تحَيَّر، وماجَ الناسُ: دَخَلَ بعضُهم فِي بَعْضٍ،[2] وهي الحالة التي يكون عليها الناس، وغيرهم من المخلوقات، في هذه المشاهد المرعبة.

**تدل مادة (جبل) على معنى الطول والارتفاع والعظمة والعلو، والدخول، والاتساع، والكثرة، والضخامة، والغلظ**، فالجَبَل: اسْمٌ لِكُلِّ وَتِدٍ مِنْ أَوتاد الأَرض إِذا عَظُم وَطَالَ، وَرَجُلٌ مَجْبُول: عَظِيمٌ، والجَبْلُ: الضَّخْم؛ وتجبل القوم: دَخَلوا فِي الجَبَل، والجَبْل: السَّاحَة، وجَبِلَ: غَلُظ، وحَيٌّ جِبْل، أَي: كَثِير،[3] وهذه المعاني تتناسب مع الطوفان العظيم، وأمواجه الضخمة، العظيمة، الغليظة، المرتفعة، الكثيرة، المتسعة، المدمرة.

تقابل حالة القوة والشدة والصلابة التي تمثلها الجبال، ويتسم بها الطوفان (العذاب)، صورةَ النجاة المرادة، المتمثلة في الجري، المتسم بالحركة والسرعة، هربًا من الغرق، ورغبةً في النجاة، وعند تداخل النقيضين (النجاة والعذاب)، فإن الحالة المتوقعة هي الاضطراب، الذي يتمثل في صورة (الموج)، وهي الحالة النفسية المتوقعة لمن وقع عليه عذاب ذو موت محتم، فاضطربت نفسه، وتداخلت مشاعره، بين طلب للنجاة، وشعور مؤكد بالموت، وأملٍ بالحياة.

---

[1] ابن منظور: **لسان العرب**. مادة: (جرا).

[2] **المصدر السابق**. مادة: (موج).

[3] **المصدر السابق**. مادة: (جبل).

تتغير صورة الموج في قوله تعالى: ﴿**وَإِذَا غَشِيَهُم مَّوْجٌ كَالظُّلَلِ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ فَلَمَّا نَجَّاهُمْ إِلَى الْبَرِّ فَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ وَمَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَا إِلَّا كُلُّ خَتَّارٍ كَفُورٍ**﴾ (**لقمان**:32)، في سياق الجحود وكفران النعم ممن أنعم الله عليهم، بعد إلحاحهم في الدعاء خاصة، وحصولهم على ما يريدون. وفُسر معنى الظلل في الآية الكريمة ﴿**وَإِذَا غَشِيَهُم مَّوْجٌ كَالظُّلَلِ**﴾ (**لقمان**:32)، بمعنيين، هما: الجبال، وكل ما أظل من سحاب أو غيره.[1]

يكمن سبب تغير صورة الموج في **توافق دلالة مادة (ظلل) مع موقف الكافرين وصفاتهم عند الدعاء والحاجة**، وبعد امتلاكهم ما يريدون، **فتدل مادة (ظلل) على معنى الاستمرار والدوام، والاستتار والخفاء والغطاء، والاقتراب والدنو، والميل والقعود، إذ نقول:** "أَظَلَّ الشيءُ: غَشِيَ، والظلة: ما سترك من فوق، والإِظْلالُ: الدُّنُوُّ؛ وظِلُّ الليلِ: سَوادُه، واسْتَظَلَّ الرجلُ: اكْتَنَّ بالظِّلِّ، واسْتَظَلَّ بالظِّلِّ: مال إليه وقَعَد فيه، وظِلُّ السحاب: ما وَارَى الشمسَ منه، وظِلُّه سَوادُه"[2]، "والظلة: سحابة تظل، والظلة: الغاشية،

---

[1] ينظر: ابن عاشور: **التحرير والتنوير**. ج:21، ص:191-192.

وينظر: الرازي، فخر الدين: **تفسير الفخر الرازي المشهور بالتفسير الكبير ومفاتيح الغيب**. ط:1، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، لبنان، 1981م، ج:25، ص:132.

وينظر: المراغي: **تفسير المراغي**. ج21 ص:97.

وينظر: الألوسي، شهاب الدين: **روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني**. تصحيح: علي عطية. ط:1، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، 1994م، ج:11 ص:112.

وينظر: الأندلسي، أبو حيان: **البحر المحيط في التفسير**. تح: صدقي جميل. (د.ط)، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، لبنان، 2010م، ج8: ص:423.

وينظر: السيوطي: **الدر المنثور في التفسير المأثور**. ج:21، ص:529.

وينظر: الطيبي، الحسين بن عبد الله: **فتوح الغيب في الكشف عن قناع الريب**. ط:1، جائزة دبي الدولية للقرآن الكريم، دبي، الإمارات العربية المتحدة، 2013م، ج:12، ص:317.

وينظر: ابن كثير: **تفسير القرآن العظيم**. ج:6، ص:130.

وينظر: الثعلبي، أبو إسحاق: **الكشف والبيان في تفسير القرآن (تفسير الثعلبي)**. تح: ابن عاشور. ط:1، دار إحياء التراث العربي، بيروت، لبنان، 2002م، ج:6، ص:61.

[2] ابن منظور: **لسان العرب**. مادة: (ظلل).

والظِّلُّ: العِزُّ والمَنَعة والرفاهة، وأظلني فلانٌ: حرسني"[1]، "وظل فلَان يفعل كَذَا دَامَ على فعله، وأظل: امْتَدَّ ظله"[2]. فالكافر يستمر على كفره ويدوم عليه، فلا يقبل التغيير والتجديد، فيعتاد الميل إلى شهواته، والقعود عند رغباته، دون أن يحاول أن يُعمل عقله وفكره، والكافر يخفي كفره، ويستره، ويخفي الحق، ولا يعترف بفضل الآخرين، وهو في المشهد المرسوم في الآية الكريمة، يستظل برحمة الله، ويخفي كفره، ويحتمي بالله ويقترب منه ويدنو إليه، ويدعوه بصدق وإخلاص، وبعد أن ينجيه الله من الغرق، ينكر فضل الله عليه، ويواريه، ويستمر على كفره وإنكاره. أي إن الآية الكريمة: ﴿**وَإِذَا غَشِيَهُم مَّوْجٌ كَالظُّلَلِ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ فَلَمَّا نَجَّاهُمْ إِلَى الْبَرِّ فَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ وَمَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَا إِلَّا كُلُّ خَتَّارٍ كَفُورٍ**﴾ **(لقمان:**32)، ترتبط بفكرة الإخلاص، والصدق والإلحاح في الطلب، فعندما يحتاج الإنسان أمرًا ما، ويطلبه بشدة، فإنه يلح في الطلب، ولكن، بعد أن يحصل عليه، فإنه يعود إلى حالته التي كانت قبل أن يحتاج هذا الأمر، أو قبل طلبه، وهذا يتقابل مع صورة من أطبقت عليه الأمواج في منتصف البحر، حتى وصلت إلى النقطة ما قبل الأخيرة، ولم يبق بينه وبين الغرق والموت المحتم سوى إرادة الله، فعلم أن لا مفر من قدر الله إلا بإرادة الله، ولن ينفعه أحد، ولن تنفعه أي وسيلة، فرفع يديه إلى السماء مخلصًا في دعائه، فأنجاه الله القادر المقتدر، ولكن، ويا للعجب، هناك من يعود –بعد النجاة– إلى الجحود والكفر. وتتقابل صورة الصدق والإخلاص في الدعاء، بدليل قوله: ﴿**دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ**﴾ (لقمان:32)، مع لحظة النجاة والوصول إلى البر بسلام، بدليل قوله: ﴿**فَلَمَّا نَجَّاهُمْ إِلَى الْبَرِّ**﴾ (لقمان:32).

تمثل الآية الكريمة: ﴿**أَلَمْ تَرَ أَنَّ الْفُلْكَ تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِنِعْمَتِ اللَّهِ لِيُرِيَكُم مِن آيَاتِهِ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ**﴾ **(لقمان:**31)، **صفات الأمن والاستقرار والطمأنينة**، التي لا يمكن امتلاكها إلا من

---

[1] الأصفهاني، الراغب: **المفردات في غريب القرآن**. (د.ط)، مكتبة نزار مصطفى الباز، مكة المكرمة، المملكة العربية السعودية، (د.ت)، مادة: (ظلل).

[2] مجمع اللغة العربية: **المعجم الوسيط**. مادة: (ظلل).

الله، بينما ترسم الآية الكريمة ﴿**وَإِذَا غَشِيَهُم مَّوْجٌ كَالظُّلَلِ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ فَلَمَّا نَجَّاهُمْ إِلَى الْبَرِّ فَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ وَمَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَا إِلَّا كُلُّ خَتَّارٍ كَفُورٍ**﴾ (**لقمان**:32)، صورة الخوف والاضطراب الذي يشعر به الكافرون الذين يجحدون آيات الله، فتتشكل ثنائية سياقية ضدية بين الآيتين، هي **ثنائية الأمن والخوف**.

**وتصنف الأمواج حسب اختلاف شكلها العام، إلى:**

| نوع الأمواج | وصفها من حيث اختلاف شكلها العام |
|---|---|
| **قبابية الشكل** | تظهر فيها القمة والقاع بوضوح، محدودة الارتفاع، غير منتظمة الشكل، غير متساوية الحجم. |
| **حلزونية** | تتكون في البحار المفتوحة، وتتميز بأنها غير محدودة الارتفاع. |
| **فردية منعزلة** | تتكون في المياه الضحلة، لا تتلاحق، ولا تتابع بعضها، متباعدة، ويبدو سطح الماء مستويًا غير مموج.[1] |

توافرت إمكانية النجاة في صورة (الموج كالظلل) لكل من صدق وأخلص، بينما كانت إمكانية النجاة في صورة (الموج كالجبال) لمن سبق عليهم القول فقط، فكأن صورة الموج المشبه بالجبال، تناظر أمواج تسونامي المعروفة اليوم بصعوبة النجاة منها، بينما صورة الموج المشبه بالظلل، فإمكانية النجاة منها محتملة بنسبة أكبر من أمواج تسونامي، على الرغم من خطورتها الكبيرة، بدليل قوله: ﴿**فَلَمَّا نَجَّاهُمْ إِلَى الْبَرِّ**﴾ (**لقمان**:32)، أي إنهم نجوا، واعتمادًا على أنواع الأمواج السابقة فإن صورة الموج المشبه بالظلل، التي يمكن أن تكون مقوسة أو مقببة الشكل، تتقارب مع الأمواج قبابية الشكل، أما صورة الموج المشبه بالجبال، فأزعم أنها تتقارب مع صورة الأمواج الحلزونية الشكل التي تتشابه مع شكل الجبل.

[1] ينظر: أبو العينين: **جغرافية البحار والمحيطات (الأوقيانوغرافيا)**. ص:241.

**وتصنف الأمواج حسب أسباب تكونها، إلى:**

| نوع الأمواج | وصفها من حيث أسباب تكونها |
|---|---|
| **اهتزازية زلزالية (تسونامي)** | أمواج عظيمة الطول، تصل أحيانًا إلى 150كم، وتنشأ نتيجة لحدوث الهزات الزلزالية في مركز القشرة الأرضية تحت قاع البحار والمحيطات في نطاق الأخاديد والأحواض البحرية العميقة خاصة، وتعرف باسم تسونامي. |
| **إعصارية** | تنتج عن التغيرات الكبرى في مراكز الضغط الجوي، وتنتشر غالبًا في مناطق الضغط المنخفض الكبرى وشبه الثابتة. |
| **أمواج المياه الضحلة** | يزيد عمقها على طول الموجة، وتصنف على أنها أمواج طويلة وتشمل الأمواج الناتجة عن الرياح التي تكونت في المياه الأكثر عمقًا، ثم اتجهت صوب المياه، أو الخلجان الضحلة.[1] |

تقضي الاستعانة بالتصنيف السابق للأمواج البحرية، وبالسياق القرآني للآيات الكريمة، إلى أن آية ﴿**وَهِيَ تَجْرِي بِهِمْ فِي مَوْجٍ كَالْجِبَالِ وَنَادَىٰ نُوحٌ ابْنَهُ وَكَانَ فِي مَعْزِلٍ يَا بُنَيَّ ارْكَب مَّعَنَا وَلَا تَكُن مَّعَ الْكَافِرِينَ**﴾ **(هود:42)**، أشارت إلى غرق قوم نوح باستثناء من حملوا في السفينة، بدليل قوله: ﴿**لا عاصِمَ اليَوْمَ مِن أمْرِ اللَّهِ إلّا مَن رَحِمَ**﴾، **(هود:43)**، أي إن هذا النوع من الأمواج لا يمكن النجاة منه، وهو ما يتقارب مع أمواج تسونامي المعروفة بدمارها الكبير، التي لا يمكن النجاة منها، وأزعم أن أمواج الطوفان في قصة نوح –عليه السلام– لا يمكن إلا أن تكون أضعاف أمواج تسونامي المعروفة اليوم. **فالأمواج الاهتزازية أو الزلزالية (تسونامي)** تتقابل مع أسباب نشأة الجبال، التي قد "تكون نتيجة حركات تحدث في قشرة الأرض"[2]. ويمكن الاتكاء على تصنيف الأمواج البحرية السابق للقول بتقارب **الأمواج الإعصارية** مع نوع الأمواج المقصودة في الآية الكريمة ﴿**مَّوْجٌ كَالظُّلَلِ**﴾ **(لقمان:32)**، فالأعاصير تكون مصحوبة بالغيوم والأمطار وغير ذلك؛ نتيجة عمليات تكاثف بخار الماء، فترتبط مع معنى الظلل الذي يأتي بمعنى السحابة.

---

[1] أبو لقمة: **الجغرافيا البحرية**. ص:102–104.

[2] أبو حجر، آمنة: **المعجم الجغرافي**. ط:1، دار أسامة للنشر والتوزيع، الأردن، عمان، 2009م، ص:218.

صفوة القول: إن المشبه (موج) كان ثابتًا في الآيتين، بينما كان المشبه به (الجبال) و(الظلل) متغيرًا في الآيتين، ولو لم يُرِد العظيم –جل في علاه– أن يفرق بين دلالة الآيتين، لما غير المشبه به، فلو كانت دلالة (الظلل) هي الجبال، لجعلها (موج كالجبال)، ولكن عند وجود آيتين متشابهتين، ثُبّتَ المشبه فيهما، وغُيّر المشبه به، وهذا يدفعني إلى أن أرجح أن معنى الظلل المراد ليس الجبال.

## المطلب الثالث: الثبات والتغير في صورة الجواري (السفن) في القرآن الكريم.

يقتضي تغيير صورة الجواري (السفن) رصد المكونات النحوية للصورة التشبيهية للجواري في القرآن الكريم في قوله تعالى: ﴿**وَمِنْ آيَاتِهِ الْجَوَارِ فِي الْبَحْرِ كَالْأَعْلَامِ**﴾ (**الشورى**:32)، وفي قوله تعالى: ﴿**وَلَهُ الْجَوَارِ الْمُنْشَآتُ فِي الْبَحْرِ كَالْأَعْلَامِ**﴾ (**الرحمن**:24)، فجاءت الجواري في الآية الأولى بلا نعت، وجاءت الجواري في الآية الثانية منعوتة (المنشآت).

اكتفت أكثر كتب التفسير بتفسير الجواري في قوله تعالى: ﴿**وَمِنْ آيَاتِهِ الْجَوَارِ فِي الْبَحْرِ كَالْأَعْلَامِ**﴾ (**الشورى**:32)، بالسفن والفُلك، والأعلام: بالجبال،[1] وتفسير الجواري المنشآت في قوله تعالى: ﴿**وَلَهُ الْجَوَارِ الْمُنْشَآتُ فِي الْبَحْرِ كَالْأَعْلَامِ**﴾ (**الرحمن**:24)، بالسفن الضخمة، والأعلام: بالجبال أيضًا،[2] دون أن تبين سبب التغير في المشبه وثبات المشبه به في الصورة التشبيهية في الآيتين.

---

[1] ينظر: القرطبي، أبو عبد الله محمد بن أحمد: **الجامع لأحكام القرآن والمبين لما تضمنه من السنة وآي الفرقان**. تحقيق: عبد الله التركي. ط:1، مؤسسة الرسالة، بيروت، لبنان، 2006م، ج:16، ص:32.

وينظر: السعدي، عبد الرحمن: **تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان**. تح: عبد الرحمن بن معلا اللويحق. ط:1، مؤسسة الرسالة، بيروت، لبنان، 2002م، ص:759.

وينظر: الخضيري، محمد بن عبد العزيز: **السراج في بيان غريب القرآن**. ط:1، مجلة البيان، الرياض، المملكة العربية السعودية، 2008م، ص:271.

وينظر: ابن عاشور: **التحرير والتنوير**. ج:25، ص:105.

[2] ينظر القرطبي: **الجامع لأحكام القرآن والمبين لما تضمنه من السنة وآي الفرقان**. ج:17، ص:164.

وينظر: السعدي: **تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان**. ص:830.

وينظر: الخضيري: **السراج في بيان غريب القرآن**. ص:320.

**دور السياق في تعليل نعت الجواري.**

تختلف الآيتان الكريمتان، في تركيب المشبه في الآيتين (الجواري)، فجاء في آية (الجوارِ) دون صفة، أما الأخرى فجاء مقيَّدًا بصفة (المنشآت في البحر كالأعلام)، وتتماثل الآيتان في المشبه به، وهو (الأعلام)، فلم خصَّ الله الجواري في آية بالوصف (الجوار المنشآت في البحر كالأعلام) في سورة الرحمن، وأتى بالأخرى في سورة الشورى مطلقة دون وصف أو قيد؟ وماذا لو كانت كل آية منهما مكان الأخرى؟ وهل يمكن لفكرة الثبات والتغير في الآيتين الكريمتين أن تفتح آفاقًا جديدة؟

تتحدث الآية الكريمة: ﴿**وَمِنْ آيَاتِهِ الْجَوَارِ فِي الْبَحْرِ كَالْأَعْلَامِ**﴾ (**الشورى**:32)، عن معجزات الله، ونعمه، وفضائله، وقدرته العظيمة، فهو الذي يرزق، بدليل قوله: ﴿**وَلَوْ بَسَطَ اللَّهُ الرِّزْقَ لِعِبَادِهِ لَبَغَوْا فِي الْأَرْضِ وَلَكِنْ يُنَزِّلُ بِقَدَرٍ مَا يَشَاءُ إِنَّهُ بِعِبَادِهِ خَبِيرٌ بَصِيرٌ**﴾ (**الشورى**:27)، وهو الذي ينزل الغيث، في قوله: ﴿**وَهُوَ الَّذِي يُنَزِّلُ الْغَيْثَ مِنْ بَعْدِ مَا قَنَطُوا وَيَنْشُرُ رَحْمَتَهُ وَهُوَ الْوَلِيُّ الْحَمِيدُ**﴾ (**الشورى**:28)، وهو الذي خلق السماوات والأرض، وهو من بث فيهما من كل دابة، في قوله: ﴿**وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَثَّ فِيهِمَا مِنْ دَابَّةٍ وَهُوَ عَلَى جَمْعِهِمْ إِذَا يَشَاءُ قَدِيرٌ**﴾ (**الشورى**:29)، وهو الحكيم المتحكم في هذا الكون، فهو الذي يبسط الرزق لمن يشاء، ويعلم بحكمته مصير عباده فيما لو بسط الرزق لعباده ممن قدره عليهم، إن كان سيبغي في الأرض أم لا، وهو الذي ينزل الغيث بعد القنوط، فيأتي بالفرج بعد الكرب، وهو القادر على جمع السماوات والأرض كما كانتا في البداية، وهو الذي أنعم بنعمة الجواري التي تطفو فوق الماء، وهو الذي يعلم سرها، فيستطيع بقدرته أن يسكن الريح، فتتوقف تلك الجواري، أو تغرق.

**تتَعدد النعم والمعجزات** في سياق سورة الشورى، إذ يعدد الخالق بعضًا من نعمه، كالسماوات والأرض والغيث، فناسب ألّا يخصص كلمة الجواري بصفة ما، إذ إن كل ما يجري في البحر هو نعمة منه، وليس نوعًا مخصصًا من الجواري فقط، وهذا يتضح عند محاولة وضع كلمة (المنشآت) في آية

سورة الشورى ﴿**وَمِنْ آيَاتِهِ الْجَوَارِ فِي الْبَحْرِ كَالْأَعْلَامِ**﴾ (**الشورى**:32)، فلو كانت (ومن آياته الجوارِ المنشآت في البحر كالأعلام)، فإن المعنى قد ينحصر في الجوار المنشآت، إذ ليس من معجزات الله الجواري المنشآت فقط، وإنما كل الجواري، فعمم كلمة الجواري ولم يقيدها بصفة أو غيرها، وما يؤيد هذا المعنى في السورة نفسها، قوله: ﴿**إِنْ يَشَأْ يُسْكِنِ الرِّيحَ فَيَظْلَلْنَ رَوَاكِدَ عَلَى ظَهْرِهِ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ**﴾ (**الشورى**:33)، فإن أسكن الله الريح، لوقف كل ما يجري في البحر، بلا حركة، ولو خصص الجواري بصفة المنشآت، لكان المعنى أن تقف الجواري الضخمة وحدها في البحر، وهو أمر لا يُقبل عقليًّا، ولا منطقيًّا، ولا علميًّا، ويؤيد هذا المعنى أيضًا، قوله: ﴿**أَوْ يُوبِقْهُنَّ بِمَا كَسَبُوا**﴾ (**الشورى**:34)، فلو منع الله –عز وجل– نعمة الطفو فوق سطح البحر، فإن كل ما يجري فوقه سيغرق، ولو خصصت الجواري بصفة المنشآت في الآية الكريمة: ﴿**وَمِنْ آيَاتِهِ الْجَوَارِ فِي الْبَحْرِ كَالْأَعْلَامِ**﴾ (**الشورى**:32)، لاختل المعنى، واختص بالجواري الضخمة، أي ستغرق الجواري الضخمة فقط، أما ما دونها حجمًا، من الجواري غير الضخمة، فلن تغرق، وهو ما يتعارض مع المعنى المقصود في الآية الكريمة، فمجيء آية: ﴿**إِنْ يَشَأْ يُسْكِنِ الرِّيحَ فَيَظْلَلْنَ رَوَاكِدَ عَلَى ظَهْرِهِ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ**﴾ (**الشورى**:33)، وآية: ﴿**أَوْ يُوبِقْهُنَّ بِمَا كَسَبُوا**﴾ (**الشورى**:34)، بعد آية: ﴿**وَمِنْ آيَاتِهِ الْجَوَارِ فِي الْبَحْرِ كَالْأَعْلَامِ**﴾ (**الشورى**:32)، أغنى عن مجيء صفة (المنشآت) فيها.

يرى الباحث أن غياب وجه الشبه للمشبه (الجواري) والمشبه به (الأعلام) قد يراد منه أوجه شبه متعددة تكسب الصورة تنوعًا، إذ **يدل المشبه به (الأعلام) على الضخامة، والوسم والعلامة، وعلى الرؤية والمعرفة من بعيد**، "فالأعلام جمع عَلَم، والعلم: الجبل، وعَلَمَه: وَسَمَهُ، والعلم كل شيء يكون معلمًا، ومنه قيل للجبل: علم؛ لظهوره، وعَلِمْتُ الشَّيْءَ بِمَعْنَى عَرَفْته وخَبَرْته"[1]، فالجبل يتصف

[1] ابن منظور: **لسان العرب**. مادة: (علم).

بالضخامة، وكما يُرى ويُعرف الجبل من بعيد، تُرى السفينة من بعيد وتُعرف، **أو يدل على الأُنس**، إذ "اختير لفظ الأعلام دون الجبال؛ لأنه يبعث في النفس الأنس، وهو ما يحتاج إليه السائر في البحر"[1]، فيأنس المتأمل في الصورة التشبيهية في اختيار وجه الشبه الذي يراه متناسبًا بين طرفي التشبيه، فأفاد عدم تخصيص المشبه بصفة، وعدم تحديد وجه شبه في الصورة التشبيهية، التعدد والتعميم، وتناسب مع سياق التعداد؛ لتعدد الصفات وأوجه الشبه وانفتاحها في ذهن القارئ.

وأرجح أن البنية الدلالية العميقة لا تقتصر على الصورة المائية للجواري في البحر، وإنما تمتد دلالتها إلى السلوك الإنساني، الذي يقارب في مصيره حال السفينة العظيمة حجمًا، التي يتوقف مصيرها على مشيئة الله من حيث تسكين الريح، فتظل واقفةً مكانها أو بتدمير تلك السفينة.

يتشابه مصير من يجادلون في آيات الله في قوله تعالى: ﴿**وَيَعْلَمُ الَّذِينَ يُجادِلُونَ فِي آياتِنا ما لَهم مِن مَحِيصٍ**﴾ (**الشورى**:35)، ويظنون أنفسهم أعلامًا مشهورين، ويدافعون عن افتراءاتهم ويكافحون ويجادلون بغير علم، ولا بحث، ولا تمحيص، مع مصير الجارية الساكنة على ظهر البحر، إذ يؤول هؤلاء المجادلون إلى ساحة متسعة فارغة، يقفون بلا سند، ولا داعم، أو منقذ يمدُّ لهم يد العون، فالحق طريقه واضح، إما أن يجارونه، بالتشاور، والعلم، والأدب في إقناع الطرف الآخر، ودون جدال فيما هو واضح من نعم ومعجزات، وإما أن تذهب ريحهم، ويزول شأنهم، وتسكن أصواتهم، فيهلكوا وتهلك معهم افتراءاتهم الباطلة، كمصير الجارية، إما تنطلق بسرعة في خط مستقيم دون أن تقف أو أن تنحرف عن مسارها، فتصل إلى مرادها بسهولة وسرعة وسلام، وإما أن تهلك في وسط البحر وتغرق دون أن تجد من ينقذها، فالحق سفينة النجاة، التي تسير في خط مستقيم دون أن تلتفت أو تقف، فتصل الطرف

[1] عباس، فضل حسن: **البلاغة فنونها وأفنانها علم البيان والبديع**. ط:11، دار الفرقان، الأردن، 2007م، ص:90.

الآخر بنجاة، بينما الباطل، فنهايته إلى خطوط متفرقة، لا يعرف أيها سبيل نجاته، كحال الساكن المنقطع التائه في منتصف البحر، الذي لا يعلم أي مسار يتخذ؛ لينجو.

ثبت المشبه به (الأعلام) في قوله تعالى: ﴿**وَلَهُ ٱلْجَوَارِ ٱلْمُنشَـَٔاتُ فِى ٱلْبَحْرِ كَٱلْأَعْلَـٰمِ**﴾ (**الرحمن**:24)، وتغير المشبه (الجواري) فجاء موصوفًا. واتكاءً على السياق، نجد آيات سورة الرحمن، توحي **بالعظمة**، فتتحدث عن **آلاء الله العظيمة**، وعطاياه الثابتة المسخرة لمخلوقاته جميعها، فمما يدل على عظمته ابتداؤه بالرحمن، الصفة الدالة على رحمة الله العظيمة المطلقة في الدنيا، فهو "رحمن الدنيا ورحيم الآخرة"[1]، والقرآن كتاب الله وكلامه العظيم، والإنسان هو أعظم ما خلق الله عز وجل، وكذلك البيان والشمس والقمر والنجم والشجر والميزان والقسط، وما فيها من دلالات على العظمة والعلو، وهو ما يبين سبب وصف الجواري بالمنشآت، وتشبيهها بالأعلام، فدل السياق على العظمة في البداية، **وتناسب** مع دلالة الآية الكريمة على الضخامة والعلو والعظمة والارتفاع، فالجواري المنشآت هي الجواري الضخمة، والأعلام هي الجبال الدالة على العظمة أيضًا، و"استعمل العَلَم في مقام الإنعام والآلاء وفيه من الإيناس ما لا يخفى"[2]. ويتناسب القسط والاستواء في الميزان مع حركة الجواري في الماء، التي كلما كان البحر منتظمًا ومستويًا كان وصولها أسرع. والتقت دلالة الجواري مع الآلاء في **الإنعام**، "فالجَارِيَة: النِّعْمَةُ مِنَ اللَّهِ عَلَى عِبَادِهِ"[3]، و"الآلاء: النِّعَم"[4].

---

[1] الشعراوي، محمد متولي: **أسماء الله الحسنى**. (د.ط)، مكتبة الشعراوي الإسلامية، دار أخبار اليوم، مصر، (د.ت)، ج:2، ص:6.

[2] عباس، فضل حسن: **لمسات ولطائف من الإعجاز البياني للقرآن الكريم**. ط:1، دار النفائس، الأردن، 2016م، ص:104.

[3] ابن منظور: **لسان العرب**. مادة: (جرو).

[4] **المصدر السابق**. مادة: (ألا).

## المبحث الثالث: الثنائيات الدلالية (التغير والثبات) في صورة الأرض والجبال.

### المطلب الأول: الثنائيات الدلالية في صورة خشوع الأرض وهمودها.

### المطلب الثاني: الثنائيات الدلالية في مشاهد الجبال يوم القيامة.

**المرحلة الأولى (المتغير الأول): مرحلة رجف الجبال.**

**المرحلة الثانية (المتغير الثاني): مرحلة نسف الجبال.**

**المرحلة الثالثة (المتغير الثالث): مرحلة تفتيت الجبال.**

**المرحلة الرابعة (المتغير الرابع): مرحلة بس الجبال.**

**المرحلة الخامسة (المتغير الخامس): مرحلة تسيير الجبال.**

## المبحث الثالث: الثنائيات الدلالية (التغير والثبات) في صورة الأرض والجبال.

### المطلب الأول: الثنائيات الدلالية في صورة خشوع الأرض وهمودها.

يقتضي السياق التأمل في الفضاء الدلالي للصورة الفنية؛ بهدف الكشف عن المسوغات الدلالية للتغير من حالة إلى حالة، مثل: الصورة الاستعارية للأرض في القرآن الكريم في قوله تعالى: ﴿**وَتَرَى الْأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَا أَنْزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنْبَتَتْ مِنْ كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ**﴾ (**الحج**:5)، وقوله: ﴿**وَمِنْ آيَاتِهِ أَنَّكَ تَرَى الْأَرْضَ خَاشِعَةً فَإِذَا أَنْزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ إِنَّ الَّذِي أَحْيَاهَا لَمُحْيِي الْمَوْتَى إِنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ**﴾ (**فُصِّلت**:39)، فثبت صاحب الحال (الأرض)، وتغير الحال (هامدة) و(خاشعة).

**التقارب الدلالي بين صورة الأرض الهامدة وصورة الأرض الخاشعة.**

جاءت الصورة الاستعارية للأرض في الآيتين الكريمتين، هامدة مرة، وخاشعة مرة أخرى، وتتقارب لفظتا (خاشعة) و(هامدة) دلاليًّا في المعنى العام؛ إذ تشتركان في معنى **السكون والضعف والجذب**، فتدل مادة (خشع) على **السكون والضعف**؛[1] "فكلُّ ساكنٍ خاضعٍ خاشعٌ، وَخَشَعَتِ الْأَصْواتُ لِلرَّحْمنِ؛ أَي: سَكَنَتْ"[2]، وتدل مادة (همد) على **السكون وانطفاء النار**،[3] فنقول: "هَمَدَتْ أَصواتُهم أَي: سكَنَتْ"[4]، وتتقاطع دلالة اللفظتين المتغيرتين في **يبوسة الأرض وخلوها من النباتات والمطر**، فنقول: "نبات هامد: يابس، وهمد شجر الأرض: بلي وذهب، وأرض هامدة: مقشعرة لا نبات فيها إلا اليابس

---

[1] داود، محمد محمد: **معجم الفروق الدلالية في القرآن الكريم لبيان الملامح الفارقة بين الألفاظ متقاربة المعنى، والصيغ والأساليب المتشابهة**. (د.ط)، دار غريب للطباعة والنشر والتوزيع، القاهرة، مصر، 2008م، ص:236-237.

[2] ابن منظور: **لسان العرب**. مادة: **(خشع)**.

[3] داود: **معجم الفروق الدلالية في القرآن الكريم لبيان الملامح الفارقة بين الألفاظ متقاربة المعنى، والصيغ والأساليب المتشابهة**. ص:236-237.

[4] ابن منظور: **لسان العرب**. مادة: **(همد)**.

المتحطم"[1]، والأرض الخاشعة هي "المتغيرة المتهشمة النبات، وهي اليابسة التي لا مطر فيها، والعرب تقول: رأينا أرض بني فلان خاشعة هامدة"[2].

يلتقي سياق الآيتين في **الانتقال من السكون إلى الحركة**، فالأرض غير المتحركة (الهامدة أو الخاشعة) تهتز فتنتقل من سكونها إلى حركتها، فيتحقق التكامل بين **الحركة والحجم** في ملازمة العطف بين ﴿**اهْتَزَّتْ**﴾ و﴿**رَبَتْ**﴾ في الآيتين، فوقع التلازم ﴿**اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ**﴾ في الآيتين، فصوَّرَ الخالقُ إحياءَ العظام والرفات بإحياء الأرض الجافة القاحلة، فعندما ينزل الماء تتحرك بذور الأعشاب وذرات التراب، ويلتصق بعضها ببعض بفعل الماء، ويكبر حجم ذرات التراب، وينتفخ سطح الأرض قليلًا، ويتقاطع هذا المعنى مع قراءة (ربأت) أي: ارتفعت؛ لأن النبات إذا هم أن يظهر ارتفعت له الأرض، وجاء العطف؛ ليحدث تكاملًا في كيفية استجابة الأرض للماء، وهو تكامل بين الحركة والحجم.[3] **وإذا كان التقارب كبيرًا بين الآيتين واللفظتين، فلِمَ ثبت صاحب الحال (الأرض)، وتغيَّر الحال في كلتا الآيتين، فمرة كان (هامدة)، ومرة (خاشعة)؟**

**صورة الأرض الهامدة.**

ينبغي أن نستأنس بالسياق العام للموضعين؛ للكشف عن الإعجاز اللغوي والبلاغي لاختصاص كل موضع منهما بلفظ مختلف، فورد الحال (هامدة) في سياق قوله تعالى: ﴿**يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِنَ الْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ مِنْ مُضْغَةٍ مُخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ لِنُبَيِّنَ لَكُمْ وَنُقِرُّ فِي الْأَرْحَامِ مَا نَشَاءُ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلًا ثُمَّ لِتَبْلُغُوا أَشُدَّكُمْ وَمِنْكُمْ مَنْ يُتَوَفَّى وَمِنْكُمْ مَنْ يُرَدُّ إِلَى أَرْذَلِ الْعُمُرِ لِكَيْلَا يَعْلَمَ مِنْ بَعْدِ عِلْمٍ شَيْئًا وَتَرَى الْأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَا أَنْزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنْبَتَتْ**

---

[1] ابن منظور: **لسان العرب**. مادة: **(همد)**.

[2] **المصدر السابق**. مادة: **(خشع)**.

[3] عتيق: **ظواهر أسلوبية في القرآن الكريم التركيب والرسم والإيقاع**. ص:121.

**مِنْ كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ﴾ (الحج:5)**، فبعد أن أنذر الله الناس زلزلة الساعة، أعادَ خِطابَهم بِالِاسْتِدْلالِ عَلى **إمْكانِ البَعْثِ** وتَنْظِيرِهِ بِما هو أعْظَمُ مِنهُ، وهو الخَلْقُ الأوَّلُ، فالَّذِي خَلَقَ الإنْسانَ مِن عَدَمٍ، وأخْرَجَهُ مِن تُرابٍ، ثُمَّ كَوَّنَهُ مِن ماءٍ، ثُمَّ خَلَقَهُ أطْوارًا عَجِيبَةً إلى أنْ يَتَوَفّاهُ في أحْوالِ جِسْمِهِ وعَقْلِهِ وإدْراكِهِ، قادِرٌ عَلى إعادَةِ خَلْقِهِ بَعْدَ فَنائِهِ، أي إنه اسْتِدْلال بِالإيجاد بَعْدَ العَدَمِ، وبالإعْدام بَعْدَ الوُجُودِ؛ لِتَبْيِينِ إمْكانِية البَعْثِ.[1] وهَذا ارْتِقاءٌ في الِاسْتِدْلالِ عَلى الإحْياءِ بَعْدَ المَوْتِ، بِقِياسِ التَّمْثِيلِ؛ لِأنَّهُ اسْتِدْلالٌ بِحالَةٍ مُشاهَدَةٍ، أما مَبْدَأ خَلْقِ الإنْسانِ، فَغَيْرُ مُشاهَدٍ، فَهُمُودُ الأرْضِ بِمَنزِلَةِ مَوْتِ الإنْسانِ، ويُماثِلُ اهْتِزازُها وإنْباتُها بَعْدَ ذَلِكَ الإحْياءَ بَعْدَ المَوْتِ.[2]

تربط الآية بين صورة إحياء الأرض، وصورة إحياء الموتى، وفي الصورتين دعوة للتأمل والتبصر، فهي إقامَةٌ لِلْحُجَّةِ على المُجادِلِينَ في البَعْثِ، فالمُرادُ بِالنّاسِ الكَفَرَةُ المُجادِلُونَ المُنْكِرُونَ لِلْبَعْثِ، والتَّعْبِيرُ عَنِ اعْتِقادِهِمْ في حَقِّهِ بِالرَّيْبِ مَعَ أنَّهم جازِمُونَ بِعَدَمِ إمْكانِهِ.[3] فالسياق العام للآيات دالٌّ على البعث، وردٌّ على منكري قدرة الله على البعث والإحياء بعد الموت، بالاستشهاد بالأدلة القاطعة من خلق للإنسان من تراب، ومرورًا بأطوار لم تكن لتعلم إلا من القرآن الكريم، والطب الحديث، ومروره خلال حياته بمراحل متنوعة، ومن إحياء للأرض الهامدة الساكنة التي كادت تصل الموت أو ماتت وجفت، فلم تكن بقدرة الخالق –بعد أن ينزل عليها الماء– حية فحسب، بل جنة من جنانه، فيها من كل زوج بهيج. أي إن بعث الناس يعني تحولهم من الموت إلى الحياة، يناظر تحول الأرض من الهمود إلى الحياة، فبذلك يتقارب مشهد إحياء الموتى مع مشهد إحياء الأرض.

---

[1] ينظر: ابن عاشور: **التحرير والتنوير**. ج:17، ص:196.

[2] ينظر: **المرجع السابق**. ج:17، ص:203.

[3] الألوسي: **روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني**. ج:9، ص:111.

**تبرز في السياق العام للآيات صفات البعث والإحياء والإخراج** في قوله: ﴿**وَتَرَى الْأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَا أَنزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنبَتَتْ مِن كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ**﴾ (**الحج**:5)، فيتسق معه تصوير الأرض بأنها "**هامدة**" ثم تهتز وتربو، وتنبت من كل زوج بهيج، بينما السياق العام في قوله: ﴿**وَمِنْ آيَاتِهِ أَنَّكَ تَرَى الْأَرْضَ خَاشِعَةً فَإِذَا أَنزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ**﴾ (**فُصِّلت**:39)، هو سياق **عبادة وخشوع وسجود**، يتسق معه تصوير الأرض بأنها "**خاشعة**"، فإذا أنزل عليها الماء اهتزت وربت، ويتناسب حال الأرض الهامدة الساكنة الميتة مع حال الأموات الساكنين، ويتناسب إحياؤها بوساطة الماء ببث الروح في الأموات وإعادتهم للحياة، ويتناسب حال إنبات الأرض وخروج النباتات منها بحال خروج الأموات من قبورهم، ويتناسب حال الأرض الخاشعة العابدة الساكنة مع سياق العبادة في الآيات السابقة لها، فحركة الأرض بعد خشوعها هي المقصودة؛ "لأن كل ما في المشهد يتحرك **حركة العبادة**، فلم يكن من المناسب أن تبقى الأرض وحدها خاشعة ساكنة، فاهتزت لتشارك العابدين المتحركين في المشهد حركتهم، ولكي لا يبقى جزء من أجزاء المشهد ساكنًا، وكل الأجزاء تتحرك من حوله"[1].

ويمكن توجيه اختصاص لفظة (هامدة) بسياق **ذكر الموت**، فتقاطع معنى الموت في قوله: ﴿**وَمِنكُم مَّن يُتَوَفَّىٰ**﴾ (**الحج**:5)، مع معنى الهمود الذي يعني الموت، أما لفظة (خاشعة) فاختصت بسياق **ذكر الكواكب** في الآيات السابقة لها، كقوله: ﴿**ومِن آياتِهِ اللَّيْلُ والنَّهارُ والشَّمْسُ والقَمَرُ**﴾ (**فصلت**:37)، فتقاطعت مادة (خشع) دلاليًا مع الكواكب،[2] فنقول: "خَشَعَت الشمسُ وخَسَفَت وكَسَفَت بِمَعْنًى وَاحِدٍ، وخُشوعُ الكواكِب: غارَت وَكَادَتْ تَغِيب فِي مَغِيبها؛ وخَشَعَتِ الْكَوَاكِبُ إِذا دَنَتْ مِنَ المَغِيب، وخضَعَت أَيدي الْكَوَاكِبِ أَي مَالَتْ لتَغِيب"[3]، وأرى أنها معانٍ تدل على **الغياب والخفاء والانتهاء** وتلتقي مع صورة

---

[1] ينظر: قطب، سيد: **التصوير الفني في القرآن**. ط:17، دار الشروق، القاهرة، مصر، 2004م، ص:118.

[2] عتيق: **ظواهر أسلوبية في القرآن الكريم التركيب والرسم والإيقاع**. ص:28-30.

[3] ابن منظور: **لسان العرب**. مادة: (خشع).

الأرض الساكنة، التي غابت عن العيون، لا يكترث لها أحد، إذ انتهى دورها وفاعليتها، فاختفت وأخفت معها خيراتِها، فماتت أو كادت، وهو ما يلتقي مع صورة الأموات الذين غابوا، واندثروا تحت القبور، واختفى أثرهم، وانتهى دورهم في هذه الحياة.

يتناسق تصوير الأرض بالهمود قبل نزول المطر، ثم اهتزازها وإبراز حركتها بعد نزول المطر، مع سياق **الإحياء بعد الموت**، فهمود الأرض، كهمود الموتى في القبور، وإخراج الموتى، وإحياؤهم يتلاءم مع تصوير الأرض هامدة، ثم ترسم حركة الحياة فيها بعد نزول المطر، فيهتز الجسم الهامد لاستقبال الحياة، فينمو فيه النبات، وينبت من كل زوج بهيج.[1]

جاء الحال (هامدة) في سياق **تفصيل خلق الإنسان** من تراب، وأطوار تكونه، ودورة حياته وهي استقراره داخل الرحم، وولادته وخروجه طفلًا صغيرًا إلى الحياة، وبلوغه ذروة قوته، ووفاته أو وصوله إلى مرحلة الشيخوخة التي ستؤول في النهاية إلى الوفاة. فتقترب صورة الإنسان الثابت الذي يتكون على أطوار مختلفة، وينمو، ويكبر، ويمر بمراحل متنوعة، فيظل إنسانًا، إلا أنه يتطور، فيكون بصورة جنين، ثم طفل، ثم شاب، ثم رجل، ثم كهل، ثم عجوز، فتمثل هذه المراحل العمرية للإنسان تغيرًا، فتتقابل مع صورة الأرض الهامدة، وتؤيد ثنائية الثبات والتغير فيها.

ولعل سبب مجيء هامدة في هذا السياق أن عناصر الحياة والتجدد لا تتوافر في الأرض بذاتها، وإنما يأتي إحياء الأرض من السماء بوساطة الماء، ويؤكد هذا الرأي قوله تعالى: ﴿**وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ**﴾ (الأنبياء:30)، فالشيء الهامد لا تبقى فيه عناصر حياة وتجدد، فتحول حالة الهمود إلى الحياة يحدث بوساطة الماء، فجاءت (هامدة) في سياق الجفاف والقحط.[2]

---

[1] الراغب: **وظيفة الصورة الفنية في القرآن الكريم**. ص:223-224.

[2] ينظر: عتيق: **ظواهر أسلوبية في القرآن الكريم التركيب والرسم والإيقاع**. ص:130.

ونخلص مما سبق، إلى أن تغير الحال (هامدة)، كان نتيجة تغير السياق واختصاصه بالبعث، والخروج، والجفاف، والإنبات، ونتيجة تفصيل خلق الإنسان.

**صورة الأرض الخاشعة.**

وحينما نتأمل قوله تعالى: ﴿**وَمِنْ آيَاتِهِ أَنَّكَ تَرَى الْأَرْضَ خَاشِعَةً فَإِذَا أَنْزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ إِنَّ الَّذِي أَحْيَاهَا لَمُحْيِي الْمَوْتَى إِنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ**﴾ (**فُصِّلت**:39)، نجدها ترد في سياق **ذكر آيات الله ومعجزاته**، ويظهر للوهلة الأولى، أن خشوع الأرض هو سكونها، وأنها تهتز وتتحرك بالنباتات بعد إنزال الماء عليها، ولا تخفى سطحية المعنى في ذلك، فلو كانت دلالة خشوع الأرض هي سكونها وجدبها من النباتات، فهي ليست كافية، وإلا فَلِمَ التغير في الحال (خاشعة)؟ ولو كانت خاشعة تدل على ما تدل عليه (هامدة) فلم التغيير؟!

التفت (سيد قطب) إلى سياق العبادة –كما بينت سابقًا– الذي دار حوله السياق، فسبق الآية قوله: ﴿**وَمِنْ آيَاتِهِ اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ لَا تَسْجُدُوا لِلشَّمْسِ وَلَا لِلْقَمَرِ وَاسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَهُنَّ إِنْ كُنْتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ**﴾ (**فُصِّلت**:37)، وقوله: ﴿**فَإِنِ اسْتَكْبَرُوا فَالَّذِينَ عِنْدَ رَبِّكَ يُسَبِّحُونَ لَهُ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَهُمْ لَا يَسْأَمُونَ**﴾ (**فُصِّلت**:38)، وقوله: ﴿**وَمِنْ آيَاتِهِ أَنَّكَ تَرَى الْأَرْضَ خَاشِعَةً فَإِذَا أَنْزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ إِنَّ الَّذِي أَحْيَاهَا لَمُحْيِي الْمَوْتَى إِنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ**﴾ (**فُصِّلت**:39)، فالشمس والقمر والليل والنهار والأرض مخلوقات طبيعية عابدة، أو مشاهد طبيعية، يجمعها مشهد العبادة، ولا يخفى الترابط في دلالة الألفاظ (اسجدوا، تعبدون، يسبحون) ومناسبة لفظة (خاشعة) لها، وبرزت قدرة (عمر عتيق) في ربط الخشوع بذكر الكواكب في الآية الكريمة،[1] وما أود الإشارة إليه، هو **التقابل بين السماء والأرض**، فذكر الملائكة والكواكب يشير إلى السماء، فناسب أن يذكر الأرض ويشير إليها، فكما ذكر من آياته السماء

[1] ينظر: عتيق: **ظواهر أسلوبية في القرآن الكريم التركيب والرسم والإيقاع**. ص:.

وما فيها، ناسب أن يشير إلى الأرض وما فيها، فهي أيضًا من آياته، فكأنه يقول: يا من تسجد لما في السماء، وتستكبر عن السجود لي، والأرض التي أنت عليها منغمسة في العبادة والخشوع لي، يا من تعبد سواي وتلجأ لغيري، ما أنت فيه وما تسير عليه عابد لي، فأين أنت ذاهب؟!

تفيد الإشارة إلى فرق واضح بين الآيتين، ففي آية **(فُصِّلت:39)**، **لم** يذكر الإنبات، فاكتفى بقوله: اهتزت وربت، فيدل أولًا أنه **سياق إجمال لا تفصيل، وثانيًا، أنه سياق عام ليس خاصًّا بالإنبات فقط**.

خُصِّصَ السجود في قوله: ﴿**وَاسْجُدُوا لِلَّهِ**﴾ **(فُصِّلت:37)**، لله وحده، وخصّت العبادة له وحده، بتقديم المفعول به (إياه) على الفعل، في قوله: ﴿**إِنْ كُنْتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ**﴾ **(فُصِّلت:37)**، فإن استكبروا ولم يسجدوا، فعند الله من هو دائم التسبيح والعبادة، والسؤال الذي يتبادر للذهن، ما الذي سيحدث إذا **لم** يستكبروا؟

تأتي الإجابة من قوله تعالى: ﴿**وَمِنْ آيَاتِهِ أَنَّكَ تَرَى الْأَرْضَ خَاشِعَةً فَإِذَا أَنْزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ إِنَّ الَّذِي أَحْيَاهَا لَمُحْيِي الْمَوْتَى إِنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ**﴾ **(فُصِّلت:39)**، فعند ربط الآيات بعضها مع بعض، نقترب من الإجابة، فالذين تركوا عبادة الشمس والقمر ولم يعودوا للسجود لهما، ولم يستكبروا ولم يرفضوا السجود لله، فسجدوا له وحده، وعبدوه حق عبادته، عبادة خاشعة، ما مصيرهم؟

يضرب الله –عز وجل– المثال بصورة الأرض الخاشعة، التي صدقت في عبادتها، فسجدت لله وحده، وسبحت له، وعبدته حق عبادته، فلماذا صدقت؟ ولماذا عبدت حتى الخشوع؟ ولماذا يسعى الإنسان في صلاته إلى الخشوع؟ وماذا ينتظر؟ وما معنى الخشوع؟

أزعم أن المخلوقات كلها تسعى لإرضاء الله –عز وجل–، وهو ما ينبغي أن يكون عليه الإنسان المخير بين الخضوع والاستكبار، فالبائس هو من لم يُقبل، وهو مَن مُنع رحمة الله، ولنا في قصة إبليس واستكباره عبرة.

ستنال الأرض التي خشعت، ونجحت في اختبارها، قبول السماء، وستحيا بعد أن ينزل الله عليها رحمته، بدليل قوله: ﴿**وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ**﴾ (الأنبياء:30)، فالماء هو دلالة الاتصال والقبول، وهو الرابط بين السماء والأرض، والذي أحياها بقبوله لها سيحيي الموتى، وأي موتى هم المقصودون؟

تتسع دلالة الموت في الآية الكريمة لتشمل أنواع الموتى، فالسياق عام كما بينت، ولا أظنه خاصًّا بموتى البعث ولا موتى الأجساد فقط، وإنما يشمل موتى القلوب والأرواح أيضًا، وخير مثال: ما نجده اليوم من قلوب قاسية، غير خاشعة، مبغضة لغيرها، أنانية، عاشقة لذاتها، نَسِيَتْ المعنى المقصود في القول المنسوب لسيد الخلق: "**أحب لأخيك ما تحب لنفسك**"[1]، فالقلوب ميتة، وما يهزها، ويحركها، وينعشها، هو لحظة الصدق في الطلب، لحظة الخشوع، التي أزعم أن القبول سيكون مباشرة بعدها، لقوله: ﴿**وَآتَاكُم مِن كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ**﴾ (إبراهيم:34).

**الثنائيات الدلالية المساندة (النطفة والنبتة) للثنائية المركزية (همود الأرض وخشوعها).**

يحيط بالفكرة المركزية (ثنائية الثبات والتغير في صورة الأرض) ثنائيات أخرى، يمكن تسميتها بالثنائيات المساندة التي تسهم في تعزيز الثنائية المركزية؛ بهدف الكشف عن المستوى الدلالي الثنائي الذي يجسد السياق كله.

تتقابل صورة النطفة في قوله تعالى: ﴿**خَلَقْنَاكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ مِنْ مُضْغَةٍ مُخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ لِنُبَيِّنَ لَكُمْ وَنُقِرُّ فِي الْأَرْحَامِ**﴾ (الحج:5)، مع الموتى في قوله تعالى في الآية نفسها: ﴿**وَمِنْكُمْ مَنْ يُتَوَفَّى وَمِنْكُمْ مَنْ يُرَدُّ إِلَى أَرْذَلِ الْعُمُرِ**﴾ ومع صورة النبات في الآية نفسها: ﴿**وَأَنْبَتَتْ مِنْ كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ**﴾، فالبذرة تزرع في تراب الأرض، والنطفة تكون مخبأة ومدفونة داخل الرحم، والموتى يدفنون

[1] الذهبي، محمد: **المهذب في اختصار السنن الكبير**. تح: دار المشكاة للبحث العلمي. ط:1، دار الوطن للنشر، الرياض، المملكة العربية السعودية، 2001م، ج:7، ص:3711.

في القبور، وهو ما يرتبط مع قوله تعالى في آية قادمة: ﴿**وأَنَّ اللَّهَ يَبْعَثُ مَن فِي الْقُبُورِ**﴾ (الحج:7)، "فالطِّفْلُ: البَنان الرَّخْص النَّاعِمُ"[1]، "والنَّابتُ مِنْ كُلِّ شيءٍ: الطَّرِيُّ حِينَ يَنْبُتُ صَغِيرًا"[2]، فالطفل الصغير الطري الناعم يتشابه مع النبتة ذات الساق الطري اللين الناعم، ولو تأملنا نبتة مستقرة في الأرض، تحت التراب، نجدها تتنقل في أطوار متعددة، وهو ما يتشابه مع حال الجنين داخل رحم أمه، الذي ينتقل من طور إلى آخر، وكما كانت الأرض مكان استقرار النباتات، فإن الرحم هو مكان استقرار الأجنة، وكذلك حال أجساد الموتى.

وبعد أن يتخلق الجنين في رحم أمه، يبث القادر فيه الروح، وتدب فيه الحياة، وهو ما يناظر صورة النبتة التي يبدأ نموها، وتهتز عندما يُصب الماء عليها، فالماء النازل على الأرض تناظره الروح المبثوثة في الرحم، فنقول: "قَرَّ عَلَيْهِ الماءَ يَقُرُّه: صَبَّهُ"[3]، واهتزاز الأرض بالنبات هو بداية الحياة وتحرك الجنين واهتزازه في رحم أمه.

**تبرز ثنائية الثبات والتغير في التناظر بين النبتة والجنين**، إذ يناظر مشهد نمو النبتة وتحولها من مرحلة إلى أخرى، مشهدَ نمو الجنين وتنقله من مرحلة إلى أخرى، فالنبتة في قوله: ﴿**وَأَنۢبَتَتۡ**﴾ (**الحج**:5)، تربو وترفعُ سطح الأرض وتقوّسُه ثم تشق الأرض وتخرج، وتتحول فتبلغ ذروتها فتكون شجرة كبيرة يانعة مثمرة، ثم تذبل وتجف وتموت، فتتقابل مع انتفاخ بطن الأم حينما يكبر جنينها وصولًا إلى مرحلة الولادة **بخروج الطفل**، في قوله: ﴿**ثُمَّ نُخۡرِجُكُمۡ طِفۡلٗا**﴾ (**الحج**:5)، ثم الانتقال إلى مرحلة الطفولة والنمو حتى يبلغ ذروة عطائه وقوته، ثم الانتقال إلى مرحلة الشيخوخة التي تكون خاتمتها الوفاة. ويتشابه **خروج النبتة** من الأرض مع **خروج الموتى** من قبورهم يوم البعث، فيدل السياق على **الاستقرار ثم**

---

[1] ابن منظور: **لسان العرب**. مادة: (طفل).

[2] **المصدر السابق**. مادة: (نبت).

[3] **المصدر السابق**. مادة: (قرر).

**الخروج**، والتركيز على ما يخرج من الأرض، فالتي كانت هامدة بلا قيمة، تحولت حتى صارت ذات قيمة وعظمة وجمال وعطاء.

وعطفًا على ما تقدم، ركزت الآية الكريمة على الأرض ذاتها، وإحيائها، وقبول السماء لها، بدليل قوله: ﴿**إن الذى أحياها**﴾ (فصلت:39)، وأدى قبول عبادتها وخشوعها إلى اهتزازها واحتفالها ورقصها طربًا فرحةً بهذا القبول، إذ إن خشوعها أثمر، وقُبِل، وشمل الإحياء طريقتين: طريقة الإحياء المادي، إحياء البعث والنشور، وطريقة الإحياء المعنوي، إحياء الأرواح والقلوب.

وأدى تغير الحال في الآيتين الكريمتين، على الرغم من التقاطع الدلالي الكبير بينهما، والتقائهما بالمعنى العام، إلى فهم أعمق للسياقين، وإلى دقة في التفريق بينهما، ولو حاولنا تثبيت الحال في الآيتين لاضطرب المعنى، ولما استطعنا التفريق بين السياقين، أو لانحصر السياق في معنى واحد، فيترابط في سياق، ويضطرب في الآخر، وأرى أن أهمية الثبات والتغير برزت بعد تحليل الآيتين والمقارنة بينهما.

## المطلب الثاني: ثنائية الثبات والتغير في صورة الجبال في مشاهد يوم القيامة.

**رسم القرآن الكريم صورة الانقلاب الكوني في يوم القيامة**، حينما يزول كل شيء، يقول – عز وجل–: ﴿**كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُعِيدُهُ**﴾ (الأنبياء:104)، فكل شيء بدأ من العدم وسيعود إلى العدم، وتتجلى هذه الصورة في سياقات متعددة؛ فالسماء ستنشق، والأرض ستبدل، والشمس ستكور، والقمر سيخسف، والنجوم ستنكدر، فكل شيء إلى زوال وفناء، إلا ما شاء الله.

**وعبرت آيات كثيرة عن فكرة النفخ في الصور يوم القيامة**، وتلخصت في نفختين أو صيحتين، صيحة الصعق (الموت)، وصيحة البعث (الإحياء)، في قوله تعالى: ﴿**وَنُفِخَ فِى الصُّورِ فَصَعِقَ مَن فِى السَّمَاوَاتِ وَمَن فِى الْأَرْضِ إِلَّا مَن شَاءَ اللَّهُ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَىٰ فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنظُرُونَ**﴾ (الزمر:68)، فتصحب كلًّا منهما آياتٌ وعلاماتٌ عظامٌ، منها: آيات الجبال عند النفخ في الصور.

يتحول الفضاء الدلالي لصورة الجبال في سياق مشاهد يوم القيامة وفق مقتضيات السياق، إذ صُورت الجبال في القرآن الكريم يوم القيامة في أحوال متعددة، وتخصصت بعض الآيات في عرض مراحل تحول الجبال يوم القيامة، بتفصيل أكثر من غيرها، ومنها قوله تعالى: ﴿**يَوْمَ تَرْجُفُ الْأَرْضُ وَالْجِبَالُ وَكَانَتِ الْجِبَالُ كَثِيبًا مَهِيلًا**﴾ (المزمل:14)، وقوله: ﴿**وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْجِبَالِ فَقُلْ يَنْسِفُهَا رَبِّي نَسْفًا * فَيَذَرُهَا قَاعًا صَفْصَفًا * لَا تَرَىٰ فِيهَا عِوَجًا وَلَا أَمْتًا**﴾ (طه:105-107)، وقوله: ﴿**وَتَكُونُ الْجِبَالُ كَالْعِهْنِ الْمَنْفُوشِ**﴾ (القارعة:5)، وقوله: ﴿**وَبُسَّتِ الْجِبَالُ بَسًّا * فَكَانَتْ هَبَاءً مُنْبَثًّا**﴾ (الواقعة:5-6)، وقوله: ﴿**وَسُيِّرَتِ الْجِبَالُ فَكَانَتْ سَرَابًا**﴾ (النبأ:20)، فجاءت صورة الجبال ثابتة في الآيات الكريمة، وتغيرت الحالة التي ستؤول إليها يوم القيامة. وبعد تأمل الآيات التي ذكرت فيها الجبال يوم القيامة، نجد الجبال تمر في خمس مراحل عند النفخ في الصور على النحو الآتي:

## المرحلة الأولى (المتغير الأول): مرحلة رجف الجبال.

تدل الآية الكريمة: ﴿**يَوْمَ تَرْجُفُ الْأَرْضُ وَالْجِبَالُ وَكَانَتِ الْجِبَالُ كَثِيبًا مَهِيلًا**﴾ (المزمل:14)، على حدث عظيم تتأثر به الأرض والجبال، وهو الرجف عند الصيحة الأولى، فنتيجة لصوت الصيحة العظيم، تتزلزل الأرض وما عليها، حتى الجبال، فتتحول من صورتها الثابتة المعروفة إلى صورة أخرى. فتتغير الجبال المعروفة بشدة تماسكها، نتيجة الرجفة، إلى كثبان رملية مهيلة، وقت انهيارها، وسقوطها، فتكون أشبه بالكثبان الرملية المعروفة التي تسير على الأرض فتأخذ كل ما تراه أمامها معها، فثنائية **الثبات والتغير** هي صورة الجبال الثابتة المتماسكة وتحولها إلى كثبان رملية متحركة.

**تدل مادة (كثب) على معانٍ متعددة**، منها: الاجتماع، والقرب والدنو، والنثر، فنقول: "كَثَبَ الشيءَ: جَمَعَه مِنْ قُرْبٍ وصبَّه، وانْكَثَبَ الرَّمْلُ: اجْتَمع، والكَثِيبُ مِنَ الرَّمْلِ: القِطْعةُ تَنْقادُ مُحْدَوْدِبةً، وكَثَبْتُ الترابَ: نَثَرْت بعضَه فوقَ بَعْضٍ، والكَثَبُ: القُرْبُ، وأَكْثَبَ إِلى الجَبل: دَنَا مِنْهُ"[1].

**وتدل مادة (مهل) على معانٍ متعددة**، منها: الحركة، والسرعة، والتقدم، والمبالغة، والحرارة، "فالمَهِيل الَّذِي يحرَّك أَسفله فيَنْهال عَلَيْهِ مِنْ أَعلاه، والمَهَلُ والتمَهُّل: التقدُّم، والمَاهِلُ: السَّرِيعُ، وأَمْهَلْت: بَالَغْتُ"[2]، وهذا يعني أن حركة داخلية سفلية سريعة تشكل سببًا غير مرئي لتحول صورة الجبال، وهي صورة مضمرة تحرك الجبال من أسفلها، والصورة الأخرى بصرية معلنة، هي مشهد انهيار الجبال، ويمكن إضافة صورة صوتية متخيلة تؤدي إلى انهيار الجبال. فتتحول الجِبالُ مَعَ صَلابَتِها وارْتِفاعِها إلى رَمْل مُجْتَمِع رَخْو لَيِّن.

**التكامل الدلالي بين صورة رجف الجبال (المتغير الأول) والسياق الأكبر.**

ينبغي الاستئناس بالسياق الأكبر لبيان التواصل الدلالي بين المكونات اللغوية للسياق الأكبر وصورة رجف الجبال؛ لأن الآيات الكريمة التي تسبق صورة رجف الجبال (المتغير الأول) تعد حاضنة سياقية لصورة الجبال التي تتحول من الصلابة إلى الكثيب المهيل.

يقول تعالى: ﴿**واصْبِرْ عَلى ما يَقُولُونَ واهْجُرْهم هَجْرًا جَمِيلًا * وذَرْنِي والْمُكَذِّبِينَ أُولِي النَّعْمَةِ ومَهِّلْهم قَلِيلًا * إنَّ لَدَيْنا أنْكالًا وجَحِيمًا * وطَعامًا ذا غُصَّةٍ وعَذابًا أَلِيمًا * يَوْمَ تَرْجُفُ الْأَرْضُ والْجِبالُ وكانَتِ الْجِبالُ كَثِيبًا مَهِيلًا * إنَّا أَرْسَلْنا إلَيْكُمْ رَسُولًا شاهِدًا عَلَيْكُمْ كَما أَرْسَلْنا إلى فِرْعَوْنَ رَسُولًا * فَعَصى فِرْعَوْنُ الرَّسُولَ فَأَخَذْناهُ أَخْذًا وَبِيلًا * فَكَيْفَ تَتَّقُونَ إنْ كَفَرْتُمْ يَوْمًا يَجْعَلُ الوِلْدانَ شِيبًا * السَّماءُ مُنْفَطِرٌ بِهِ كانَ وعْدُهُ مَفْعُولًا * إنَّ هَذِهِ تَذْكِرَةٌ فَمَن شاءَ اتَّخَذَ إلى رَبِّهِ سَبِيلًا**﴾ **(المزمل:10-19).**

---

[1] ابن منظور: **لسان العرب**. مادة: (كثب).

[2] **المصدر السابق**. مادة: (مهل).

تشكل الآيتان: ﴿**واصْبِرْ عَلى ما يَقُولُونَ واهْجُرْهم هَجْرًا جَمِيلًا * وذَرْنِى والْمُكَذِّبِينَ أُولِى النَّعْمَةِ ومَهِّلْهم قَلِيلًا**﴾ **(المزمل:10-11)، إنذارًا زمنيًّا، ووعيدًا ربانيًّا**، بأن أمرًا عظيمًا خارقًا للمألوف سيحصل، ففعلا الأمر (اصبر) و(مهلهم) يتضمنان بعدًا زمنيًّا قصيرًا، سيتبعه أمر عظيم ناجم عن الصبر والتمهل. **وتدل مادة (رجف) على معانٍ متعددة**، "فالْمُرْجِفُونَ هُمُ الَّذِينَ يُوَلِّدُونَ الأَخبارَ الكاذبةَ الَّتِي يَكُونُ مَعَهَا اضطرابٌ فِي النَّاسِ، ونقول: رجَفَ الشيءُ: خَفَقَ واضْطَرَبَ اضْطِرابًا شَديدًا، ورجَفَ القلبُ: اضْطَرَبَ مِنَ الجَزَعِ، والرَّجَفَانُ: الإسراعُ، والرَّجْفَةُ فِي الْقُرْآنِ: كلُّ عَذَابٍ أَخَذَ قَوْمًا[1]، **فتلتقي دلالة الرجف مع سياق الكذب في قوله تعالى: ﴿وذَرْنِى والْمُكَذِّبِينَ﴾ (المزمل:11)**، وتلتقي مع الحالة التي يكون الناس عليها يوم القيامة من اضطراب شديد وخفقان للقلوب.

وتشكل الآيتان: ﴿**إِنَّ لَدَيْنا أَنْكالًا وجَحِيمًا * وطَعامًا ذا غُصَّةٍ وعَذابًا أَلِيمًا**﴾ (المزمل:12-13)، دلالة زمنية قَبْليّةً مؤكدة بـ (إن) وتقديم شبه الجملة على (أنكالًا) لما ستؤول إليه حال الكافرين بعد تحول الجبال إلى كثيب مهيل. و**ترتبط مادة (نكل) في آية سابقة من السورة نفسها في قوله تعالى: ﴿إِنَّ لَدَيْنا أَنْكالًا وجَحِيمًا﴾ (المزمل:12)، مع رجف الجبال (المرحلة الأولى/ المتغير الأول) في الآية (14)**، فنقول: "نَكَلَ عَنْهُ: نَكَصَ، ونَكَّلَه عَنِ الشَّيْءِ: صَرَفَهُ عَنْهُ، ونُكِّل بِهِ أَعداؤه أَي دُفِعوا وأُذِلُّوا، والنِّكْلُ: الْقَيْدُ الشَّدِيدُ مِنْ أَي شَيْءٍ كَانَ، والنَّاكِلُ: الجَبانُ الضعيفُ، والتَّنْكِيل: الْمَنْعُ وَالتَّنْحِيَةُ، وَالنُّكُول: الِامْتِنَاعُ وَتَرْكُ الإِقدام"[2]، ونلحظ أنها معان تدل على النكوص والجبن والذل والضعف والتراجع والامتناع، فتتقابل مع صورة الجبال المتحولة إلى كثبان رملية، من ارتفاع إلى دنو وهبوط، ومن قمة إلى قاع، ومن قوة إلى ضعف، فالجبال التي ترمز إلى العزة تقابلها الأنكال التي ترمز إلى الذل.

---

[1] ابن منظور: **لسان العرب**. مادة: (رجف).

[2] **المصدر السابق**. مادة: (نكل).

**وترتبط مادة (غصص) في آية سابقة في قوله تعالى: ﴿وطَعامًا ذا غُصَّةٍ وعَذابًا أَلِيمًا﴾ (المزمل:13)، مع مشهد الضيق والشدة والتأجج والهلاك**، فنقول: "غَصَّ المكانُ بأَهْله: ضاقَ، والمنزلُ غاصٌّ بِالْقَوْمِ، أَي: مُمْتَلِئٌ بِهِمْ، وأَغَصَّ فلانٌ الأَرضَ عَلَيْنَا، أَي: ضَيّقها"، فيتواءم (الطعام ذو الغصة) مع ما يشعر به من يصعد إلى قمة الجبل من ضيق في التنفس، ومع ما سيشعر به الناس عند رجف الأرض والجبال من ضيق في التنفس واختناق؛ نتيجة الرعب، والغبار المتخيل عند هيلان الجبال وتحولها إلى رمال.

ويدل الفعل المضارع (ترجف) في قوله: ﴿يَوْمَ تَرْجُفُ الْأَرْضُ وَالْجِبَالُ﴾ (المزمل:14)، على **استمرارية الحدث**، فالرجف مستمر متكرر؛ والرجف: "انْفِراطُ أَجْزاءِ الأَرْضِ وانْحِلالُها"[1]، فالزَّلْزَلَةُ والِاضْطِرابُ يتكرران ويستمران، فتتحول الجبال وحجارتها إلى رمال مجتمعة ودقيق متناثر، أشبه بالكثبان الرملية المعروفة. والكثبان الرملية يعرف عنها سيرها المستمر، فهي كالأنهار الجارية، والوصف بالمهيل يدل على الهيلان والانهيارات المتتالية للجبال، إذ إن تركيز الصورة على الجبال في وقت انهيارها وهيلان أجزائها ينتج عن استمرار الرجف.

ويلحظ مجيء لفظة (ترجف) في قوله: ﴿يَوْمَ تَرْجُفُ الْأَرْضُ وَالْجِبَالُ﴾ (المزمل:14)، دون بديلها اللغوي (تزلزل)، فلم يقل: يوم تزلزل الأرض والجبال، وفُرِّق بين الرجفة والزلزلة: بأن الرجفة هي الزلزلة العظيمة، والإرجاف هو الإخبار باضطراب أمر الرجل، ورجف الشيء إذا اضطرب، ورجفتُ منه: تقلقلت، بينما يقال: زلزلت الأرض زلزلة خفيفة، ولا يقال: رجفت إلا إذا زلزلت زلزلة شديدة، وسميت

[1] ابن عاشور: **التحرير والتنوير**. ج:29، ص:271.

زلزلة الساعة رجفة؛ لذلك،[1] و"الراجفة: هي الزلزلة التي تضطرب لها الأرض وتندك بما عليها"[2]، أما "الزَّلْزَلة والزِّلْزَال فتعني: تَحْرِيكُ الشَّيْءِ، والزَّلْزَلة التَّخْوِيفُ وَالتَّحْذِيرُ"[3].

**ويعود سياق رجف الأرض إلى ارتداد زمني بالحديث عن مصير فرعون** في قوله: ﴿**إِنَّا أَرْسَلْنَا إِلَيْكُمْ رَسُولًا شَاهِدًا عَلَيْكُمْ كَمَا أَرْسَلْنَا إِلَىٰ فِرْعَوْنَ رَسُولًا * فَعَصَىٰ فِرْعَوْنُ الرَّسُولَ فَأَخَذْنَاهُ أَخْذًا وَبِيلًا**﴾ **(المزمل:15-16)**، وتضمر الحاضنة السياقية السابقة تحولًا ماضيًا أصاب فرعون وقومه، وهو تحول من القوة إلى الفناء يناظر تحول الجبال من الصلابة إلى الليونة والضعف، وتحولًا مستقبلًا ينذر المشركين بتحول مصيرهم من الجبروت والتكبر والغرور إلى الأنكال والجحيم والطعام ذي الغصة بعد يوم القيامة حينما ترجف الأرض وتتحول الجبال إلى كثيب مهيل.

**ويناظر فرعونُ في قوله تعالى:** ﴿**إِنَّا أَرْسَلْنَا إِلَيْكُمْ رَسُولًا شَاهِدًا عَلَيْكُمْ كَمَا أَرْسَلْنَا إِلَىٰ فِرْعَوْنَ رَسُولًا * فَعَصَىٰ فِرْعَوْنُ الرَّسُولَ فَأَخَذْنَاهُ أَخْذًا وَبِيلًا**﴾ **(المزمل:15-16)**، **-وكل طاغية في أي زمان- الجبالَ في ارتفاعها**، وعلوها، وعزتها، وصلابتها، وجبروتها، وعصيانها، فهو الذي طغى في الأرض، وطلب أن يُبنى له قصر، لعله يطلع على إله موسى، فبلغ ذروة الغرور والاستعلاء، وزعم أنه الرب الأعلى، فهو يظن نفسه في القمة. وعلى الرغم من شدة عتوه، وإفساده، وتكذيبه، إلا أنه في النهاية آل إلى قمة التحقير، فهو لا يساوي شيئًا، فكان آية لكل من خلفه، والجبال بالرغم من شدة صلابتها، وارتفاعها، وقوتها، وبطشها، إلا أنها ستتحول إلى كثبان رملية سائلة متحركة تداس بالأقدام، فمن ارتفاع إلى انخفاض، ومن عز إلى ذل، ومن قوة إلى ضعف، ومن صلابة إلى سيولة، ومن قسوة إلى لين.

---

[1] ينظر: العسكري، أبو هلال: **الفروق اللغوية**. تح: محمد إبراهيم سليم. (د.ط)، دار العلم والثقافة للنشر والتوزيع، القاهرة، مصر، (د.ت)، ج:1، ص:301.

[2] داود: **معجم الفروق الدلالية في القرآن الكريم لبيان الملامح الفارقة بين الألفاظ متقاربة المعنى، والصيغ والأساليب المتشابهة**. ص:405.

[3] ابن منظور: **لسان العرب**. مادة: (زلل).

ويناظر حالُ كل مكذب بلغ كذبه الجبالَ كثرةً وضخامةً، حالَ الجبال في شموخها، وحالَ فرعون في غروره وعتوه، فالكاذب الذي ظن ثباته وسيطرته، وظن غياب المراقب والحسيب، حين يأتي اليوم الذي ينكشف فيه كذبه، سيظهر على حقيقته، يوم تعلن الحقائق، ويزول الظلم، وتعاد الحقوق لأصحابها، فيكون حال مكذبي آيات الله العظمى حال الخائف الراجف المرتعش، فيُجزى بالأنكال، الدالة على الثقل، وبالطعام ذي الغصة، الدال على ضيق التنفس أو توقفه، وتغير لون وجهه وازرقاقه، ما له علاقة بتأثير الجبال على من يصل قمتها، فلا يستطيعون التنفس في أعالي الجبال، ويشعرون بالضيق والثقل على صدورهم، فكل إنسان لم يحصن نفسه بالصفات المحمودة، وبالصدق والتواضع والذل لله، يكون حاله كمن يصل إلى قمم الجبال، فيصيبه الضيق والاختناق، ما دام لم يحصن نفسه، ولم يتسلح بالأجهزة المخصصة.

ويشير الفِعْلِ (كانَتْ) في قَوْلِهِ: ﴿**وَكَانَتِ الْجِبَالُ كَثِيبًا**﴾ (المزمل:14)، إلى تَحْقِيقِ وُقُوعِه حتى كأنه وقع في الماضي، على الرغم من أنَّ صَيْرُورَةَ الجِبالِ كُثُبًا أمْرٌ عَجِيبٌ غَيْرُ مُعْتادٍ، لكن لَعَلَّ السّامِعينَ يَسْتَبْعِدُونهُ، فرَجْفُ الأرْضِ مَعْرُوفٌ، إلّا أنَّ هَذا الرَّجْفَ المَوْعُودَ بِهِ أعْظَمُ ما عُرِفَ جِنْسُهُ.[1]

## المرحلة الثانية (المتغير الثاني): مرحلة نسف الجبال.

ذكرت الجبال في سياق الهول العظيم والنفخ في الصور يوم القيامة، في قوله: ﴿**وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْجِبَالِ فَقُلْ يَنسِفُهَا رَبِّي نَسْفًا * فَيَذَرُهَا قَاعًا صَفْصَفًا * لَا تَرَىٰ فِيهَا عِوَجًا وَلَا أَمْتًا**﴾ (طه:105-107)، وقوله: ﴿**وإذا الجِبالُ نُسِفَتْ**﴾ (المرسلات:10)، فالجبال المعروفة بثباتها ورسوخها وقوتها، في هذه المرحلة، ستنسف وتتحول إلى صورة أخرى.

[1] ينظر: ابن عاشور: **التحرير والتنوير**. ج:29، ص:272.

كان منكرو البعث يرون تَعَذُّر إعادَةِ الأجْسامِ بَعْدَ تَفَرُّقِ أجْزائِها، ومن ذلك أنهم سألوا رسول الله (ﷺ) سُؤالَ تَعَنُّتٍ لا سُؤالَ اسْتِهْداءٍ، عن مكان وجود الجبال بعد انْقِضاءَ هَذا العالَمِ، فرُوِيَ أنَّ رَجُلًا مِن ثَقِيفٍ سَألَ النَّبِي (ﷺ) عَنْ ذَلِكَ، فأنْبَأهُمُ اللَّهُ بِمَصِيرِ الجِبالِ إبْطالًا لِشُبْهَتِهِمْ وتَعْلِيمًا لِلْمُؤْمِنِينَ، وأكَّدَ (يَنْسِفُها نَسْفًا) لِإثْباتِ أنَّهُ حَقِيقَةٌ لا اسْتِعارَةٌ.[1]

**تدل مادة (نسف) على معنى السلب، والاقتلاع، والاستئصال، والخفاء، والتنقية،** إذ نقول: "نَسَفَتِ الريحُ الشَّيْءَ: سلبَتْه، وانْتَسَفْتُ الشَّيْءَ: اقْتَلَعْته؛ والنَّسْفُ: القَلْع، وانْتَسَفَ البِناءَ: استأْصله، ونَسَفَ الشَّيْءَ: غَرْبله، والنُّسَّافَة: مَا سَقَطَ مِنَ الشَّيْءِ، والنَّسْف: تَنْقِية الْجَيِّدِ مِنَ الرَّديء، والمِنْسَفَة: الغِرْبال"[2]، "والنَّسْفُ: تَفْرِيقٌ وإذْراءٌ"[3]، وهي دلالات تصور المشهد الذي ستكون عليه الجبال يوم القيامة، إذ لن يكون هناك جبالٌ أصلًا، فستستأصل استئصالًا، وتقتلع اقتلاعًا، فتصير كالدقيق المنقى بالغربال.

**وتدلنا مادة (قوع) في قوله تعالى: ﴿فَيَذَرُهَا قَاعًا صَفْصَفًا﴾ على ما ستتحول إليه الجبال بعد سلبها واقتلاعها من أماكنها يوم القيامة،** "فالقاعُ والقاعةُ والقِيعُ: أَرض واسعةٌ سَهْلة مُطَمْئِنَةٌ مُسْتَوِيَةٌ حُرّةٌ لَا حُزُونةَ فِيهَا وَلَا ارْتِفاعَ وَلَا انْهِباطَ، تَنْفَرِجُ عَنْهَا الجبالُ والآكامُ، وَلَا حَصَى فِيهَا وَلَا حجارةَ وَلَا تُنْبِتُ الشَّجَرَ، وَمَا حَوالَيْها أَرْفَعُ مِنْهَا وَهُوَ مَصَبُّ المِياهِ، وَقِيلَ: هُوَ مَنْقَعُ الْمَاءِ فِي حُرِّ الطِّينِ، وَقِيلَ: هُوَ مَا اسْتَوَى مِنَ الأَرض وصَلُبَ وَلَمْ يَكُنْ فِيهِ نَبَاتٌ، وقيل: مَا انْبَسَطَ مِنَ الأَرض، وقيل: الأَرض الحُرَّةُ الطينِ الَّتِي لَا يُخَالِطُهَا رَمْلٌ فَيَشْرَبُ مَاءَهَا، وَهِيَ مُسْتَوِيَةٌ لَيْسَ فِيهَا تَطامُنٌ وَلَا ارْتِفاعٌ، وإذا خَالَطَهَا الرَّمْلُ لَمْ

---

[1] ينظر: ابن عاشور: **التحرير والتنوير**. ج:16، ص:306-307.

[2] ابن منظور: **لسان العرب**. مادة: (نسف).

[3] ابن عاشور: **التحرير والتنوير**. ج:16، ص:307.

تَكُنْ قَاعًا؛ لأَنها تَشْرَبُ الْمَاءَ فَلَا تُمْسِكُه، وقاعةُ الدارِ: ساحَتُها"[1] "والقاعُ: الأَرْضُ السَّهْلَةُ"[2]، أي إن الجبال ستتحول إلى أرض مستوية تمامًا، أو سهل واسع، دون إنبات.

**تصور مادة (صفف) في قوله تعالى: ﴿فَيَذَرُهَا قَاعًا صَفْصَفًا﴾ الأرض بعد نسف الجبال واقتلاعها يوم القيامة، إذ ستكون أرضًا خالية تمامًا من أي شيء**، بلا نبات أو تراب، "فالأَرض الصَفْصَف: المَلْساء المُسْتَوِية، والصَّفْصَفُ: الَّذِي لَا نَبَاتَ فِيهِ، والصَّفْصَف: القَرْعاء، وَقيل: قَاع صَفْصَف، أي: مُسْتَوٍ، والصَفْصَف الْمُسْتَوِي مِنَ الأَرض، والصَفْصَفُ: القَلاةُ"[3]، "والصَّفْصَفُ: الأَرْضُ المُسْتَوِيَةُ الَّتِي لا نُتُوءَ فِيها"[4]. أي إن مَعْنى يَذَرُها قاعًا صَفْصَفًا أنَّها تَنْدَكُّ في مَواضِعِها وتُسَوّى مَعَ الأَرْضِ حَتّى تَصِيرَ في مُسْتَوى أَرْضِها، وذَلِكَ يَحْصُلُ بِزِلْزالٍ أَوْ نَحْوِهُ.[5]

**وتحتمل مادة (عوج) في قوله تعالى: ﴿لَا تَرَىٰ فِيهَا عِوَجًا وَلَا أَمْتًا﴾ دلالة الانعطاف، والتقوس، والميل، وعدم الاستواء**، "فالعَوَجُ: الِانْعِطَافُ فِيمَا كَانَ قَائِمًا، والعِوَجُ فِي الأَرض: أَن لَا تَسْتَوِيَ، وعَوَّجْتُ الشيءَ إِذا حَنَيْتَه، وَيُقَالُ: نَخِيل عُوجٌ إِذا مالَتْ، وعاجَ بِالْمَكَانِ، أَي: أَقام، وَقِيلَ: عاجَ بِهِ، أَي: عَطَفَ عَلَيْهِ وَمَالَ وأَلَمَّ بِهِ ومرَّ عَلَيْهِ، والعَوْجاء: القَوْسُ"[6]، **بينما لا تحتمل مادة (أمت) دلالة الارتفاع أو الانخفاض فقط، وإنما تحمل دلالة مزدوجة بين الارتفاع والانخفاض**، "فالأَمْتُ: المكانُ الْمُرْتَفِعُ، والأَمْتُ: الانْخفاضُ، والارْتفاعُ، والاختلافُ فِي الشيءِ، والأَمْتُ: الوَهْدة بَيْنَ كُلِّ نَشْزَيْن، وأَمْتَ فِيهَا، أَي:

---

[1] ابن منظور: **لسان العرب**. مادة: (قوع).

[2] ابن عاشور: **التحرير والتنوير**. ج:16، ص:307.

[3] ابن منظور: **لسان العرب**. مادة: (صفف).

[4] ابن عاشور: **التحرير والتنوير**. ج:16، ص:307.

[5] ينظر: **المرجع السابق**. ج:16، ص:307.

[6] ابن منظور: **لسان العرب**. مادة: (عوج).

لا عَيْبَ فيها"[1]، "والأمْتُ: النُّتُوءُ اليَسِيرُ، أيْ لا تَرى فِيها وهْدَةً ولا نُتُوءًا ما"[2]. ونستنتج من دلالات مادة (أمت) أنه لا يمكن الشك أو الظن في دقة استواء الأرض، فلا مجال لتقدير استوائها، فاستواؤها واضح لا شك فيه. و**يشترك العوج والأمت في ملمح الاختلاف والانحراف، ويفترقان في أن العوج يشمل الميل والانحناء بالمفهوم الحسي، والمعنوي**، أي: الزيغ والانحراف، فالعوج: الميل والانحناء في كل شيء مستقيم، واستعير للزيغ والانحراف والفساد في الرأي والدين والخلق، ويقتصر الأمت على وصف الميل والانحراف الحسي دون المعنوي، فالأمت: اختلاف في طبيعة المكان، بين ارتفاع وانخفاض، وغلظ ورِقّة.[3]

**يرجح الباحث أن يكون استخدام لفظة النسف مع الجبال مرتبطًا بالسائل**، فبنو إسرائيل أو أهل ثقيف هم من سألوا رسول الله (ﷺ) عن الجبال؛ فاختار لفظة (النسف) لتتناسب مع قصة عجلهم الذي اتخذوه إلهًا، فنسف في اليم نسفًا، في قوله تعالى: ﴿**وَانظُرْ إِلَىٰ إِلَٰهِكَ الَّذِي ظَلْتَ عَلَيْهِ عَاكِفًا لَّنُحَرِّقَنَّهُ ثُمَّ لَنَنسِفَنَّهُ فِي الْيَمِّ نَسْفًا**﴾ (طه:97)، فتلتقي صورة الجبال في الآية الكريمة: ﴿**وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْجِبَالِ فَقُلْ يَنسِفُهَا رَبِّي نَسْفًا**﴾ (طه:105)، مع صورة عجل السامريّ، إله بني إسرائيل، فالجبال المتصفة بالرسوخ والثبات تتناسب مع ثبات عبادة بني إسرائيل لإلههم (العجل) ودوامهم على ذلك، فهم مصرون على اتخاذهم آلهة دون الله، واستمرار عبادتهم للماديات، وعكوفهم عليها.

وتناسبت لفظة الجبال العظيمة مع إله السامري العظيم في نظره، فلم يقل: انظر إلى عجلك، وإنما قال: انظر إلى إلهك، فهذا الإله على عظمته، سيحرَّق وينسف نسفًا، فهذا العجل المصنوع من الذهب بعد أن يحرق ويذاب، سيحطم تحطيمًا، فيتحول إلى ذرات صغيرة جدًّا لا تكاد ترى، وتُلقى في

---

[1] ابن منظور: **لسان العرب**. مادة: (أمت).

[2] ابن عاشور: **التحرير والتنوير**. ج:16، ص:307.

[3] ينظر: داود: **معجم الفروق الدلالية في القرآن الكريم لبيان الملامح الفارقة بين الألفاظ متقاربة المعنى، والصيغ والأساليب المتشابهة**. ص:69-71.

اليم، فيتناسب مع حال الجبال العظيمة، يوم النفخ في الصور، التي ستتحول إلى ما هو أشبه بما يعلمه بنو إسرائيل، إلى قاع صفصف ملساء مستوية كحال الذهب المحرق المذاب الناعم بلا إي اعوجاج، ونلحظ دقة في الوصف، وإبداعًا في اختيار المفردات، وتقريبًا للصور من خلال ما يتشابه معها مما حدث وعرف مسبقًا، فأرى أن التناسب بين الصورتين والتقابل بين أجزائهما أقرب إلى الكمال.

**التكامل الدلالي بين صورة نسف الجبال (المتغير الثاني) والسياق الأكبر.**

- **ثنائية المألوف والخوف.**

تتحقق في مشهد عصا موسى المتحولة عند إلقائها إلى أفعى، في قوله: ﴿**فَأَلْقَاهَا فَإِذَا هِيَ حَيَّةٌ تَسْعَىٰ**﴾ (طه:20)، فالمألوف ألا تتحول العصا عند إلقائها إلى أفعى، والخوف عند خروجها عن المألوف وتحول العصا إلى حية تسعى، أو أفعى مضطربة، وهو ما يتوافق مع مشهد نسف الجبال واضطراب الأحوال وخوف الناس يوم القيامة، وتحول الجبال من صورتها المألوفة إلى صورة غير مألوفة، وهي تحولها إلى قاع صفصف بلا أمت أو عوج، وتظهر علاقة سلب الخوف من قلب موسى في قوله: ﴿**قَالَ خُذْهَا وَلَا تَخَفْ سَنُعِيدُهَا سِيرَتَهَا الْأُولَىٰ**﴾ (طه:21)، مع سلب الجبال ونسفها واقتلاعها من أماكنها يوم القيامة.

- **ثنائية القلق والطمأنينة.**

تظهر في قلق أم موسى على ابنها بأن لا يعود إليها، وقلقها عليه بأن يصيبه مكروه عند قذفه في التابوت أو عند إلقائه في اليم، في قوله: ﴿**أَنِ اقْذِفِيهِ فِي التَّابُوتِ فَاقْذِفِيهِ فِي الْيَمِّ فَلْيُلْقِهِ الْيَمُّ بِالسَّاحِلِ يَأْخُذْهُ عَدُوٌّ لِّي وَعَدُوٌّ لَّهُ**﴾ (طه:39)، وفي اطمئنانها على سلامة ابنها ونجاته، وعودته إليها، في قوله: ﴿**إِذْ تَمْشِي أُخْتُكَ فَتَقُولُ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ مَن يَكْفُلُهُ فَرَجَعْنَاكَ إِلَىٰ أُمِّكَ كَيْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ**﴾ (طه:40)، فتلتقي ثنائية القلق والطمأنينة، ومشهد إسقاط التابوت في الماء، المصحوب بقلق الأم على موسى، ثم

اطمئنانها عليه وصفاء قلبها واتساعه وانفراج الضيق عنه بعد عودته لها، مع دلالة نسف الجبال، وإسقاطها يوم القيامة، وحالة القلق التي ترافق الناس في أثناء النسف، ثم التحول إلى حالة القاع الصفصف، وانتهاء عملية النسف، وانتهاء حالة القلق التي يعيشها الناس والمخلوقات كلها في تلك اللحظات.

- **ثنائية الخوف واليقين.**

تتمثل في حالة خوف موسى وتردده عند إلقاء السحرة حبالهم وعصيهم، وسحر العيون بتخييل تحرك الحبال والعصي، في قوله: ﴿**فَأَوْجَسَ فِي نَفْسِهِ خِيفَةً مُوسَى**﴾ (طه:67)، ثم التحول إلى حالة اليقين التي يصل إليها موسى بأنه الأعلى، في قوله: ﴿**قُلْنَا لَا تَخَفْ إِنَّكَ أَنْتَ الْأَعْلَى**﴾ (طه:68)، فإزالة خوف موسى تتشابه مع إزالة الجبال واقتلاعها ونسفها يوم القيامة، ثم الوصول إلى حالة اليقين، في قوله تعالى: ﴿**يَوْمَئِذٍ يَتَّبِعُونَ الدَّاعِيَ لَا عِوَجَ لَهُ وَخَشَعَتِ الْأَصْوَاتُ لِلرَّحْمَنِ فَلَا تَسْمَعُ إِلَّا هَمْسًا**﴾ (طه:108)، التي سيتضح عندها مصير الناس، إما جنة أو نار، التي يماثلها وصول النبي موسى –عليه السلام– إلى اليقين بالنصر على السحرة.

- **ثنائية البر والبحر.**

تبرز في سياق عذاب فرعون، وغرقهم في البحر، ونجاة قوم موسى بوصولهم إلى البر، في قوله تعالى: ﴿**وَلَقَدْ أَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى أَنْ اسْرِ بِعِبَادِي فَاضْرِبْ لَهُمْ طَرِيقًا فِي الْبَحْرِ يَبَسًا لَا تَخَافُ دَرَكًا وَلَا تَخْشَى * فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ بِجُنُودِهِ فَغَشِيَهُمْ مِنَ الْيَمِّ مَا غَشِيَهُمْ**﴾ (طه:77–78)، فيناظر مشهد إطباق البحر على قوم فرعون، وسقوط الماء عليهم، وإغراقهم، ثم اقتلاعهم من الوجود، وسلب فرعون عزته وكبرياءه وغروره، يناظر مشهد نسف الجبال يوم القيامة، ويناظر البحر المتسع بعد الإطباق، مشهد القاع الصفصف الواسعة المستوية التي تتحول إليها الجبال يوم القيامة.

- **ثنائية الخفاء والتجلي.**

تظهر ثنائية **الخفاء والتجلي** في الجبال التي تخفي عمن يراها، وتتجلى حقيقتها عند الصيحة التي تفتت الجبال إلى ذرات متساوية مستقيمة، –وهو أشبه بما وصل إليه العلم الحديث اليوم، في تفتيت حصى الكلى، فيتم تعريض الموجات الصوتية لها، فتتحول إلى رمل صغير– ونلحظ اختفاء موسى وتأخره عن موعده مع قومه عشرة أيام أخرى، وتجليه وظهوره لهم بعد ميقات ربه، في قوله: ﴿**وَوَاعَدْنَا مُوسَىٰ ثَلَاثِينَ لَيْلَةً وَأَتْمَمْنَاهَا بِعَشْرٍ فَتَمَّ مِيقَاتُ رَبِّهِ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً**﴾ (الأعراف:142)، وترتبط الثنائية بسياق الإله المختفي في زينة القوم وإخراجه وظهوره وتجليه عجلًا جسدًا ذي خوار على يد السامري، في قوله: ﴿**فَأَخْرَجَ لَهُمْ عِجْلًا جَسَدًا لَهُ خُوَارٌ فَقَالُوا هَٰذَا إِلَٰهُكُمْ وَإِلَٰهُ مُوسَىٰ فَنَسِيَ**﴾ (طه:88)، وإخفاء ما بَصُر به السامري دون قومه، وإظهاره بإلقائه ونبذه أمام القوم.

ويحاول الظالمون جاهدين إخفاء جرائمهم التي وصلت في كثرتها وعظمها ارتفاع الجبال وضخامتها، فكأنهم لم يدركوا أن الستر الذي كانوا فيه، فضلًا من الله عليهم في دنياهم، وإمهالًا لهم؛ كي يرتجعوا عن ظلمهم، مصيرُه أن ينكشف ويظهر على حقيقته، فتنفضح أسرارهم، وخفاياهم، وجرائمهم المستورة كلها، يوم القيامة، فيخيب من حمل ظلمًا.

- **ثنائية الماضي والمستقبل.**

تتحول الجبال الثابتة الراسخة في الأرض يوم القيامة إلى أرض مستوية، فارغة من كل شيء، لا تساوي شيئًا في المستقبل (يوم القيامة)، ويناظرها في ذلك، نسف العجل، وتحريقه، ونسفه نسفًا، وتحويله إلى لا شيء في الماضي، **فالنسف** يحتمل دلالة **السلب والأخذ والاختفاء**، فنقول: "نسفت الريح الشيء: سلبته"[1]، وهي تلتقي مع دلالة **طمس الماديات**، فمنها: **الدرس والانمحاء والاختفاء والغياب،**

[1] ابن منظور: **لسان العرب**. مادة: (نسف).

فنقول: "الطُّمُوس: الدُّرُوسُ والانْمِحاء، وانْطَمَس الشيءُ وتَطَمَّسَ: امَّحَى ودَرَسَ والطَّمْسُ اسْتِئْصَالُ أَثر الشَّيْءِ"[1]، فطمس ذكر إلههم.

ونجد أن ثنائية **الثبات والتغير** في آية نسف الجبال، واختيار لفظة النسف دون غيرها، لفت الانتباه إلى حادثة النسف السابقة في السورة، فساعد في إدراك صورة نسف عجل بني إسرائيل في مشاهد قصة موسى –عليه السلام– وفهم كيفيتها، وبعد ربطهما ببعضهما، تنكشف لنا الصورتان، فتوضحان بعضهما بعضًا، فمن لم تكتمل عنده صورة نسف العجل، وكيفيتها، عندما تتضح له صورة الجبال التي نشاهدها أمام أعيننا إلى قيام الساعة، وعملية النسف المعروفة، والأرض المستوية بلا أي اعوجاج، يدرك ما تكوَّن منه العجل وكيفية تحريقه ونسفه، والعكس صحيح، **وأزعم** أن صورة نسف الجبال المتخيلة المستمرة في ذهن كل من يقرأ الآية الكريمة، تؤدي به إلى وجهين، فيتخيل صورتين، صورة من الماضي، وصورة في المستقبل، أي ستتكون **ثنائية الماضي والمستقبل**.

- **ثنائية الصوت والسكون**.

تتجلى دلالة الهول العظيم في مشهد **الصمت والهدوء** الذي عم المكان بعد النسف في سياق النفخ في الصور، فتلتقي دلالة التخافت، والنسف، واتباع الداعي دون أي جدال، وخشوع الأصوات للرحمن، وسيادة الهمس فقط، في قوله: ﴿**وَخَشَعَتِ الْأَصْوَاتُ لِلرَّحْمَنِ فَلَا تَسْمَعُ إِلَّا هَمْسًا**﴾ (طه:108)، فتبرز **ثنائية الصوت والسكون**، فبعد الصيحة العظيمة تؤول كل الأصوات الثابتة في استمراريتها وتتغير إلى صمت وهمس، فيؤكد ما تقدم فكرة الثبات والتغير، ومشهد تغير الجبال الثابتة، نتيجة النسف، إلى أرض ملساء مستوية لا نتوء فيها، أو قاع صفصف بلا عوج ولا أمت.

[1] ابن منظور: **لسان العرب**. مادة: (طمس).

- **ثنائية العوج والاستقامة.**

ومحاولةً لرسم ثنائية **العوج والاستقامة**، فالجبال المشهورة بتعرجاتها، تنسف بعد الصيحة، وتتحول إلى أرض مستوية، بلا أي عوج ولا أمت، فتتحول إلى رمال مستقيمة، ويؤيد هذه الثنائية، حال اتباع الداعي الذي لا عوج له، في قوله: ﴿**يَوْمَئِذٍ يَتَّبِعُونَ الدَّاعِيَ لَا عِوَجَ لَهُ**﴾ (طه:108)، التي فسرت بأنهم "يتبعونه لا يتخلفون عن دعوته، بل يستوون إليه من غير انحراف"[1]، فتتضح الاستقامة في السياق. وتتحول الجبال إلى أرض ملساء مستوية مستقيمة تمامًا، فتتقابل مع استقامة الصفوف المستوية التابعة للداعي، والأصوات التي على وتيرة واحدة من الخشوع والصمت، فتوحي بسياق تسوية واستقامة. ويلحظ أن كلمة (عوج) تكررت في آيتين متتابعتين، هما: ﴿**لَا تَرَى فِيهَا عِوَجًا وَلَا أَمْتًا * يَوْمَئِذٍ يَتَّبِعُونَ الدَّاعِيَ لَا عِوَجَ لَهُ**﴾ (طه:107-108).

## المرحلة الثالثة (المتغير الثالث): مرحلة تفتيت الجبال.

يظهر تفتيت الجبال في مشهد يوم القيامة، عند النفخ في الصور، مرة أخرى، في قوله تعالى: ﴿**وَتَكُونُ الْجِبَالُ كَالْعِهْنِ الْمَنْفُوشِ**﴾ (القارعة:5)، فصُوّرتْ عِهنًا منفوشًا، على الرغم مما يعرف عنها من قوةٍ، وثباتٍ، وتماسكٍ، فتتحول الجبال إلى صورة جديدة مختلفة عما سبقها من مراحل، على الرغم من ثبات المشهد الكلي، مشهد النفخ في الصور.

وتبدأ السورة بذكر القارعة في قوله تعالى: ﴿**الْقَارِعَةُ * مَا الْقَارِعَةُ * وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْقَارِعَةُ**﴾ (القارعة:1-3)، وهي الضربة التي تقرع، وتفرق، وتفتت كل ما هو مجتمع، ومنتظم، ومتماسك، فأصل القرع هو الضرب[2]، فيتفكك الناس، وينتشرون، ويتناثرون كالفراش المنتشر، وتتحول الجبال الثقيلة

---

[1] الزمخشري: **تفسير الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل**. ج:2، ص:553-554.

[2] داود: **معجم الفروق الدلالية في القرآن الكريم لبيان الملامح الفارقة بين الألفاظ متقاربة المعنى، والصيغ والأساليب المتشابهة**. ص:410.

المتماسكة نتيجة لشدة الضربة (الموجة الصوتية الشديدة) إلى عهن منفوش، أي: كصوف يتطاير في أثناء عملية نفشه، فيبرز سياق التفريق والتناثر والتطاير؛ نتيجة الضربة الصوتية القوية المفجرة.

تصيب القارعة أو الضربة الموجية الصوتية القوية الناس كلهم، كل شخص بمفرده، فمن ثقلت موازينه ﴿**فَأَمَّا مَنْ ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ**﴾ **(القارعة:6)**، وكان حصنه الذي بناه في الدنيا قويًّا ثقيلًا، سيكون مع الأشخاص الذين ثقلت موازينهم أيضًا، أما من خفت موازينه ﴿**وَأَمَّا مَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ**﴾ (القارعة:8)، ولم يتهيأ لهذا اليوم، فسيكون مع الأشخاص الذين خفت موازينهم، ولكن الأشخاص في هذا السياق متفرقين، فيتناسب تفرقهم مع السياق ومشهد تفتيت الجبال.

وتناظر ثنائية **الجبال والعهن** ثنائية **الثقل والخفة**، فالجبال المعروفة برسوخها وثقلها، تصير عهنًا خفيفًا منفوشًا يتطاير؛ نتيجة خفته بكل سهولة، وتقترب الصورة من ثنائية ثقل الموازين وخفتها، فالإنسان الذي حمى نفسه، وحمل كثيرًا من الأعمال الصالحة، والحسنات الجمة، يقابل الجبال الثقيلة الراسخة القوية الثابتة، أما من لم يحمل شيئًا، ولم يحمِ نفسه، فيطير عند النفخ في الصور ﴿**فَأُمُّهُ هَاوِيَةٌ**﴾ (القارعة:9)، فهو أشبه بصوف في حالة نفشه، يتطاير بسهولة من نفخة بسيطة.

يتجسد مشهد **الحركة والانتشار** في قوله: ﴿**وَتَكُونُ الْجِبَالُ كَالْعِهْنِ الْمَنْفُوشِ**﴾ (القارعة:5)، فيتمثل بحركة الجبال التي تتحول من حالة الصلابة، والرسوخ، إلى حالة الليونة، والتفرق، والانتشار، والتمدد، حتى تصبح كالصوف المنفوش، فشُبّهت الجبال بالعهن، وهو الصوف المصبوغ ألوانًا؛ لأنها ألوان، وبالمنفوش منه خاصةً؛ لتفرق أجزائها.[1]

[1] الزمخشري: **تفسير الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل**. ج:4، ص:790.

تكمن في كلمة (المنفوش) ثلاث دلالات، الأولى: التمدد، فنقول: "نَفَشَ الصوفَ يَنْفُشه نَفْشًا إذا مَدّه حتى يتجوَّف"[1]، والثانية: التفرق، "فالنَّفْشُ: مَدُّ الصّوفِ حتّى يَنْتَفِشَ بَعْضُهُ عن بَعْضٍ"[2]، والثالثة: الانتشار؛ لما نص عليه أَئمَّةُ الاشْتِقَاقِ بأن مادَّة النَّفْشِ وُضِعَت للنَّشْرِ والانْتِشَارِ.[3] وأزعم أن هذه الدلالات الثلاث تتفق مع الخصائص الصوتية لصوت الشين، ومع الحالة التي ستؤول إليها الجبال، فالنفش يدل على البسط والتمدد، فيتقابل مع شكل الجبال بعد تحولها، إذ تصير مستوية منبسطة ممتدة، بعد أن كانت مرتفعة متعرجة تنطلق في عنان السماء، وتتقابل دلالة التفرق مع ما ستتحول إليه الجبال الثابتة المتماسكة يوم القيامة من حجارة متفرقة، كقطع الصوف المتفرقة، ويناظر دلالة الانتشار ما ستتبدل إليه الجبال عند النفخ في الصور، وهو التطاير نتيجة للخفة التي ستتسم بها.

ويدل المعنى على الحيرة والاضطراب من هول مشهد تفتيت الجبال، فشبهت الجبال في الضعف والذلة والتطاير من كل جهة على غير نظام عند الدعوة إلى المحشر، بالعهن المنفوش المتفرق الخفيف المتطاير، فالعهن أو الصوف معروف في خفته، وتطايره عند نفشه.[4]

يرتبط السياق الدلالي المتقدم بالنسق الصوتي، فالتفشي صفة يتسم بها صوت الشين الذي ينتهي به نعت العهن المتغير (المنفوش)، فلا يقتصر هواء النفَس معها في تسربه إلى الخارج على مخرج الشين، بل يتوزع في جنبات الفم، وينجم عن الانتشار والتفشي تفرق لجزئيات الهواء، وتماثل بعثرة النفَس أثناء خروج صوت الشين الأحداث التي تتم فيها البعثرة والانتشار.[5]

---

[1] ابن منظور: **لسان العرب**. مادة: (نفش).

[2] **المصدر السابق**. مادة: (نفش).

[3] عتيق، عمر: **الأسلوبية الصوتية في الفواصل القرآنية**. مجلة المنار، جامعة آل البيت، مج: 16، ع:3، ص:24-27.

[4] ينظر: الألوسي: **روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني**. ج:15، ص:448.

[5] عتيق: **الأسلوبية الصوتية في الفواصل القرآنية**. ص:24-27. وينظر: وخمايسة، سكينة: **نعت المشبه به في القرآن الكريم في ضوء نظرية السياق**. (رسالة ماجستير). إشراف: عمر عتيق. كلية الدراسات العليا، منشورات جامعة القدس المفتوحة، فلسطين، 2019م، ص:63.

ويكشف السياق العام لسورة القارعة عن التأثير النفسي للعلاقة الدلالية بين تشبيه الجبال بالعهن ﴿وَتَكُونُ الْجِبَالُ كَالْعِهْنِ﴾ ونعت المشبه به (المنفوش)، فينجم التأثير النفسي من مشهد يوم القيامة حينما تتحول صلابة الجبال إلى صوف منفوش، فالصورة كلها أهوال مرعبة، من مطلعها إلى خاتمتها، وترتسم الأهوال في التصوير والتعبير معًا، فالقارعة، بجرسها الشديد، وتكرار الاستفهام أيضًا، يضخم من هذه الأهوال المرسومة، ثم في حركة الناس كالفراش المبثوث، وصورة الجبال المنفوشة، والأعمال الموزونة، ونتائج الأعمال، وختام السورة بالنار الحامية، يتناسق مع مطلع القارعة المخيف، وتتفاعل صورة الناس، وصورة الجبال، مع سياق الأعمال الموزونة، فالناس بأحجامهم وأثقالهم، كالفراش انتشارًا وخفةً، والجبال الراسية الثقيلة، منفوشة كالصوف، فليس في هذا المشهد المرسوم قيمة إلا للأعمال الموزونة، التي تحدّد مصائر البشر، فهي التي تبرز في المشهد، وتركّز عليها أضواء التصوير.[1]

**لماذا وُصفت الجبال بالعهن المنفوش في السورة الكريمة؟ وما علاقة العهن المنفوش بحال الناس يوم القيامة عند النفخ في الصور؟**

ارتبط تشبيه الجبال في قوله: ﴿وَتَكُونُ الْجِبَالُ كَالْعِهْنِ الْمَنفُوشِ﴾ (القارعة:5)، بحال الناس يوم القيامة في قوله: ﴿يَوْمَ يَكُونُ النَّاسُ كَالْفَرَاشِ الْمَبْثُوثِ﴾ (القارعة:4)، إذ سيكون الناس إثر الصيحة الأولى، في حالة اضطراب وتفرق، يشبه حال الفراش المبثوث ذي الحركة العشوائية في جهات مختلفة. وكان للجبال صلة وثيقة بمعنى الدفاع عن النفس، إذ إن الناس في هذا المشهد يلوذون بالفرار، ويحاولون حماية أنفسهم بالطرق كافة، قدر إمكانهم، وتعد الجبال –في العرف المجتمعي– مكان السكن، والرفاهة، والحماية، والدفاع عن النفس، إذ إن الناس اتخذوها بيوتًا، فسكنوا كهوفها، ودليل ذلك، قوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّمَّا خَلَقَ ظِلَالًا وَجَعَلَ لَكُم مِنَ الْجِبَالِ أَكْنَانًا﴾ (النحل:81)، وارتبط بالدفاع عن النفس، إذ اعتاد

---

[1] الراغب: **وظيفة الصورة الفنية في القرآن الكريم**. ص:337. وينظر: خمايسة: **نعت المشبه به في القرآن الكريم في ضوء نظرية السياق**. ص:63–64.

الإنسان القديم اتخاذ الجبال مكانًا لمراقبة الأعداء، ومعرفة ما إذا كان هناك غزوٌ ما، واتخذوها ملجأً، إذ ترمز الجبال للقوة، والجبروت، والحصن المنيع، ويؤكد ذلك مشهد ابن نوح عليه السلام، الذي عصى أباه بل عانده، واحتمى بالجبل، فقال: ﴿سَآوِي إِلَىٰ جَبَلٍ يَعْصِمُنِي مِنَ الْمَاءِ﴾ (هود:43)، فاستعصم بالجبل وأوى إليه، وفي هذا السياق كانت الجبال المكان والملجأ الوحيد الأقوى والأنسب، المرتبط بأذهان الناس بمعنى الحماية، والدفاع عن النفس، والحصن، والمنعة، والمكان الذي يفر إليه في الحالات كلها، النفسية، والاجتماعية، وغيرها، وأزعم أن صورة ابن نوح واحتماءه بالجبل تتكرر دائمًا، وهو ما نراه من لجوء كثير من الناس إلى أشياء، وأمور، وأشخاص، ورموز، ومعتقدات، وأقوال، يظنونها ملجأً لهم، فيعتقدون بحمايتها لهم وبإبعادها الشرور عنهم، وهو ما يدعون تسميته بالشرك الأصغر، وهي الصورة التي ستكرر أيضًا في مشاهد يوم القيامة، فكل منهم سينطلق ليحتمي بما يظنه درعه الحامي، ناسين رب العزة والجبروت، الذي يقول: ﴿فَفِرُّوا إِلَى اللَّهِ﴾ (الذاريات:50)، ناسين الحي الذي لا يموت، الذي يجدونه في الأوقات كلها، وعند الاضطرار والحاجة والشدة خاصةً، عندما لا يقف أحدٌ معهم في مصيبتهم، إذ يقول: ﴿أَمَّن يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ السُّوءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَاءَ الْأَرْضِ﴾ (النمل:62)، وارتبطت الجبال بحالة اضطراب النفس، والتخفيف من توترها، فكانت المكان الأنسب للناس في هذا الموقف للجوء والفرار إليه والاحتماء به، ولكن كانت مفاجأة الناس الصادمة، والخذلان الكبير، بأن الجبال ستفتت، ولن تعود مكان الاحتماء والفرار واللجوء الذي اعتادوا عليه سابقًا.

## المرحلة الرابعة (المتغير الرابع): مرحلة بس الجبال.

تمر الجبال بمرحلة البس، في قوله تعالى: ﴿وَبُسَّتِ الْجِبَالُ بَسًّا﴾ (الواقعة:5)، لحظة قيام الساعة، ووقت وقوع الواقعة التي لا يمكن ردها، ولا تكذيبها، فهي واقعة لا محالة، وتتحول الجبال وتتغير على الرغم من ثباتها، وقوتها، وصلابتها، فتُفتت كالدقيق المبسوس، وتصير هباءً منبثًّا.

تفيد مادة (رجج) في قوله تعالى: ﴿**إِذَا رُجَّتِ الأَرْضُ رَجًّا**﴾ (الواقعة:4)، دلالات الضعف والاضطراب واللاوعي والصراخ الذي يكون عليه الناس عند اهتزاز الأرض يوم القيامة، إذ تدل على الضعف والهزال في الجسد والعقل، وتحمل دلالة حركية، ودلالة صوتية تناظر صوت الصيحة، أصوات الناس المختلطة وقتذاك، "فالرَّجاجُ: الْمَهَازِيلُ مِنَ النَّاسِ والإبل وَالْغَنَمِ، وَرِجَالٌ رَجَاجٌ: ضُعَفَاءُ، والرِّجْرِجَةُ مِنَ الْقَوْمِ: الَّذِينَ لَا عَقْلَ لَهُمْ، والرِّجْرِجَةُ: الْجَمَاعَةُ الْكَثِيرَةُ فِي الْحَرْبِ، ورَجَّةُ الْقَوْمِ: اخْتِلَاطُ أَصواتهم، ورَجَّةُ الرَّعد: صَوْتُهُ، والرَّجُّ: التَّحْرِيكُ، مَعْنَى رُجَّتْ: حُرِّكَتْ حَرَكَةً شَدِيدَةً وزُلْزِلَتْ، والرَجْرَجَةُ: الاضطراب"[1].

تدل مادة (بسس) على معنى الخلط والتفتيت والسوق والتفريق والانسياب على الأرض، وهي أشبه بحال الجبال المفتتة يوم القيامة، المنسابة على الأرض رمالًا متحركة تختلط بعضها مع بعض، فتناظر حال الناس المشتتين المتفرقين، المطرودين من رحمة الله، الزاحفين على الأرض خوفًا من الأذى، وتحمل مادة (بسس) دلالة صوتية تتقارب مع صوت الصيحة المرعبة الرادعة، فنقول: "بُسَّتْ، أي: لُتَّتْ وَخُلِطَتْ، وبَسَّ الشيءَ: فَتَّتَه، والبس: صَوْتُ الزَّجْرِ للسَّوْق، فبَسَسْتُها وأَبْسَسْتُها إذا سُقْتَها وزجَرْتها، ويُبِسُّون، أَي: يُسَيِّحُونَ فِي الأَرض، وانْبَسَّ الرجلُ: ذَهَبَ، وبَسَسْتُ المالَ فِي الْبِلَادِ فانْبَسَّ: أَرسلته فَتَفَرَّقَ فِيهَا، والبَسُّ: السَّوْقُ، والبَسُّ: السَّيْرُ الرَّقِيقُ، وبَسَّ الرجلَ: طَرَدَهُ وَنَحَّاهُ، وانْبَسَّتِ الحيةُ: انْسابَتْ عَلَى وَجْهِ الأَرض[2].

نلحظ من مادة (هبو) في قوله تعالى: ﴿**فَكَانَتْ هَبَاءً مُنْبَثًّا**﴾ (الواقعة:6)، أن "الهَباء يُقصد به: التُّرَابُ الَّذِي تُطَيِّرُه الرِّيحُ فَتَرَاهُ عَلَى وُجُوهِ النَّاسِ وجُلُودِهم وَثِيَابِهِمْ يَلْزَقُ لُزوقاً، أو يقصد بالهَبَاء: الغُبار، فقِيلَ: هُوَ غُبارٌ شِبْهُ الدُّخان ساطِعٌ فِي الهَواء، والهَبَاء: دُقاق التُّرَابِ ساطِعُه ومَنْثُورُه عَلَى وَجْهِ الأَرض،

---

[1] ابن منظور: **لسان العرب**. مادة: (رجج).

[2] **المصدر السابق**. مادة: (بسس).

والهَبَاء: الشَّيْءُ المُنْبَثُّ الَّذِي يُرى فِي الْبَيْتِ مِنْ ضَوْءِ الشَّمْسِ شَبيهاً بالغُبار، وَقِيلَ: الهَباء المُنْبثُّ مَا تُثِيره الخَيل بحَوافِرها مِنْ دُقاق الغُبار، والهَابِي مِنَ التُّرَابِ: مَا ارْتفَعَ ودَقَّ، والهَبَاء مِنَ النَّاسِ: الَّذِينَ لَا عُقُولَ لَهُمْ، ونقول: هَبَا الرَّمادُ: اخْتلَطَ بِالتُّرَابِ وهَمَد، وهَبَا: فَرَّ، ومَاتَ، وهَبَا: مَشَى مَشْيًا بَطِيئاً"[1]، فالجبال عند رج الأرض يوم القيامة، فإنها تُبَسّ، فتصير أشبه بالغبار، وهو أقرب للمشهد الذي نعرفه ونراه عند هدم الأبنية اليوم، فردًّا لفعل الإسقاط والهدم، من أعلى إلى أسفل، يرتفع الغبار ويتطاير بعد ارتطام البناء وحجارته بالأرض، فالتحول من جبال إلى هباء وغبار تحولٌ من ارتفاع إلى هبوط، ومن صلب متماسك إلى ضعيف متناثر، وتتواءم دلالة مادة (هبو) مع مشهد اللاوعي الذي يكون عليه الناس يوم القيامة، ومشهد فرارهم من العذاب، ثم موتهم.

تتشابه مادة (بثث) في قوله تعالى: ﴿**فَكَانَتْ هَبَاءً مُنْبَثًّا**﴾ (الواقعة:6)، مع حالة تفريق الناس يوم القيامة بوساطة الصيحة ومطاوعتهم وانتشارهم وتفرقهم إثرها إلى ثلاثة أزواج متجانسة: أصحاب الميمنة، وأصحاب المشأمة، والسابقون المقربون، في قوله تعالى: ﴿**وَكُنْتُمْ أَزْوَاجًا ثَلَاثَةً * فَأَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ مَا أَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ * وَأَصْحَابُ الْمَشْأَمَةِ مَا أَصْحَابُ الْمَشْأَمَةِ * وَالسَّابِقُونَ السَّابِقُونَ * أُولَئِكَ الْمُقَرَّبُونَ**﴾ (الواقعة: 7–11)، وتتقارب مع حالة كشف الأسرار، والاطلاع على الأعمال، والتنبؤ بالمصير، ثم شدة الحزن التي تغمر الكافرين وأصحاب الأعمال السيئة فتظهر على وجوههم، وتتضح في تحركاتهم، وفرارهم بحثًا عن ملجأ، وهو ما يتقابل مع مشهد تفريق الجبال يوم القيامة، والاطلاع على الأرض وهي خالية تمامًا من كل ما عليها، في مظهر مؤسف حزين على العباد، الذين ساء مصيرهم وحالهم، بظلمهم أنفسهم، فنقول: "بَثَّ الشيءَ والخَبَرَ فانْبَثَّ: فَرَّقه فتَفَرَّقَ، وَبَثَّ مِنْهُما رِجالًا كَثِيراً وَنِساءً، أَي: نَشَر وكَثَّر،

[1] ابن منظور: **لسان العرب**. مادة: (هبا).

وبَثَّثْتُ الخَبر، فانْبَثَّ أَي انْتَشَر، والبَثُّ: شدَّة الحُزْن والحالُ والغَمُّ والمرضُ الشديدُ، فيُقَالُ: أَبْثَثْتُك، أَي: أَظْهَرْتُ لَكَ بَثِّي، وأَبْثَثْتُ فُلَانًا سِرِّي، أَي: أَطْلَعْتُه عَلَيْهِ وأَظْهَرْته لَهُ"[1].

ويلفت الانتباه ما سبقت به آية الجبال، من اختيار لفظة الرج للأرض، وليس غيرها من المناظرات، فيقول تعالى: ﴿**إِذَا رُجَّتِ الْأَرْضُ رَجًّا**﴾ (الواقعة:4)، ولم يقل: إذا رجفت رجفًا، أو إذا زلزلت زلزالًا، على سبيل المثال. وأرى أن الرج يحتمل دلالة صوتية تتناسب مع الصيحة الأولى الواقعة، بينما الرجفة تستخدم عند ذكر عذاب قوم ما.

ونلحظ –أيضًا– تخصيص الرج للأرض فقط، وليس للجبال مثلًا، كقوله: ﴿**يَوْمَ تَرْجُفُ الْأَرْضُ وَالْجِبَالُ**﴾ (المزمل:14)، ولم يقل: إذا رجت الأرض والجبال، على الرغم من أن الرج والرجف والزلزال مفردات "تدل على معنى عام مشترك ذكر بأوصاف متعددة، والمراد هو التحرك، والاضطراب الشديد الذي يحدث للأرض في أول مبادئ الآخرة"[2]، وتشترك بمعانٍ لغوية كالحركة، والهدة، والصوت الهائل، والصيحة العظيمة التي تصير القلوب بسببها واجفة مضطربة، فتكشف الزلزلة عن صيرورة مضمرة؛ لأن اضطراب الأرض إخراج ما فيها كما اضطربت لموت الأحياء، فالناس في هلع وخوف بعد أن كانوا مطمئنين لاهين في حياتهم، وتتجلى معاني التغير في صور الأرض قبل الزلزلة وبعدها، حينما تحرك تحريكًا شديدًا، حتى يخيل للناس أنها خرجت من حيزها، وأزيلت من مكانها، بعد أن كانت كفاتًا لهم.[3]

وتدل مادة (رجج) على معان متعددة، كالضعف والهزال، واللاوعي، والتحريك، والاضطراب، وتحمل دلالة صوتية، كما بينت سابقًا، بينما تدل مادة (رجف) على معنى الإسراع والخفق والزلزلة

---

[1] ابن منظور: **لسان العرب**. مادة: (بثث).

[2] المفلح، لولوة: **وصف حال الأرض يوم القيامة كما جاء في القرآن الكريم (دراسة تحليلية موضوعية)**. مجلة جامعة أم القرى لعلوم الشريعة والدراسات الإسلامية، ع:49، محرم/ 1431هـ، ص:186.

[3] ينظر: سلمي، كفاح فخري: **التحول والصيرورة في الظواهر الكونية في القرآن الكريم "الفعل جاء ونظائره أنموذجًا"، دراسة بلاغية**. (رسالة ماجستير)، إشراف: عمر عتيق. كلية الدراسات العليا، منشورات جامعة القدس المفتوحة، فلسطين، 2022م، ص:66.

الشديدة، والاضطراب الشديد من الجزع، فتحمل في داخلها دلالة الخوف والارتعاش، كما بينت في مرحلة سابقة، أما مادة (زلزل) فتطلق على التحريك والتخويف والتحذير، وعلى الزلزلة الشديدة والخفيفة، وتؤكد المعاني اللغوية لمادة (زلزل) على الهول العظيم، والمصاب الشديد الذي سيحل بالأرض من شدة وحركة عظيمة تصيبها وتزيلها، فيقع الخوف والفزع في قلوب الناس.[1]

**ومقارنة مع المرحلة الأولى (رجف الأرض والجبال)، أزعم أن تخصيص الرج بذكر الأرض فقط، هو تركيز على المشهد الكلي من بعيد**، ولتقريب الفكرة أمثلها بالمصور، فحين يود تحريك عدسات كاميرته، يقربها ويبعدها حسبما يريد، فعندما يريد الدقة والتركيز على أمر معين، يستمر بتقريبها حتى تصل إلى المشهد المخصص الذي يرغب بتصويره، بينما عندما يريد تصوير المشهد بكليته، يذهب بعدسته بعيدًا فيتوسع نطاقها، فتصور القدر الأكبر المراد من المشهد المراد، وتدل آية رج الأرض على تسليط النظر والتركيز، فالاهتمام هنا للأرض فقط، فالحركة يراها من هو خارج الأرض، من يستطيع أن يرى الأرض كاملة، وهذا يبرز الحدث الأكبر، أي: **إن الصورة تركز على المشهد الأكبر**، بينما، عند تأمل آية رجف الأرض، نجد الرجف يشمل الجبال أيضًا، **فكأن المشهد المراد، هو المشهد الداخلي**، فرجفة الأرض يشعر بها من عليها، ويرى رجفة الجبال واهتزازها من يشاهدها عن قرب، فيجري تركيز العدسة على صورة المشهد الداخلي، لمن هو فوق الأرض ممن يسكنها. أو قد تأخذ معنى مماثلًا آخر، فتتحرك الصورة أو العدسة من البعيد إلى القريب، من رج الأرض إلى بس الجبال، فتتكون بذلك **ثنائية البعد والقرب**.

ويؤيد هذه الفكرة ما ستؤول إليه الجبال، إذ ستتحول إلى شيء ضعيف جدًّا، في قوله: ﴿**فَكَانَتْ هَبَاءً مُّنۢبَثًّا**﴾ (الواقعة:6)، وهو ما تراه العيون خلال شعاع الشمس عند تدقيق النظر، فتُرى أجسامًا متتابعة،

---

[1] ينظر: سلمي: **التحول والصيرورة في الظواهر الكونية في القرآن الكريم "الفعل جاء ونظائره أنموذجًا"، دراسة بلاغية**. ص:65.

غير متصلة مع بعضها، منتشرة في الهواء، بينما لو زال شعاع الشمس فلا يمكن رؤيتها، وهي أجسام أدق من الغبار. "فالهَباءُ: ما يَلُوحُ في خُيُوطِ شُعاعِ الشَّمْسِ مِن دَقِيقِ الغُبارِ"[1]، "وهو كائِناتٌ جِسْمِيَّةٌ دَقِيقَةٌ لا تُرى إلّا في أشِعَّةِ الشَّمْسِ المُنْحَصِرَةِ في كُوَّةٍ ونَحْوِها، تَلُوحُ كَأنَّها سابِحَةٌ في الهَواءِ وهي أدَقُّ مِنَ الغُبارِ"[2]، ونلحظ وصف الهباء بالمنبث وليس بالمنثور، إذ إن السياق ليس سياق تناثر وتفريق فقط، وإنما سياق **تجانس وتصنيف**، فكأن هذه الكائنات الدقيقة غير المتماسكة غير المتصلة ببعضها، تتجانس مع بعضها، فتسبح وتسير بنظام في خط شعاع الشمس بصورة مترابطة، ونجد الصورة تتركز على حال الناس يوم القيامة بمجموعهم، فيركز السياق على تصنيفهم، وتقسيمهم، من حيث تجانسهم إلى مجموعات ثلاث فقط، فلا يكون التركيز على الشخص بمفرده، وإنما على المجموعة كلها، فيتقابل مع التركيز على الجبال المبسوسة المختلط كل منها مع ما يناسبه، وتحولها إلى هباء منبث متجانس، وعلى تصوير الأرض كلها من الخارج، وتخصيصها وحدها بالرج في قوله: ﴿**إِذَا رُجَّتِ ٱلۡأَرۡضُ رَجّٗا**﴾ (الواقعة:4)، فتكون صورة عامة شاملة للكل وليس للجزء.

ويرتبط انقسام الناس، وتصنيفهم، وتجانسهم، واختلاط المتشابهين منهم بعضهم مع بعض، مع بس الجبال، ورج الأرض، وعميلتي الخفض والرفع، فالواقعة تؤدي إلى خفض ورفع، دون تحديد ما يخفض وما يرفع، والخفض والرفع حركتان متعاكستان، "والوقعة والوقيعة: الحرب والقتال"[3]، فإذا اختلط الجيشان بدأت المعركة، ورج الأشياء حركة مستمرة إلى أن تصل إلى حالة من التجانس، والرج اختلاط لتكوين مادة متجانسة، والبسّ حركة مستمرة تفرق الأشياء إلى أن تتجانس وتختلط مع بعضها بطريقة

---

[1] ابن عاشور: **التحرير والتنوير**. ج:27، ص:284.

[2] **المرجع السابق**. ج:19، ص:8.

[3] ابن منظور: **لسان العرب**. مادة: (وقع).

ما، فنقول: "يَبُسُّه بَسًّا: خَلَطَهُ، وبُسَّتْ: لُتَّتْ وَخُلِطَتْ، وبَسَّ الشيءَ إذا فَتَّتَه، والبَسُّ: الحَطْمُ"[1]، فالخفض والرفع والرجّ والبسّ عمليات حركية تعمل على خلط الأشياء؛ وصولًا إلى تجانس.

يدل رج الأرض وبس الجبال على ضعفهما أمام الواقعة الخافضة الرافعة، فتظهر الأرض شيئًا يحرك ببساطة وسهولة، والجبال تبس كما يبس الدقيق الخفيف المتفرق، بل تتحول إلى هباء منبث، فيدل على انتقالهما من قوة إلى ضعف ووهن عظيمين، فلا يساويان شيئًا، وحين ترج الأرض يرج ما عليها كله، فيرج الناس جميعهم، "والرِّجَاجُ من الناس: هم الضِّعَاف المهازيل منهم"[2]، فيفهم من السياق حال الناس وضعفهم عند وقوع الواقعة، ورج الأرض التي يسيرون عليها.

## المرحلة الخامسة (المتغير الخامس): مرحلة تسيير الجبال.

تغيرت صورة الجبال الثابتة العظيمة في قوله تعالى: ﴿**وَسُيِّرَتِ الْجِبَالُ فَكَانَتْ سَرَابًا**﴾ (النبأ:20)، فجاءت متحولةً إلى حالة أخرى، فثبّت الجبال مثل المراحل الأربع السابقة، وتغيرت الصورة التي ستؤول إليها الجبال في هذه المرحلة، إذ ستتحول إلى سراب.

تبدأ سورة النبأ بتهيئة نفسية ذهنية لحدث كوني عظيم، في قوله تعالى: ﴿**عَمَّ يَتَسَاءَلُونَ * عَنِ النَّبَإِ الْعَظِيمِ**﴾ (النبأ:1-2)، إذ افتتحت بالاستفهام الذي يفيد التَشْوِيقِ ثُمَّ التَهْوِيلِ لِما سَيُذْكَرُ بَعْدَهُ،[3] فعملَ الخطابُ البلاغي بوساطة الاستفهام، على شد انتباه المتلقي لمضمون الخطاب.[4] أما النبأ العظيم، فهو يعني التحولات الكونية في غالبية آيات السورة، والنبأ هو "المعلومة التي تحتمل الحقيقة والوهم"[5]، ولذلك

---

[1] ابن منظور: **لسان العرب**. مادة: (بسس).

[2] **المصدر السابق**. مادة: (رجج).

[3] ابن عاشور: **التحرير والتنوير**. ج:30، ص:6.

[4] ينظر: صديق، مازن موفق: **الخطاب البلاغي وسياقات الدلالة القرآنية دراسة في سورة النبأ**. مجلة التربية والعلم، كلية التربية للبنات، جامعة الموصل، مج:17، ع:4، 2010م، ص:122.

[5] شحرور، محمد: **دليل القراءة المعاصرة للتنزيل الحكيم، المنهج والمصطلحات**. ط:1، مكتبة الفكر الجديد، دار الساقي، لبنان، 2016م، ص:56.

جاء التوكيد اللفظي في قوله تعالى: ﴿**كَلَّا سَيَعْلَمُونَ * ثُمَّ كَلَّا سَيَعْلَمُونَ**﴾ (النبأ:4-5)، نفيًا لأي شك أو ريبة أو تعجب أو استغراب للتحولات الكونية التي ستذكر، وأمثل بالجبال التي كانت في الحياة الدنيا أوتادًا، وستتحول إلى سراب يوم القيامة.

تمر الجبال بمراحل زوالها الأربع، من رجف ونسف وتفتت وبس، فتتحول إلى كثبانٍ رمليةٍ مهيلةٍ، وأرضٍ قاعٍ صفصفٍ مستويةٍ، وعهنٍ منفوشٍ متطايرٍ، وهباءٍ منبثٍّ، فتصل إلى مرحلة جديدة، هي مرحلة التسيير، و"التَّسْيِيرُ: جَعْلُ الشَّيْءِ سائِرًا"[1]، أي تنتقل من حالة إلى حالة، ومن هيئة إلى هيئة، مختلفة عما كانت عليه من قبل، فنجدها تتحول إلى سراب يُرى ويُخَيَّل من بعيد، وعند الوصول إليه، لا يُرى شيئًا.

**ونجد مادة (سير) تشتمل على** معاني **الذهاب، والزوال، والإخراج والإجلاء والإبعاد، والامتداد، والرُّفْقَةِ والْجَمَاعَةِ**، "فالسَّيْرُ: الذهاب، وسارَ القومُ: امتدّ بهم السَّيْرُ في جهة توجهوا لها، وتَسايَرَ عنه الغَضَبُ، أَي: سارَ وزال، وسَيَّرَهُ من بلده: أَخرجه وأَجلاه، والسَّيَّارَةُ: الْقَوْمُ يَسِيرُونَ، وسائِرُ النَّاسِ: جَمِيعُهم"[2].

وتدل مادة (سَرَبَ) **على الذهاب، والخروج، والظهور، والخفاء،** و**الجماعة**، فنقول: "سَرَب: خَرَجَ، وسَرَبَ في الأَرضِ: ذَهَبَ، والساربُ: الظاهرُ والخَفيُّ، والسِّرْبُ والسُّرْبةُ: القَطيعُ، والسُّرْبةُ: جماعة يَنْسَلُّونَ من العَسْكَرِ، فيُغيرون ويَرْجعُون، والسُّرْبة: الجماعة من الخيلِ"[3].

وتلتقي دلالات المادتين (سير)، و(سرب)، مع ذكر الأفواج، في قوله: ﴿**يَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ فَتَأْتُونَ أَفْوَاجًا**﴾ (النبأ:18)، الدالة على إتيان الناس يوم القيامة وخروجهم عند البعث جماعات، وهو ما

---

[1] ابن عاشور: **التحرير والتنوير**. ج:30، ص:33.
[2] ابن منظور: **لسان العرب**. مادة: (سير).
[3] **المصدر السابق**. مادة: (سرب).

ذكر في مرحلة بس الجبال، من تجانس للناس، أصحاب الأوزان المتقاربة، وانقسامهم إلى ثلاث مجموعات، ففي هذه المرحلة تكون حركتهم جماعية، ولكن بأفواج.

تتجلى ثنائية **الحقيقة والخيال** في السياق، وتلتقي مع ثنائية **الثبات والتغير** في صورة **الجبال المتحولة سرابًا**، فالجبال الحقيقية المادية المحسوسة، تتحول إلى صورة سراب متخيلة، فالجبال التي تُرى من بعيد ومن قريب، تصير سرابًا يُتخيل ويُرى من بعيد، وعند الاقتراب منه لا يُرى. وتتشابه رؤية الناس لأعمالهم يوم القيامة، مع رؤية الجبال والسراب، فمنهم من كانت أعماله كالجبال ضخامةً، فيأتي يوم القيامة، بلا أعمال، ولا ثواب؛ لريائه، وعدم إخلاصه.

تقوم ثنائية الجبال والسراب بدور حيوي فاعل، فالسراب يلغي وجود الجبال ويرفضها، فتُبنى مفارقة تصويرية ضخمة طرفها الأول: الجبال برمزيتها على الثبات والصلابة والقسوة، وطرفها الثاني: السراب برمزيته على الوهم والخداع، فيضع منطق المفارقة والتناقض بين اللفظتين طرفي الثنائية في لوحة واحدة.[1]

ويمكن أن نشير إلى ثنائية أخرى، تؤيد ثنائية **الثبات والتغير** في صورة **الجبال المتحولة سرابًا**، هي ثنائية **البرودة والحرارة**، فالجبال تتسم ببرودتها، بينما السراب يتسم بالحرارة، "فالسراب هواء تسخنت طبقته السفلى التي تلي الأرض لتسخن الأرض من حر الشمس فتخلخلت وصعد جزء منها إلى ما فوقها من الطبقات فكان أكثف مما تحته وخرج بذلك التسخن عن موقعه الطبيعي من الأرض ولانعكاس الأشعة الضوئية وانكسارها فيه على وجه مخصوص مبين في الكتاب المذكور مع انعكاس لون السماء يظن ماء وترى فيه صورة الشيء منقلبة، وقد ترى فيه صور سابحة كقصور وعمد ومساكن جميلة مستغربة وأشباح سائرة تتغير هيئتها في كل لحظة وتنتقل عن محالها ثم تزول وما هي إلّا صور حاصلة من

[1] ينظر: دراغمه، سناء: **الأسلوبية البنيوية في القرآن الكريم "السماء، الأرض، الجبال أنموذجًا"**. إشراف: عمر عتيق. كلية الدراسات العليا، منشورات جامعة القدس المفتوحة، فلسطين، 2018م، ص:184.

انعكاس صور مرئية بعيدة جدًّا أو متراكبة في طبقات الهواء مختلفة الكثافة"[1]، "والسَّرابُ: ما يَلُوحُ في الصَّحارِي مِمّا يُشْبِهُ الماءَ ولَيْسَ بِماءٍ، ولَكِنَّهُ حالَةٌ في الجَوِّ القَرِيبِ تَنْشَأُ مِن تَراكُمِ أبْخِرَةٍ عَلى سَطْحِ الأرْضِ"[2].

ويؤكد **السياق الناري** هذه الثنائية، إذ إن جهنم تكون مرصادًا ومآبًا للطاغين، فلا يذوقون فيها بردًا ولا شرابًا، إلا حميمًا وغساقًا، في قوله: ﴿**إِنَّ جَهَنَّمَ كَانَتْ مِرْصَادًا * لِلطَّاغِينَ مَآبًا * لَابِثِينَ فِيهَا أَحْقَابًا * لَا يَذُوقُونَ فِيهَا بَرْدًا وَلَا شَرَابًا * إِلَّا حَمِيمًا وَغَسَّاقًا**﴾ (النبأ:21-25)، ويمكن تخيل صورة الطغاة الجبابرة الذين وصل طغيانهم ذروته، فكان طغيانهم كعظمة الجبال وضخامتها، فيكون مصيرهم النار، والحميم والغساق، فلا يذوقون بردًا ولا شرابًا، فتلتقي مع صورة من وقع في السراب، في صحراء حارة، يبحث عن الماء، فلا يجده، فيظل لاهثًا عطشًا. ويشبه الرَّجُلُ العَطْشانُ، الكافِر صاحِب العَمَلِ، فمَجِيءُ الظَّمْآنِ إلى السَّرابِ يَحْصُلُ بِوُصُولِهِ إلى مَسافَةٍ يُقَدِّرُها بالماءِ بتحديده بشيء ما. فَعندما يبلغ مكان تَوَهّم وُجُود الماءِ لَا يَجِد الماءَ، فَيتبين أن ما ظهر له وهم وسَرابٌ. فَضَرَبَ ذَلِكَ مَثَلًا لِقُرْبِ زَمَنِ إفْضاءِ الكافِرِ إلى عَمَلِهِ وقْتَ مَوْتِهِ أوْ في وقْتِ الحَشْرِ، إذ لا يَجِد ما كانَ يُخَيَّلُ إلى عَيْنِهِ أنَّهُ ماءٌ.[3]

اكتشف العلم الحديث أهمية الجبال للأرض، فهي لا تستقر، ولا تطمئن إلا بارتفاع الجبال وظهورها على سطحها، فللجبال أوتاد وجذور عميقة كلما ازداد ارتفاع الجبال ازداد عمق جذوره في داخل الأرض، إذ لاحظ العلماء علاقة الجبال بتوازن الأرض، فبقدر ما يكون النقص واضحًا في الكتل، تزداد أهمية الجبل وحجمه، والعكس صحيح، فالجبال تثبت الأرض، وتمنحها التوازن، وتمنعها من

---

[1] الألوسي: **روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني**. ج:15، ص:213.

[2] ابن عاشور: **التحرير والتنوير**. ج:30، ص:33.

[3] ينظر: **المرجع السابق**. ج:18، ص:253.

الميدان والاهتزاز.[1] "فالجبل له جذر يخترق طبقات الأرض، ويمتد تحت سطح الأرض حتى يصل إلى طبقة الغطاء (السيما)، وهذا الجذر يعادل من (5–10) أضعاف ارتفاع الجبل فوق سطح الأرض"[2]. وانطلاقًا من علاقة الجبال بالأرض، تتشكل **ثنائية دلالية كونية** في قوله تعالى: ﴿**أَلَمْ نَجْعَلِ الْأَرْضَ مِهَادًا * وَالْجِبَالَ أَوْتَادًا**﴾ (النبأ:6–7)، مع صورة الجبال، فالجبال التي كانت مصدر تثبيت للأرض وحمايتها، من خلال قيامها بدور الأوتاد للأرض، تتحول إلى مصدر إهلاك للأرض واهتزاز وزلزلة لها، يوم القيامة، عندما تتحول إلى سراب، أي: إلى لا شيء، فتمثل الجبال **ثنائية التثبيت والإهلاك، أو ثنائية الوتد والسراب**. ويجسد قوله تعالى: ﴿**وَبَنَيْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعًا شِدَادًا * وَجَعَلْنَا سِرَاجًا وَهَّاجًا**﴾ (النبأ:12–13)، وقوله: ﴿**وَفُتِحَتِ السَّمَاءُ فَكَانَتْ أَبْوَابًا**﴾ (النبأ:19)، تحولًا كونيًّا سماويًّا، يمهد للتحول الكوني الأرضي، إذ تتحول السماوات المبنية في الدنيا والسراج الوهاج إلى أبواب مفتوحة يوم القيامة، فتتقابل مع تحول الجبال إلى سراب يوم القيامة.

---

[1] ينظر: شلبي، هند: **التفسير العلمي للقرآن الكريم بين النظريات والتطبيق**. الكلية الزيتونية للشريعة وأصول الدين، تونس، 1985م، ص:119–120. (رفع المساهم)

[2] الصوفي: **الموسوعة الكونية الكبرى**. ج:9، ص:74.

# الفصل الثاني: الثبات والتغير في صورة الإنسان.

## المبحث الأول: الصورة السيكولوجية للإنسان.

## المبحث الثاني: الثنائية الدلالية للإنفاق عند المؤمنين والكافرين.

## المبحث الثالث: البعد النفسي للبخل.

## المبحث الأول: الصورة السيكولوجية للإنسان.

### مدخل.

### أولًا: سيكولوجية الإنسان الغافل المسرف.

### ثانيًا: سيكولوجية الإنسان العنيد.

### ثالثًا: سيكولوجية جنون العظمة.

# المبحث الأول: الصورة السيكولوجية للإنسان.

## مدخل.

منح الله –سبحانه وتعالى– النفس الإنسانية حرية الاختيار بين الطريق القويم الذي ارتضاه لها؛ لتحقيق الهدف من خلقها، أو اختيار طريق الضلال، وألهمها سبيل الخير والشر، فألهمها جانب الفجور، وجانب التقوى، وبين أن الفجور يقود إلى الابتعاد عن النهج الإلهي المنير، الذي يؤدي إلى كل ما فيه شر للإنسان، وأن التقوى تقود الإنسان للطريق الإلهي المستقيم، الذي يؤدي إلى كل ما فيه خير للإنسان.[1]

يسعى القرآن الكريم إلى الارتقاء بالنفس الإنسانية بالتحذير من نوازعها الشاذة التي تصيب الفرد، وتؤدي إلى الانحطاط، كالأمراض النفسية، مثل: الاعتزاز بالملهيات والشهوات، وغيرها، فقام المنهج القرآني بتربية النفس الإنسانية، على الأسلوب الوقائي، وتهيئة الأمور من باب التخلية ثم التحلية.[2]

تعد النفس الإنسانية مصدرًا أساسًا للسلوك الإنساني، فهي المسؤولة عن دفعه وتحريكه، إذ تتحكم بالسلوك الإنساني الملكاتُ العقليةُ، كالتفكير، والإرادة، والتعلم، والانتباه، والتذكر، والتحليل، والانفعالاتُ الوجدانية، كالإحساس باللذة، أو الألم، أو الفرح، أو الحزن، أو الخوف، أو الغضب، وغيرها. فالنفس مستودع الدوافع السلوكية، والإنسان مسؤول عن سلوكاته كلها، وأوضح الله تعالى أن الإنسان

---

[1] ينظر: العياصرة، وليد رفيق محمد: **مفهوم النفس في القرآن الكريم وانعكاساته على المنهاج التربوي في المجتمع المسلم**. المجلة الدولية للدراسات التربوية والنفسية، مركز رفاد للدراسات والأبحاث، مج:1، ع:3، يونيو، 2017م، ص:378–380.

[2] ينظر: الهميسى، عماد: **سيكولوجية النفس الإنسانية والتهذيب القرآني**. مجلة مداد، إفريقية للدراسات والتوثيق والنشر، مج:3، ع:5، 2021م، ص:197.

شديد الانفعال، متطرف العواطف، والإيمان بالله هو السبيل لإعادة الإنسان إلى اتزانه واعتداله، فيبتعد سلوكه عن التعصب والتطرف.[1]

تصيب النفس الإنسانية أمراض نفسية، فتؤثر على تصرفاته، ومسيرته، وتفاعله، وتؤدي إلى فساد المجتمعات، وتصعب السيطرة عليها في حال انتشارها، فهي أشد فتكًا بآلاف المرات من الأمراض الجسمية، ومثلما يكون للجسد صحة، ومرض، وعلاج، فإن للنفس الإنسانية صحةً ومرضًا، وسقمًا وسلامة، وعلاجًا ومعالجًا، فصحة النفس وسلامتها بالاعتدال في طريق الإنسانية، أما أمراض النفس فعلاجها التخلية والتحلية.[2]

تبرز الحالة النفسية للإنسان عند حاجته لأمر ما، وتتغير سلوكاته، ويركز القرآن الكريم على وقوع الضرر على الإنسان، واختلاف ردة فعله في أثناء الدعاء وبعده، وتأتي ثنائية الثبات والتغير في الصورة السيكولوجية للإنسان، فيكون الثابت الإنسان، والمتغير سلوك الإنسان في أثناء الدعاء وسلوكه بعد إجابة الدعاء، كقوله تعالى: ﴿**وإذا مَسَّ الإنسانَ الضُّرُّ دَعانا لِجَنْبِهِ أوْ قاعِدًا أوْ قائِمًا فَلَمّا كَشَفْنا عَنْهُ ضُرَّهُ مَرَّ كَأنْ لَمْ يَدْعُنا إلى ضُرٍّ مَسَّهُ كَذَلِكَ زُيِّنَ لِلْمُسْرِفِينَ ما كانُوا يَعْمَلُونَ**﴾ (**يونس**:12)، وقوله: ﴿**وإذا مَسَّ الإنسانَ ضُرٌّ دَعا رَبَّهُ مُنِيبًا إلَيْهِ ثُمَّ إذا خَوَّلَهُ نِعْمَةً مِنهُ نَسِيَ ما كانَ يَدْعُو إلَيْهِ مِن قَبْلُ وجَعَلَ لِلَّهِ أنْدادًا لِيُضِلَّ عَنْ سَبِيلِهِ قُلْ تَمَتَّعْ بِكُفْرِكَ قَلِيلًا إنَّكَ مِن أصْحابِ النّارِ**﴾ (**الزمر**:8)، وقوله: ﴿**فَإذا مَسَّ الإنسانَ ضُرٌّ دَعانا ثُمَّ إذا خَوَّلْناهُ نِعْمَةً مِنّا قالَ إنَّما أُوتِيتُهُ عَلى عِلْمٍ بَلْ هي فِتْنَةٌ ولَكِنَّ أكْثَرَهم لا يَعْلَمُونَ**﴾ (**الزمر**:49).

---

[1] ينظر: شواشرة، عاطف، وبني عطا، سهاد بنت عبد الله إبراهيم: **طبيعة النفس البشرية في مرحلة التكليف في ضوء القرآن الكريم**. مجلة جامعة النجاح للأبحاث، العلوم الإنسانية، جامعة النجاح الوطنية، مج:24، ع:1، 2010م، ص:7-8.

[2] ينظر: شكر، حسن محمود: **الصحة النفسية في القرآن الكريم: دراسة تحليلية**. مجلة الأطروحة للعلوم الإنسانية، دار الأطروحة للنشر العلمي، س:3، ع:9، 2018م، ص:40-41.

## أولًا: سيكولوجية الإنسان الغافل المسرف.

جسدت الصورة المتغيرة ثنائية سلوك الداعي للخلاص من الضر والأذى، في قوله تعالى: ﴿**وإذا مَسَّ الإنسانَ الضُّرُّ دَعانا لِجَنْبِهِ أوْ قاعِدًا أوْ قائِمًا فَلَمّا كَشَفْنا عَنْهُ ضُرَّهُ مَرَّ كَأنْ لَمْ يَدْعُنا إلى ضُرٍّ مَسَّهُ كَذَلِكَ زُيِّنَ لِلْمُسْرِفِينَ ما كانُوا يَعْمَلُونَ**﴾ **(يونس**:12)، فتوزعت ثنائية السلوك على تصوير أحوال الداعي (الاضطجاع على الجنب، والجلوس، والانتصاب) في حالة ملازمة المرض أو الأذى له، وعلى سلوكه حينما يكشف الله عنه الضر.

تبين الآية الكريمة أحوال الإنسان عند إصابته بالضر وملازمة الأذى له، ويظهر من لفظة الضر المُعرّفة أن هذا الضر معروف، فهو مرئي محسوس، أو حركي، بدليل حالات هيئة الإنسان (الاضطجاع على الجنب، والجلوس، والانتصاب) التي تجسد دلالة حركية عند وقوع الضر له، فالإنسان يدعو الله نتيجة وصوله إلى حالة النوم والاستلقاء الإجباري على الجنب، فهي حالة ليست بإرادته، فهو مجبر عليها لشدة الضر الذي حصل له، أو يدعو الله نتيجة وصوله لحالة الجلوس الإجباري، فهو غير قادر على الوقوف والقيام بأموره وتدبيرها كما يجب، أو يدعو الله نتيجة وصوله إلى حالة القيام والوقوف الإجباري، فيكون غير قادر على المشي، فدعاؤه نتيجةٌ لوصوله إحدى الحالات الثلاث.

تتعالق دلالات حالات الإنسان الحركية (الجنب والقعود والقيام) مع معنى الضر، فترتبط دلالة **مادة (جنب)** بمعنى الشر والضر والأذى: "فجُنِب الرَّجُلُ: شَكا جانِبَه، وضَرَبَه فجنَبَه، أَي: كسَرَ جَنْبَه أَو أَصاب جَنْبَه، وَرَجُلٌ جَنِيبٌ كأَنه يَمْشِي فِي جانِبٍ مُتَعَقِّفًا، وَيُقَالُ: جَنَبْتُه الشَّرَّ وأَجْنَبْتُه وجَنَّبْتُه، بِمَعْنًى وَاحِدٍ"[1]، وتدل **مادة (قعد)** على معنى الداء والضر والإعاقة، "فالقُعُودُ: نقيضُ القيامِ، وتَقَعَّدْتُه أَي: رَبَّثْتُه عَنْ حَاجَتِهِ وعُقْتُه، وأُقْعِدَ الرجلُ: لَمْ يَقْدِرْ عَلَى النُّهُوضِ، وَبِهِ قُعاد، أَي: دَاءٌ يُقْعِدُ، وَرَجُلٌ مُقْعَدٌ إِذا أَزمنه

[1] ابن منظور: **لسان العرب**. مادة: (جنب).

دَاءٌ فِي جَسَدِهِ حَتَّى لَا حراكَ بِهِ، والمُقْعَد الَّذِي لَا يَقْدِر عَلَى الْقِيَامِ لزَمانة بِهِ كأَنه قَدْ أُلزِمَ القُعُودَ، والمُقْعَدُ: الأَعوج"[1]، وتدل **مادة (قام)** على معنى الضر والوجع وثباته، "فُلَانٌ لَا يَقُوم بِهَذَا الأَمر أَيْ لَا يُطِيق عَلَيْهِ، وَكُلُّ مَا أَوْجَعَك مِنْ جسَدِك فَقَدْ قَامَ بِكَ، وقَامَ بِي ظَهْري، أَي: أَوْجَعَني"[2]. ويتبين من العلاقات الدلالية التجاورية بين الألفاظ المتجاورة: (لجنبه) و(قاعدًا) و(قائمًا) في الآية الكريمة، أنها تعاونت واتحدت في أداء معنى الضر المشترك بينها، فتعالقها واشتباكها أدى إلى رسوخ المعنى وثباته عند المتلقي، وهو ما لا نجده عند استخدام النظائر الدلالية الأخرى للاضطجاع والجلوس والقيام، أي إن المحور الأفقي تكون من جسر متماسك من الألفاظ والدلالات التي أدت للوصول إلى الهدف المطلوب، الذي لا يمكن لأي بديل من البدائل الأخرى في المحور الرأسي لتلك الألفاظ أن يسد مسد إحدى مكونات الجسر الدلالي المتكون في الآية الكريمة.

**ونلحظ أن الآية بدأت في ترتيب الحالات الثلاث من الحالة الأسوأ** (الاضطجاع على الجنب)؛ لإنها الحالة التي لا بد من الدعاء عند الوصول إليها، فكأنه استحالَ الشفاءُ بعدَها، فيكون الإنسان شارف على الانتهاء، فمهما كان هذا الإنسان جبّارًا أو عنيدًا أو ملحدًا، أو مشركًا، ستؤول به الحال إلى الدعاء، فطلب الإنسان الشفاء والدعاء عند الوصول إلى هذه الحالة أكثر، أما في الحالتين الأخريين، فمن الممكن أن يكابر الإنسان أو يعاند أو يتجبر أو ينسى أو لا يكترث أو يصبر، فلا يدعو الله لكشف الضر عنه، فأزعم أنه بدأ بالأكثر والمتوقع بدرجة أكبر.

أعتقد أن ضمير المتكلمين (نا) في (دعانا) يدل على العظمة في هذا السياق؛ ليتناسب مع شدة سوء الحال، فلا يمكن لأحد سوى العظيم القادر على كل شي أن يكشف هذا الضر فقط، هذا الضر الذي لا أمل من الشفاء منه، الضر الميؤوس منه، فهو مستلقٍ على جنبه بإجبار، وبدون إرادته، هذا

---

[1] ابن منظور: **لسان العرب**. مادة: (قعد).

[2] **المصدر السابق**. مادة: (قوم).

الضر العظيم لا ينفع معه ولا يزيله ويكشفه سوى الإله العظيم، فناسب (نا) العظمة مع هذا الضر العظيم.

**يبرز التغير في ثنائية سلوك الداعي للخلاص من الضر في الآية الكريمة، في سلوك الإنسان حينما يكشف الله عنه الضر**، ﴿**فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُ ضُرَّهُ مَرَّ كَأَنْ لَمْ يَدْعُنَا إِلَى ضُرٍّ مَسَّهُ كَذَلِكَ زُيِّنَ لِلْمُسْرِفِينَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ**﴾ (**يونس**:12)، ولكن، وللأسف، عندما يكشف الله الضر عن هذا الإنسان، فإنه يمشي ويسير ويمر دون أن يكترث بأحد، بل إنه أشبه بمن **يجتاز** مرحلة فقط، مرحلة ذات بداية ونهاية (وقوع الضر وكشف الضر)، وهو ما توحي به **مادة (مرر)** في الآية الكريمة، "فمرّ: اجتاز، والممر: موضع المرور، والمرة الواحدة المَرّ والمِرار، والمرّة: الفعلة الواحدة"[1]، فكأن هذا الضر مرحلة مؤقتة في حياته انتهت باجتيازه لها، فهي أشبه بالممر الذي تصل إلى طرفه الآخر فتنهيه وتجتازه، وتتناسب دلالة **مادة (مرر)** في الآية الكريمة مع دلالة **الضر والأذى والشر** "فالمَرَارَةُ: ضِدُّ الحلاوةِ، والمُرُّ نَقِيضُ الحُلْو، وفلان ما يُمِرُّ وما يُحلي، أي: ما يضر ولا ينفع، ولقيت الأمرّين، أي: الشر والأمر العظيم"[2]، وتتناسب أيضًا مع **دلالة الشفاء والصحة والقوة التي يعود إليها الإنسان بعد انتهاء الضر**، "فالمُر: دواء، والمِرَّةُ الْقُوَّةُ وَشِدَّةُ الْعَقْلِ أَيضًا، وَرَجُلٌ مَرِيرٌ، أَي: قَوِيٌّ ذُو مِرّة"[3]، فهذا الداعي لا يكترث إلا لنفسه، يسير سيرًا سريعًا، ولا يكترث للدعاء الذي دعاه، فما حاجته للدعاء إذا ما انتهت حاجته له؟! وما حاجته للإله بعد أن عادت له صحته وقوته؟! والأدهى والأمرّ من كل ذلك، أنه لا يشكر، ولا يحمد الله على كشف الضر، بل يتوقف عن الدعاء، فكأن الدعاء يظل محصورًا لديه في حالة الضر، وكأن الإله هو إله لكشف الضر فقط، لا يذكره إلا في حالات الضر، والضيق، والمرض.

---

[1] ابن منظور: **لسان العرب**. مادة: (مرر).

[2] **المصدر السابق**. مادة: (مرر).

[3] **المصدر السابق**. مادة: (مرر).

يتناسب حال الداعي الذي عاد إلى غفلته في قوله: ﴿**مَرَّ كَأَنْ لَمْ يَدْعُنا**﴾ **(يونس:**12)، **مع سياق الغافلين** في آية سابقة من السورة نفسها في قوله: ﴿**إِنَّ الَّذِينَ لا يَرْجُونَ لِقاءَنا ورَضُوا بِالحَياةِ الدُّنيا واطْمَأَنُّوا بِها والَّذِينَ هم عَنْ آياتِنا غافِلُونَ**﴾ **(يونس:**7)، فهم الذين رضوا بالحياة الدنيا واستمتعوا بها، فلا يحبون الموت ولا يرغبون بذكره، بدليل أنه نعتهم بقوله: ﴿**الَّذِينَ لا يَرْجُونَ لِقاءَنا**﴾ **(يونس:**7)، فلم يذكر الموت بلفظه، فهم لا يطيقون سماع كلمة (الموت)، فهذا الذي غفل عنا تذكرنا وقت الشدة والمرض، عاد لغفلته بعد أن كشف عنه الضر، أي إن ثنائية الثبات والتغير تكمن في ثبات دعوة الإنسان ربه وقت الشدة والضيق، وتغيره بنسيان ما كان عليه في حال الدعاء.

ويعد السياق الحاضنة اللغوية والرحم الذي تتخلق فيه الدلالات، فالمعنى في اللفظة المفردة يبقى عائمًا على سطح الدلالة،[1] إذ ترتبط ثنائية الثبات والتغير في الدعاء وقت الضر، ونسيان الدعاء عند كشفه، بواقع الإنسان، إذ يشير هذا الطبع في النفس الإنسانية إلى ما يحدث في العلاقات الاجتماعية في الغالب، فصاحب الحاجة يتودد ويتقرب من غيره حتى تنقضي حاجته، فإذا انقضت، تراجع عن التودد والتقرب، وهذا يكشف عن البنية النفسية العميقة لدى فئات كثيرة من الناس التي تظهر سجاياها الطيبة حينما يحتاجون إلى قضاء حوائجهم، ثم تتلاشى السجايا الطيبة حينما يحصلون على ما يريدون.

تكشف الآية الكريمة عن **شخصية معجبة بالحياة الدنيا**، تسوقها كيفما وأينما تريد، شخصية غافلة، لا تكترث إلا لحاجتها، وهو ما نجده في كثير من الناس، أصحاب المصالح الدنيوية، ممن لا يكترثون إلا لأمرهم، ولا يهتمون إلا بحالهم، دون الاكتراث بغيرهم، مشغولين بالحياة الدنيا، غافلين عن الآخرة، وغافلين عن غيرهم، ولا يؤثرون أحدًا على أنفسهم.

---

[1] ينظر: عتيق: **ظواهر أسلوبية في القرآن الكريم التركيب والرسم والإيقاع**. ص:18.

وتتشابه مع هذه الشخصية **حالُ من عاد لصحته وقوته وتغافل عما كان به من ضر**، وتجاهل الحال التي ألمت به، ولم يحمد الله، ولم يشكره، فتجاوز تذكر الله والدعاء إليه في فترة معينة، وعاد لِما كان عليه، ولم يدرك المغزى الرئيس وراء هذا الضر، فالقرآن الكريم جاء؛ ليربي النفس الإنسانية، ويعدها إعدادًا جيدًا؛ لتقوم بدورها ورسالتها التي خلقت من أجلها، فدأب على التربية النفسية في كثير من آياته، إذ يخاطب النفس الإنسانية عن علم ودراية بتركيبها وميولها ومداخلها، فحرص على تربية النفس تربية سليمة قويمة.[1]

ويرقى القرآن الكريم بالنفس الإنسانية، فيحرص على بنائها وتقويمها وتوجيهها، والتحذير من النوازع النفسية الشاذة التي تصيب الفرد، وتؤدي لانحطاطه، فطريق الإنسان في الحياة يبدأ من الفرد وينتهي بالجماعة، فيرسم القرآن للفرد الخطوات الرئيسة لمواكبة الحياة، ويلقي في النفس آثارًا عميقة.[2] فالله يريده أن يستيقظ ويعود من غفلته إلا أنه ما زال يأبى، **فتتشابه هذه الحال وهذه الشخصية، مع حال المسرفين**، في قوله: ﴿**كَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِلْمُسْرِفِينَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ**﴾ **(يونس:12)**، فهم الذين زُينت لهم الحياة الدنيا، فأعجبوا بها وبمتاعها، بل اطمأنوا لها، ولم يخافوا مكرها، وغفلوا عن ذكر الله، وعبادته، والتفكر بآياته، ونسوا البحث عن المقصد وراء هذه الدنيا وسبب الخلق والوجود، فقصروا بحق الله، وتجاوزوا حدودهم معه، فأخطؤوا، وظلموا، وعتوا، وطغوا في الأرض، ورضوا بالدنيا، وخُدعوا بزينتها الكاذبة.

وتؤيد **مادة "سرف"** هذا المعنى في قوله تعالى في الآية نفسها: ﴿**كَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِلْمُسْرِفِينَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ**﴾، "فالسَّرَف والإِسْرَافُ: مُجاوزةُ القَصْدِ، وأَسْرَفَ فِي مَالِهِ: عَجِلَ مِنْ غَيْرِ قَصْدٍ،

---

[1] ينظر: السيد، أحمد بن عمر بن أحمد: **النفس وأثر القرآن الكريم في تحقيق الأمن النفسي**. أبحاث، كلية التربية، جامعة الحديدة، ع:13، مارس، 2019م، ص:222.

[2] ينظر: البياتي، انتصار زين العابدين شهباز: **دور القرآن الكريم في تربية النفس الإنسانية**. مجلة الآداب، كلية الآداب، جامعة بغداد، ع:92، 2010م، ص:449-450.

والإِسْرافُ فِي النَّفَقَةِ: التبذيرُ، والإِسرافُ مَا قُصِّر بِهِ عَنْ حَقِّ اللَّهِ، والسَّرَفُ: ضِدَّ القصد، والسَّرَفُ: تجاوُزُ مَا حُدَّ لَكَ، والسَّرَفُ: الخطأُ، والسَّرَف بِالشَّيْءِ: الجهلُ بِهِ، والسَّرَفُ: الإِغفالُ، والسَّرَفُ: الجَهْلُ"[1]. فمن هذه الدلالات ندرك أنهم قصروا في حق الله والمقصد الأساس، وبدلًا من أن يسرفوا في التعمق في فهم آيات الله وتدبرها، وفي البحث عما يزيد إيمانهم بالله، غرقوا في متاع الحياة الدنيا وملذاتها وزينتها، بل أسرفوا فيها، وغفلوا الهدف الرباني الأساس، فتلذذ النفس الإنسانية المطبوعة على الفطرة السليمة بشهوات الدنيا، يُظهر في النفس الإنسانية مجموعة من النقائص، فتتغير طبيعتها وفق درجة تأثرها، ومدى الخلل الذي أصابها طوال فترة تمردها وبعدها عن الله –عز وجل–، فتشكل التغيرات والنقائص في النفس الإنسانية مع مرور الوقت آفات قلبية وسلوكية تؤثر على الفرد والمجتمع،[2] أي إن إسرافهم وجهلهم وغفلتهم ظل ثابتًا عندهم، وأن غرقهم في ملذات الحياة الدنيا وانغماسهم فيها، وتنقلهم من زينة إلى أخرى يعد متغيرًا.

ترتبط الآية الكريمة: ﴿**وإذا مَسَّ الإنسانَ الضُّرُّ دَعانا لِجَنْبِهِ أوْ قاعِدًا أوْ قائِمًا فَلَمّا كَشَفْنا عَنْهُ ضُرَّهُ مَرَّ كَأنْ لَمْ يَدْعُنا إلى ضُرٍّ مَسَّهُ كَذَلِكَ زُيِّنَ لِلْمُسْرِفِينَ ما كانُوا يَعْمَلُونَ**﴾ (**يونس**:12)، بسياق استعجال الخير وتأجيل الشر في الآية التي قبلها: ﴿**ولَوْ يُعَجِّلُ اللَّهُ لِلنّاسِ الشَّرَّ اسْتِعْجالَهم بِالخَيْرِ لَقُضِيَ إلَيْهِمْ أجَلُهم فَنَذَرُ الَّذِينَ لا يَرْجُونَ لِقاءَنا في طُغْيانِهِمْ يَعْمَهُونَ**﴾ (**يونس**:11)، فيعرض صورة بشرية للإنسان عندما يمسه الضر، تكشف عن التناقض في طبيعته، فهو (لا)* يستعجل الشر، ويشفق من مس الضر، فإذا كشف عنه عاد إلى ما كان فيه، والإنسان يظل مدفوعًا مع تيار الحياة، يخطئ، ويذنب، ويطغى،

---

[1] ابن منظور: **لسان العرب**. مادة: (سرف).

[2] ينظر: المالك، منال بنت عبد العزيز: **هدي القرآن الكريم في السمو بالنفس الإنسانية: سورة الحجرات أنموذجًا**. مجلة كلية الدراسات الإسلامية والعربية للبنين، كلية الدراسات الإسلامية والعربية للبنين، جامعة الأزهر، القاهرة، ع:39، ج:1، ديسمبر/ 2020م، ص:528.

* أظنها سقطت من الكاتب؛ فالإنسان، في الآية الكريمة، لا يستعجل الشر، وإنما الخير.

ويسرف، وليس –إلا من رحم الله– من يتذكر في إبان قوته وقدرته أن هناك ضعفًا وعجزًا، بينما في ساعات الرخاء ينسى، و يطغى عند الإحساس بالغنى، وإذا مسه الضر يجزع، ويهلع، ويكثر الدعاء، ويستعجل الرخاء، فإذا استجيب الدعاء، وكشف الضر، انطلق لا يعقب، ولا يفكر، ولا يتدبر، فينطلق إلى ما كان فيه من قبل من اندفاع، واستهتار.[1]

وينبغي للإنسان أن يفهم علاقته مع ربه، فهي ليست علاقة طلب عند الحاجة فقط، أو علاقة منفعية، بل هي علاقة العشق الدائم والمحبة لله –عز وجل–، وعلاقة القرب منه، والصلة والتواصل الحيوي المستمر معه في الأوقات والأماكن كلها. وينبغي أن يدرك أن ارتباط النفس البشرية بخالقها هو ارتباط فطري، قبل وجود البشرية، فالله فطر عباده على الدين الحنيف القيم.[2]

ينسق السياق خطوات التعبير وإيقاعه مع الحالة النفسية التي يصورها، فيصور منظر الضر في بطء، وتلبث، وتطويل، بقوله: ﴿**دَعانا لِجَنْبِهِ أَوْ قاعِدًا أَوْ قائِمًا**﴾ **(يونس:12)**، فيعرض كل حالة؛ ليصور وقفة هذا الإنسان وقد توقف التيار الدافع في جسمه أو ماله أو قوته، حتى إذا رفع الحاجز عنه، (مر)، فتصور كلمة (مر) الاندفاع، والانطلاق. فهو لا يتوقف؛ ليشكر، ولا يلتفت؛ ليتدبر، ولا يتأمل؛ ليعتبر ﴿**مَرَّ كَأَنْ لَمْ يَدْعُنا إِلى ضُرٍّ مَسَّهُ**﴾، فهو يندفع مع تيار الحياة دون مبالاة! وبمثل هذه الطبيعة، طبيعة التذكر فقط عند الضر، حتى إذا ارتفع انطلق ومر. بمثل هذه الطبيعة استمر المسرفون في إسرافهم، لا يحسون ما فيه من تجاوز للحدود.[3]

يتضح مما تقدم، سيطرة النفس الانفصامية على الإنسان، فهي المتحكمة في رغباته، فما تشتهيه الآن يجب أن ينفذ الآن، ولا مجال للتأخير، وإذا لم يحدث ما تشتهي، فإن إعادة الطلب مرارًا

---

[1] ينظر: قطب: **في ظلال القران الكريم**. ج:3، ص:1769.

[2] ينظر: المالك: **هدي القرآن الكريم في السمو بالنفس الإنسانية: سورة الحجرات أنموذجًا**. ص:513.

[3] ينظر: قطب: **في ظلال القران الكريم**. ج:3، ص:1769.

وتكرارًا، والمحاولات المستمرة في التسلق إلى المنافذ والثغرات الإنسانية، تكون مصير الإنسان إلى أن توقعه بما تريد، فيظهر انفصام النفس غير المستقرة في حبها أمورًا وكرهها أمورًا أخرى بلا تجانس أو حجة داحضة، فنجدها تناقض نفسها مرات عديدة، أو تكون –مثلًا– مزاجية، فنشاهد شخصًا غاضبًا يومًا، وهادئًا يومًا آخر، أو أن نجد شخصًا متفائلًا يومًا ومتشائمًا يومًا، بلا سبب أو مؤثر، وهو ما يتشابه مع حال النفس الإنسانية الانفصامية، التي تتذكر الله وقت الشدة والحاجة والضر والضيق، وتنساه في أوقات الرخاء، والسراء، والرفاهة، والاتساع، بلا سبب أو حجة أو ذريعة مقنعة.

جسدت الآية الكريمة: ﴿**وإذا مَسَّ الإنسانَ الضُّرُّ دَعانا لِجَنْبِهِ أوْ قاعِدًا أوْ قائِمًا فَلَمّا كَشَفْنا عَنْهُ ضُرَّهُ مَرَّ كَأنْ لَمْ يَدْعُنا إلى ضُرٍّ مَسَّهُ كَذَلِكَ زُيِّنَ لِلْمُسْرِفِينَ ما كانُوا يَعْمَلُونَ**﴾ (**يونس**:12)، شخصية متوترة، مزاجية إذ كانت ردة فعلها بالمرور، والانتقال إلى النقيض، "فالمِزَّةُ: مِزاجٌ مِنْ أَمْزِجَةِ الْبَدَنِ"[1]، وهي قلقة، وخائفة من الموت، إذ وردت في سياق الحديث عمن لا يرجون لقاء الله، في قوله: ﴿**إنَّ الَّذِينَ لا يَرْجُونَ لِقاءَنا ورَضُوا بِالحَياةِ الدُّنْيا واطْمَأنُّوا بِها والَّذِينَ هم عَنْ آياتِنا غافِلُونَ**﴾ (**يونس**:7)، وهي شخصية عنيدة، إذا أرادت شيئًا لا تتركه دون أن تحصل عليه، فهي التي ظلت تدعو حينما مسها الضر، في أي حالة مرضية كانت، سواء حالة القيام، أم القعود، أم الجنب، تظل تدعو إلى أن يكشف عنها الضر، أي إلى أن تحصل على مرادها، وهي ملتوية كالأفعى حتى تحصل على ما تريد، بدليل مادة (مرر) بقولنا: "وَهُوَ يُمارُّه أَي يَتَلَوَّى عَلَيْهِ"[2]، أي إنها لا تدعو إلا عندما يكون هناك سبب للدعاء، فإذا زال السبب، ووصلت لراحتها (أي: إنها لم تعد خائفة)، فلم الدعاء؟ فدعاؤها مقرون بخوفها وحالتها النفسية عند القلق فقط، وهي شخصية عجولة، بدليل الآية السابقة لها: ﴿**ولَوْ يُعَجِّلُ اللَّهُ لِلنّاسِ الشَّرَّ اسْتِعْجالَهم بِالخَيْرِ لَقُضِيَ إلَيْهِمْ أجَلُهم فَنَذَرُ الَّذِينَ لا يَرْجُونَ لِقاءَنا في طُغْيانِهِمْ يَعْمَهُونَ**﴾ (**يونس**:11)، فهي شخصية تستعجل الخير،

---

[1] ابن منظور: **لسان العرب**. مادة: (مرر).

[2] **المصدر السابق**. مادة: (مرر).

وتسعى للدنيا، ولا ترغب الشر، فمن هنا يتبين أنها شخصية غير سوية لا تسعى إلا لمصالحها، وعند الحاجة فقط، ولا يهمها سوى نفسها، فهي شخصية أنانية، لا يهمها سوى الدنيا التي رضيت بها واطمأنت إليها وغرقت في خيراتها، وزين لها حلالها وحرامها، فأسرفت* وأوغلت بخروجها من حلالها إلى حرامها.

اجتمعت عناصر الصدق النفسي والجمال الفني كلها معًا في هذه الصورة الجلية المعبرة، فالإنسان حين يمسه الضر وتتعطل فيه دفعة الحياة، يلتفت إلى الخلف، ويتذكر قدرة الله، ويلجأ عندئذ إليها، ويلقي حمله كله عليها. فإذا انكشف الضر، وزالت عوائق الحياة، وانطلقت الحيوية الدافعة في كيانه، وهاجت دواعي الحياة فيه؛ لبى دعاءها المستجاب. وتطول الصورة عند الدعاء لكشف الضر؛ لتدع الخيال يتنقل مع الداعي في أحواله يستغيث ربه، ثم عند كشف الضر تسرع الصورة خاطفةً، تمر بالداعي كالبرق الخاطف، فالضر كُشف عنه، فلماذا لا يعود إلى ما كان عليه من الضلال؟!![1]

## ثانيًا: سيكولوجية الإنسان العنيد.

تظهر صفة العناد لدى الإنسان، عندما يستمر في رفضه السلبي، وخروجه عن السلطة، والمبادئ، والقيم، والقوانين، والعقائد، والأعراف السليمة، أي إنه خروج عما ينبغي الالتزام به، وخروج عن الضوابط المحددة، فالشخص العنيد يتميز بالإصرار على ما يريد، بل يتصلب في رأيه، دون تحديد سبب إصراره أو تصلبه أو رفضه، ولا يملك ما يُقنع به الآخرين.[2]

**وردت ثنائية الثبات والتغير في الصورة السيكولوجية للإنسان في آية أخرى** في قوله تعالى:

**﴿وإذا مَسَّ الإنسانَ ضُرٌّ دَعا رَبَّهُ مُنِيبًا إلَيْهِ ثُمَّ إذا خَوَّلَهُ نِعْمَةً مِنهُ نَسِيَ ما كانَ يَدْعُو إلَيْهِ مِن قَبْلُ وجَعَلَ لِلَّهِ**

---

* الإسراف: هو الاشتطاط والإيغال في الخروج من الحلال إلى الحرام، ولا علاقة له بزيادة أو نقصان، فكثيره وقليله سواء، ولا يكون إلا في الكيف. ينظر: شحرور: **دليل القراءة المعاصرة للتنزيل الحكيم، المنهج والمصطلحات**. ص:80.

[1] ينظر: عبد التواب، صلاح الدين: **الصورة الأدبية في القرآن الكريم**. ط:1، الشركة المصرية العالمية للنشر، لونجمان، مصر، 1995م، ص:52.

[2] العنزان، نورة خالد: **العناد في علم النفس**. https://nouraalanzan.blogspot.com/

**أَندادًا لِيُضِلَّ عَنْ سَبِيلِهِ قُلْ تَمَتَّعْ بِكُفْرِكَ قَلِيلًا إِنَّكَ مِن أَصْحابِ النّارِ﴾ (الزمر:8)**، والثابت في الآية وقوع الضر على الإنسان، والمتغير سلوك الإنسان عند الدعاء وبعده، فجاء هذا المتغير تحولًا سيكولوجيًّا من لجوء الداعي إلى الله في أثناء الضر إلى ترك الدعاء ونسيان ما كان يدعو إليه.

يظهر الدعاء في الآية الكريمة المقرون بالإنابة، في قوله: ﴿**دَعا رَبَّهُ مُنِيبًا إِلَيْهِ**﴾ التي تعني الرجوع، أي: راجعًا وعائدًا إليه، فيدل على أن الداعي كان بعيدًا عن رب العالمين، ولكنه عاد إثر هذا الضر، وتذكر ربه. وتبدو **هيئة الداعي** منيبًا، وترتبط دلالة **مادة (نوب)** بسياق الضر؛ إذ إن "النائبةِ: هِيَ مَا يَنُوبُ الإِنسانَ أَي يَنْزِلُ بِهِ مِنَ المُهمَّات والحَوادِثِ، والنَّائِبَةُ: المُصيبةُ، وَالنَّائِبَةُ: النازلةُ، وناوَبه: عاقَبه، وَيُقَالُ: أَصبَحْتَ لَا نَوْبةَ لَكَ، أَي: لَا قُوَّة لَكَ"[1]، فعندما استنفدت طاقاته، وفقد قوته، وضعُفَ، تذكر أن له ربًّا يكشف ما به من ضر، فلجأ إليه. وتشير **مادة (نوب)** إلى القرب والقصد، "فالنَّوْبُ: القُرْب، وانْتابَ الرجلُ القومَ انْتيابًا إِذا قصَدَهم، وأَتاهم مَرَّةً بَعْدَ مَرَّة، وَهُوَ يَنتابُهم"[2]، فهذا الإنسان الذي كان بعيدًا عن الله، ولم يكن يقصده مباشرة، وكان يتخذ أولياء ليقربوه إلى الله زلفى، كما في قوله: ﴿**والَّذِينَ اتَّخَذُوا مِن دُونِهِ أَوْلِياءَ ما نَعْبُدُهم إِلّا لِيُقَرِّبُونا إِلى اللَّهِ زُلْفى**﴾ **(الزمر:3)**، وبعد أن وقع به الضر، ونفدت طاقاته، بدأ يدرك أن من كان يعبد من دون الله لا ينفعونه، فطفق يتقرب إلى الله، ويدعوه، وينيب إليه، ويطرق الباب مرة تلو أخرى، قاصدًا الله لكشف الضر، الرب الوحيد، الأقدر –حتى في أبسط الأمور– على من هم دونه ممن يُظَنّ أنّهم قادرون على شيء.

يدل الحال (منيبًا) أن حالة الإنسان عند مس الضر تختلف وتتحول فكان في الصورة السابقة دعاءً حسب سبب الضر، أما في هذه الصورة فهو دعاءٌ حسب وصف حالة الداعي في أثناء قيامه بفعل

---

[1] ابن منظور: **لسان العرب**. مادة: (نوب).

[2] **المصدر السابق**. مادة: (نوب).

الدعاء، أي إن تفعيل التحليل النحوي في تحليل الآيات الكريمة ساعد في الوصول إلى الثنائيات النفسية الإنسانية، ففي الآية الكريمة، ثبت مس الضر للإنسان، وتغيرت هيئته عند الدعاء.

**تتميز مادة (نوب) في قوله تعالى: ﴿وإذا مَسَّ الإنسانَ ضُرٌّ دَعا رَبَّهُ مُنِيبًا إلَيْهِ﴾ بإشارتها إلى الإخلاص والعهد**، فنقول: "نابَ فلانٌ إلى اللَّهِ تَعَالَى: أَقْبَلَ وتابَ، ورجَع إلى الطَّاعَةِ؛ والإنابةُ: الرجوعُ إلى اللَّهِ بالتَّوبة، أَي: رَاجِعِينَ إلى مَا أَمَرَ بِهِ، غَيْرَ خَارِجِينَ عَنْ شيءٍ مِنْ أَمرِه"[1]. فتتشابه مع حال الإنسان الذي يعود لربه وقت الضر، فيدعوه بإخلاص، ويتعهد له.

**وتدل مادة (خول) في قوله تعالى: ﴿ثُمَّ إذا خَوَّلَهُ نِعْمَةً مِنهُ نَسِيَ ما كانَ يَدْعُو إلَيْهِ مِن قَبْلُ﴾ على حفظ العهد، والإخلاص، وحسن التدبير، والقيام على الشيء، وعلى توسم الخير، وعلى الإعطاء، والتمليك**، "فالْخَاءُ وَالْوَاوُ وَاللَّامُ أَصْلٌ وَاحِدٌ يَدُلُّ عَلَى تَعَهُّدِ الشَّيْءِ"[2]، "والتَّخَوُّل: التعهُّد وحُسْن الرِّعاية، والخَائِل: الْمُتَعَهِّدُ لِلشَّيْءِ وَالْمُصْلِحُ لَهُ الْقَائِمُ بِهِ، والخَائِل: الْحَافِظُ لِلشَّيْءِ، والخَوَل: مَا أَعطى اللهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى الإنسانَ مِنَ النِّعَم، وخَوَّلَهُ المالَ: أَعطاه إياه تَفَضُّلًا"[3]، "والتَّخْوِيلُ: الإعْطاءُ والتَّمْلِيكُ دُونَ قَصْدِ عِوَضٍ"[4]، فتتناسق مع وصف دعاء المصاب بالضر.

**وتدل مادة (أتي) في قوله تعالى: ﴿ثُمَّ إذا خَوَّلْناهُ نِعْمَةً مِنّا قالَ إنَّما أُوتِيتُهُ عَلى عِلْمٍ﴾ على الإعطاء، والتمليك، والمطاوعة، والمجازاة، والموافقة**، "فالإيتاءُ: هو الإعْطاء، وآتَاه الشَّيْءَ، أَي: أَعطاه إيَّاه، وآتَاه: جَازَاهُ، وآتاهُ: أَتَى بِهِ، والمُؤَاتَاةُ: حُسْنُ المُطاوَعةِ، وآتَيْتُه عَلَى ذَلِكَ الأَمْر: وافَقْتَه"[5]، "وإيتاء الشيء: إعطاؤه، وإيتاء الشيء المعطى يكون من خلال دائرة المعطي؛ لأن إيتاء الشيء يتطلب أولًا

---

[1] ابن منظور: **لسان العرب**. مادة: (نوب).

[2] ابن فارس: **معجم مقاييس اللغة**. مادة: (خول).

[3] ابن منظور: **لسان العرب**. مادة: (خول).

[4] ابن عاشور: **التحرير والتنوير**. ج:23، ص:343.

[5] ابن منظور: **لسان العرب**. مادة: (أتي).

امتلاكه قبل إعطائه، وفعل (آتى) هو فعل مزيد ويقع على المفعول، فآتى الإنسان شيئًا بمعنى أعطاه لغيره"[1]، فتتفق مع العطاء الرباني بتمليك الداعي ما يريد، أو أضعاف ما يريد.

**تجلى المشترك الدلالي الثلاثي للأفعال: (نوب) و(خول) و(أتي)، إذ تتعالق مادة (خول) مع مادة (نوب) في دلالتها على حفظ العهد والإخلاص، وتشترك مع مادة (أتي) بمعنى الإعطاء والتمليك.** بينما تفترق الأفعال الثلاثة في بعض الدلالات، فمثلًا، "لا يستعمل الإيتاء إلا للشيء الكثير والعظيم الشأن، كالملك، والحكمة، والرحمة، والخير ، والقرآن العظيم، والإيتاء فيه قوة؛ لأنه لا يتوقف على القبول، ولا يكون إلا عن رضًا، وطيب نفس"[2]، أي إن الإيتاء يستخدم للأشياء العظيمة، وفيه معنى الوجوب والإلزام، ويكون في الأشياء المادية والمعنوية، وفي الأشياء العامة.[3] بينما الْإِنَابَة فهي: "الرُّجُوع إِلَى الطَّاعَة فَلَا يُقَال لمن رَجَعَ إِلَى مَعْصِيّة: إِنَّه أناب. والمنيب: اسْم مدح، كالمؤمن والمتقي"[4]، والإنابة: "رجوع إلى الله، وإقبال عليه، وصدور عن أمره في كل قول، وفعل"[5]. أما التخويل فهو إِعْطَاء الخول، وَأصل التخويل: الإرعاء، فيُقَال: أخوله إِبِله: إِذا استرعاه إِيَّاهَا فَكثر حَتَّى جعل كل هبة وعطية تخويلًا كَأَنَّهُ جعل لَهُ من ذَلِك مَا يرعاه"[6].

تأكدت هيئة الداعي في أثناء دعائه، من خلال مادة (نوب)، إذ امتزج دعاؤه بالإخلاص، واتضح الدور النحوي في بيان حال الداعي وقت الدعاء وارتباطه بثنائية (الضر وكشف الضر)، فارتبطت

---

[1] ينظر: شحرور: **دليل القراءة المعاصرة للتنزيل الحكيم، المنهج والمصطلحات**. ص:68.

[2] داود: **معجم الفروق الدلالية في القرآن الكريم لبيان الملامح الفارقة بين الألفاظ متقاربة المعنى، والصيغ والأساليب المتشابهة**. ص:27-29.

[3] ينظر: زيدان، عبد الجبار فتحي: **الفروق اللغوية في القرآن الكريم**. (د.ط)، (د.د)، الموصل، العراق، 2020م، ص:248-251.

[4] ينظر: العسكري: **الفروق اللغوية**. ج:1، ص:303.

[5] داود: **معجم الفروق الدلالية في القرآن الكريم لبيان الملامح الفارقة بين الألفاظ متقاربة المعنى، والصيغ والأساليب المتشابهة**. ص:94.

[6] ينظر: العسكري: **الفروق اللغوية**. ج:1، ص:176.

بسياق الإخلاص الأكبر الذي ركزت عليه السورة من بدايتها، بقوله سبحانه وتعالى: ﴿**إِنَّا أَنْزَلْنا إِلَيْكَ الْكِتابَ بِالْحَقِّ فَاعْبُدِ اللَّهَ مُخْلِصًا لَهُ الدِّينَ**﴾ (**الزمر**:2)، وبقوله: ﴿**أَلا لِلَّهِ الدِّينُ الْخالِصُ**﴾ (**الزمر**:3)، وبعد أن كشف الله عن الداعي الضر، يخوله الله نعمة منه في قوله: ﴿**ثُمَّ إِذا خَوَّلَهُ نِعْمَةً مِنْهُ نَسِيَ ما كانَ يَدْعُو إِلَيْهِ**﴾ (الزمر:8)، فينعم عليه، ويعطيه فضًلا منه، لا جزاءً لإخلاصه ولا لدعائه، ولا للعهد الذي تعهده هذا الداعي لله. وتتجسد أعماق النفس الإنسانية من اجتماع مادتي (نوب) و(خول) في آية واحدة، فكأن النفس الإنسانية، عندما تصحو من سباتها، وترجع عن أخطائها وذنوبها، تُقبل على الله بالتوبة، وتتعهد بالطاعة وعدم تكرار المعصية، يقابلها الخير المتوسَّم من الله، فيبرز العطف الإلهي بالرعاية للعباد، وإصلاح شؤونهم، والحفاظ عليهم، بل يتجلى الكرم الإلهي بتسييسهم وتنصيبهم على ما يحسنون القيام به، فيدبر أمورهم، ويعطيهم أضعاف ما يتصورون.

أعتقد أن دلالة (ما) في قوله: ﴿**نَسِيَ ما كانَ يَدْعُو إِلَيْهِ مِن قَبْلُ**﴾ (**الزمر**:8)، ترتبط مع الصفات الإنسانية في الآية الكريمة، وذلك لا يتسنى إلا بعد محاولة حل الخلاف النحوي في نوعها، إذا ما كانت موصولة أو مصدرية أو نافية، وما المقصود أو مَن المقصود منها، وعلى من تعود إذا كانت موصولة، فللعلماء آراء متعددة*، **ولكني أزعم أنها موصولة، وتعود على العهد الذي يفهم من الآية والسياق**، ولا أظن أن "ما" تعني "مَن"، إذ من المستحيل أن ينسى الإنسان ربه –كاشفَ الضر– على الرغم من بعده الكبير عنه، وإشراكه به، إلا أنه عاد له بعد أن وقع الضر عليه. ولو كان المراد (مَن)

---

* "فقالَتْ فِرْقَةٌ: ما مَصْدَرِيَّةٌ، والمَعْنى: نَسِيَ دُعاءَهُ إلَيْهِ في حالِ الضَرَرِ ورَجَعَ إلى كُفْرِهِ، وقالَتْ فِرْقَةٌ: "ما" بِمَعْنى الَّذِي، والمُرادُ بِها اللهُ سُبْحانَهُ وتَعالى، وهَذا نَحْوُ قَوْلِهِ تَعالى: ﴿**وَلا أَنْتُمْ عابِدُونَ ما أَعْبُدُ**﴾ (**الكافرون**:3)، وقَدْ تَقَعُ (ما) مَكانَ (مَن) فِيما لا يُحْصى كَثْرَةً مِن كَلامِهِمْ. ويُحْتَمَلُ أنْ تَكُونَ "ما" نافِيَةً، ويَكُونَ قَوْلُهُ: "**نَسِيَ**" كَلامًا تامًّا، ثُمَّ نَفى أنْ يَكُونَ دُعاءُ هَذا الكافِرِ خالِصًا لِلَّهِ ومَقْصُودًا بِهِ مِن قَبْلِ النِعْمَةِ، أيْ في حالِ الضَرَرِ. ويُحْتَمَلُ أنْ تَكُونَ "ما" نافِيَةً، ويَكُونَ قَوْلُهُ: "**مِن قَبْلُ**" يُرِيدُ: مِن قَبْلِ الضَرَرِ، فَكَأنَّهُ يَقُولُ: ولَمْ يَكُنْ هَذا الكافِرُ يَدْعُو في سائِرِ زَمَنِهِ قَبْلَ الضَرَرِ، بَلْ أُلْجِأهُ ضَرَرُهُ إلى الدُعاءِ" الأندلسي، ابن عطية: **المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز (تفسير ابن عطية)**. تح: عبد السلام محمد. ط:1، دار الكتب العلمية، لبنان، 1993م، ج:4، ص:522.

لاختارها، ولو كان معناها (الضر)، أي نسي الضر الذي كان يدعو إليه، فما الشيء العظيم الذي سيترتب جراء نسيان الضر؟! وهل ينبغي للإنسان أن يظلَّ حافظًا ذاكرًا ذلك الضر الذي أصابه ودرجته وتاريخه؟!!، إن غالبية الناس ينسون أمراضهم التي أصيبوا بها، ونحمد الله على نعمة النسيان التي لو لم تكن، لوصل الإحباط لدى الناس أعلى مستوياته؛ نتيجة الأمراض التي أصابتهم طيلة حياتهم، فنسيان الضر –دون نسيان فضل الله علينا– نعمة. فيتقارب معنى ما الموصولة بعودتها على الإخلاص والتعهد في أثناء الدعاء، من النسيان المتعمّد، فتتشكل ثنائية الإخلاص والنسيان، التي تصاحب النفس الإنسانية المريضة. فيتبع هذا التغير الإيجابي في سلوك الإنسان، **صورة معاكسة مفاجئة غير متوقعة**، فهذا الذي ينبغي أن يكون قد تعلم من أخطائه، بعد أن دعا الله بإخلاص وتعهد له بعدم العودة لما كان عليه من شرك، بل إن الله تكرم عليه، وزاده، فمنحه نعمة وأقامه عليها، فتوسمنا به الخير، وظننا منه حسن التصرف وحفظ العهد، فإذا به يفاجئنا بما هو ليس بالحسبان، فيفاجئنا بنسيان العهد الذي عقده مع ربه! بل إنه لا ينساه فقط، وإنما يكسره، فيجعل لله أندادًا، ويعود إلى ما كان عليه!!! وذلك في قوله: ﴿**ثُمَّ إِذَا خَوَّلَهُ نِعْمَةً مِنْهُ نَسِيَ مَا كَانَ يَدْعُو إِلَيْهِ مِن قَبْلُ وَجَعَلَ لِلَّهِ أَندَادًا لِّيُضِلَّ عَن سَبِيلِهِ**﴾ **(الزمر:8)**.

وتأكيدًا على ما سبق، لمن يدعي عدم احتمالية وقوع هذا السلوك ممن دعا بإخلاص، وأنعم الله عليه، أُمثلُ على هذا التغير بصورة واقعية ملموسة، نراها كل يوم في حياتنا الاجتماعية، فلنأخذ مثلًا **صورة الابن ووالدته**، التي اهتمت به طيلة حياتها، فبعد أن يتزوج هذا الابن، ويجد البديل، ويرزق بزوجة تهتم به وترعاه وتطهو له الطعام، و...، فإنه قد ينسى تعب تلك الأم، ومشقتها، وعناءها، واهتمامها، وقلقها عليه، وسهرها الليالي عند مرضه، وعلى الرغم من اعترافه بها أمًّا، إلا أنه نسي أنها الوحيدة التي كانت تفني نفسها رعاية له، وعناية به، وحفاظًا عليه. فما بالك أيها الإنسان بمن سخر لك أرضًا وسماوات، وشمسًا وقمرًا، وليلًا ونهارًا؟! فعهدها لنا واستخلفنا عليها ليرى ماذا سنفعل؟ فهل سنصلحها ونحافظ عليها وسندرك المغزى وراء خلقها ونستعين بها بما سخره الله لنا؟ أم سنفسد فيها؟؟! فأنت –أخي

الإنسان– متعهَّدٌ على ضمان الحفاظ على كل ما أنعم الله عليك وإصلاحها، بل مؤتمن عليها، وهذا العهد موقوت بمدة بقائك عليها حيًّا، فعينُك –مثلًا– التي منحك الله إياها لتبصر بها كل شيء، أنت مسؤول عنها فيما ستستخدمها، وتفنيها.

يفرق العلم، بين العاقل والجاهل، وذلك بتحصين العقول مما يدخل عليها بوساطة التفكير، فالعاقل هو الذي يحصن عقله ويحميه بالعلم، أما الجاهل فهو غير محصن العقل، الذي يقتنع بكل ما يسمع أو بكل ما يدخل دماغه، نتيجة عدم تنقيتها بالعلم، فتحليل المعلومات هي وظيفة التفكير التي يقوم بها دماغ الإنسان، أما وظيفة العقل فهي الربط، والإغلاق، فيتحصن الإنسان بذلك، ويصل لمرحلة الوعي والإدراك للأشياء، والآيات القرآنية تعمل على توضيح أمور كثيرة تتعلق بالنفس الإنسانية، فتبين لنا أمورًا لم تكن لتعلم لولا ذكر القرآن الكريم لها، فمثلًا، يقسم الله –عز وجل– في كتابه الكريم، ويؤكد حقيقة كنود الإنسان لربه، في قوله تعالى: ﴿**إِنَّ الإِنسانَ لِرَبِّهِ لَكَنُودٌ**﴾ (العاديات:6)، فعندما يدرك الإنسان وقوعه في الكنود لربه، سيفيق من سباته، وسينتبه لتصرفاته وحركاته وأقواله، بل سيبدأ بالتفكير والتحليل والتعمق بما يقول، فيدرك ما ينبغي له أن يفعل وما لا ينبغي له أن يفعل. أي إن الإنسان الطبيعي يبدأ بردة الفعل المتوقعة تجاه كل ما يحصل معه، فعندما يعلم أنه يمكن أن يقع في شرك الكنود وإنكار النعم، سيحرص على ألا يكون كذلك. ففسر الكنود بكفور النعم، وبالبخيل، والعاصي، والشديد الكفران لله، أيْ إنَّ فِي طَبْعِ الإنْسانِ الكُنُودَ لِرَبِّهِ، فيَتعْرضُ له كُلّ إنْسانٍ عَلى تَفاوُتٍ فِيهِ، ولا يَسْلَمُ مِنهُ إلّا الأنْبِياءُ، وكُمَّلُ أهْلِ الصَّلاحِ؛ لِأنَّهُ يَنْشَأُ عَنْ إيثارِ المَرْءِ نَفْسَهُ، وهو أمْرٌ في الجِبِلَّةِ لا تَدْفَعُهُ إلّا المُراقَبَةُ النَّفْسِيَّةُ وتَذَكُّرُ حَقِّ غَيْرِهِ. وبِذَلِكَ قَدْ يَذْهَلُ أوْ يَنْسى حَقَّ اللَّهِ، والإنْسانُ يُحِسُّ بِذَلِكَ مِن نَفْسِهِ في خَطَراتِهِ، ويَتَوانى أوْ يَغْفُلُ عَنْ مُقاوَمَتِهِ؛ لِأنَّهُ يَشْتَغِلُ بِإرْضاءِ داعِيَةِ نَفْسِهِ، فالأنْفُسُ مُتَفاوِتَةٌ في تَمَكُّنِ هَذا الخُلُقِ مِنها،

والعَزائِمُ مُتَفاوِتَةٌ في اسْتِطاعَةِ مُغالَبَتِهِ.[1] ويؤكد في قوله تعالى: ﴿**إِنَّ الإِنسانَ لِظَلُومٌ كَفّارٌ**﴾ (إبراهيم:34)، وقوله: ﴿**إِنَّ الإِنسانَ لَكَفُورٌ**﴾ (الحج:66)، وقوله: ﴿**وإنّا إذا أذَقْنا الإِنسانَ مِنّا رَحْمَةً فَرِحَ بِها وإنْ تُصِبْهم سَيِّئَةٌ بِما قَدَّمَتْ أيْدِيهِمْ فَإنَّ الإِنسانَ كَفُورٌ**﴾ (الشورى:48)، على شدة ظلم الإنسان وكفره وإنكاره، فيتبين من الآية الكريمة، ما تقتضيه صفات الإنسان الذي يأنس بنفسه، وينسى ما ينفعه ويضره، ويضطرب بسبب ما يغمّه ويسرّه، فهو بليغ الظلم والكفر، يهمل الشكر، ويتعداه إلى الكفر.[2]

ترسم الآية الكريمة ﴿**وإذا مَسَّ الإِنسانَ ضُرٌّ دَعا رَبَّهُ مُنِيبًا إلَيْهِ ثُمَّ إذا خَوَّلَهُ نِعْمَةً مِنهُ نَسِيَ ما كانَ يَدْعُو إلَيْهِ مِن قَبْلُ وجَعَلَ لِلَّهِ أنْدادًا لِيُضِلَّ عَنْ سَبِيلِهِ قُلْ تَمَتَّعْ بِكُفْرِكَ قَلِيلًا إنَّكَ مِن أصْحابِ النّارِ**﴾ (**الزمر**:8)، شخصيةً عنيدة، غير متزنة، ضالة، غير مخلصة، تدعي شيئًا ولا تنفذه، فهي لا تثق بالله، بل لا تريده أساسًا، إلا وقت الحاجة، فلو كانت الإرادة نابعة من ذاتها، تصدر من داخلها، لصدقت في إيمانها، ولما نقضت عهدها، لكنها –للأسف– لا تمتلك الإرادة الذاتية في ذلك، فالنفس هي المسيطرة عليها، ولم تطبق الشرط الأساس للعبادة، الذي بينه الله في بداية السورة في قوله: ﴿**فاعْبُدِ اللَّهَ مُخْلِصًا لَهُ الدِّينَ**﴾ (**الزمر**:2)، وبقوله: ﴿**ألا لِلَّهِ الدِّينُ الخالِصُ**﴾ (**الزمر**:3)، فهذا الداعي، الأبله، بعناده، وبتصرفه العدواني على الذات العلية التي وجدها بمجرد أن دعاها، فأثبتت وجودها وأحقيتها بالعبادة والإخلاص والإفراد، نسي نعمة الله عليه، فحق عليه أن يكون من أصحاب النار.

وتقريبًا لهذا المعنى، لنتخيل صورة مدمن للمخدرات، الذي مهما حاولنا معه؛ كي يبتعد عنها ويتركها، إذا لم تكن لديه الدافعية والإرادة من ذاته، بأن يتركها، فمهما تعهد لنا ومهما اتبعنا معه من

---

[1] ينظر: ابن عاشور: **التحرير والتنوير**. ج:30، ص:503.

[2] ينظر: البقاعي، إبراهيم بن عمر: **نظم الدرر في تناسب الآيات والسور**. دار الكتاب الإسلامي، القاهرة، مصر، ج:10، ص:423.

وسائل وطرق، إلا أنه قد يظل مدمنًا، وسيحاول بشتى الطرق أن يحصل عليها بدون علمنا، فيعود لها –هذا إن تركها أصلًا– فتكون النتيجة أن يهلك ذاته بذاته.

## ثالثًا: سيكولوجية جنون العظمة.

تتميز شخصية الإنسان البرانويدي* (مجنون العظمة) بتصرفاته الغريبة، فتظهر في حبه ادعاء الأشياء ونسبتها لنفسه، أو إنكاره فضل الآخرين واستخفافه بقدراتهم، فشخصيته تتسم بالاضطراب، والغرور، والتكبر، والاعتداء، وهو ما يناظر شخصية الإنسان في الآية الكريمة: ﴿**فَإِذَا مَسَّ الإِنسَانَ ضُرٌّ**

---

* **جنون العظمة (الشخصية البرانويدية):** هو أحد الاضطرابات العقلية، فيسمى باضطراب الشخصية البارنويدية، يتميز صاحب هذه الشخصية بحساسية مفرطة نحو إلحاق الهزائم، والرفض، وعدم مغفرة الإهانات، وجروح المشاعر، ويحمل في داخله ميلًا إلى الضغينة باستمرار، وإلى الشك، والتقليل من قدرات الآخرين، حتى المقربين، من خلال سوء تفسير الأفعال المحايدة أو المحببة للآخرين على أنها عدوانية تقصده، أو يريد الآخرين الفتك به أو قتله، ويكون لديه إحساس بالقتال ضد الناس كلهم، مع التشبث بالحقوق الشخصية، والطمع في الاكتساب، حتى أنه لا يمل من سلب حقوق الآخرين، وتظهر القابلية العالية المصاحبة لتلك السلوكيات مع الغيرة المرضية العالية من الآخرين، مع تعاظم غير متناهٍ للذات، مفرط في الذاتية المقيتة، وفي كثير من الأحوال يصل به الإحساس المبالغ فيه إلى أنه خالق كل شيء حوله، مع الإشارة الواضحة لمنح الحياة للمقربين له وللآخرين من الناس. ويتصف صاحب هذه الشخصية بأنه صنع الحياة للناس، وأنه اخترع استمرار المجد للشعب، وأنه يعلم بكل بواطن الأمور قبل حدوثها، وأنه فيلسوف، ولديه معرفة خاصة بالعلوم تفوق بعض العلماء، ويدعي دائمًا أن أفكاره وحديثه نظريات تتعدى الواقع إلى عالم المستقبل، وأفراد المجتمع متخلفين تمامًا لا يواكبون قدراته الخارقة. ينظر: النوايسة، فاطمة عبد الرحيم: **أساسيات علم النفس**. (د.ط)، دار المناهج للنشر والتوزيع، عمان، 2013م، ص:330.

**البارانويا:** اضطراب عقلي نادر ينمو تدريجيًّا حتى يصير مزمنًا، ويتميز بنظام معقد يبدو خاليًا منطقيًّا، ويتضمن هذاءات الاضطهاد، والشك، والارتياب، فيسيء المريض فهم أية ملاحظة، أو إشارة، أو عمل يصدر عن الآخرين، ويفسره على أنه ازدراء به، فيدفعه إلى البحث عن أسلوب لتعويض ذلك، فيتخيل أنه عظيم، وأنه عليم بكل شيء. القشاعلة، بديع: **المعاني مصطلحات في علم النفس**. (د.ط)، شركة السيكولوجي، مدينة رهط، فلسطين، 2019م، ص:79.

**جنون العظمة:** حالة اضطراب ذهني، يعرف (بالبارانويا)، يعني معاناة المريض من الهذاء الذي يدور حول العظمة والزعامة كأن يتصور المريض نفسه ملك، أو يتصور أنه عبقري أو مرسل من الله والناس تحقد عليه، ويرى الآخرين أعداء تريد التخلص منه نظرًا لقوته، أو ذكائه، أو منصبه، أو مكانته المادية، أو الروحية. **المرجع السابق**. ص:80.

يتعامل مرضى هذه الحالة مع الآخرين بصورة طبيعية للغاية، لكن لديهم اعتقاد راسخ أنهم يتمتعون بتفوق وتميز يجعلهم فوق مستوى بقية الناس، فمنهم من يظن أنه زعيم سياسي عظيم، ومنهم من يعتقد أنه شخصية اجتماعية، أو فنية رفيعة المستوى، ومنهم من يدعي أنه يحمل رسالة مقدسة لخلاص البشرية. الشربيني، لطفي: **أسرار عالم المجانين أسباب وأنواع المرض العقلي**. ط:1، دار العلم والإيمان للنشر والتوزيع، دسوق، مصر، 2015م، ص:92.

**دَعانا ثُمَّ إذا خَوَّلْناهُ نِعْمَةً مِنّا قالَ إنَّما أُوتِيتُهُ عَلى عِلْمٍ بَلْ هى فِتْنَةٌ ولَكِنَّ أكْثَرَهم لا يَعْلَمُونَ﴾ (الزمر:49)**، فبعد أن يُكشف عنه الضر، بل يخول من النعم بعد ذلك، ينسب ذلك لنفسه وعلمه، ويتناسى فضل الله عليه، أو ينكره، فيقترب بذلك من شخصية مجنون العظمة المضطربة المغرورة المتكبرة.

تتجلى ثنائية الثبات والتغير في الصورة السيكولوجية للإنسان، فتثبت وقوع الضر للإنسان، وتغير سلوكه بعد الدعاء، فتضيف بعدًا نفسيًّا يتمثل بغرور الإنسان بنفسه وجحوده لنعمة الله. وتمثلت الحالة النفسية للإنسان عند حاجته لأمر ما، في قوله: ﴿**فَإذا مَسَّ الإنْسانَ ضُرٌّ دَعانا ثُمَّ إذا خَوَّلْناهُ نِعْمَةً مِنّا قالَ إنَّما أُوتِيتُهُ عَلى عِلْمٍ بَلْ هى فِتْنَةٌ ولَكِنَّ أكْثَرَهم لا يَعْلَمُونَ﴾ (الزمر:49)**، فاختلفت ردة فعله، وتغيرت من خلال دعائه، فكان **دعاءً لغير محدد**، وتغيرت –أيضًا– بعد صرف الضر عنه، بل وتخويله وإعطائه وتمليكه، من خلال غروره، ونسب الشيء لنفسه.

وتفاجئنا الآية الكريمة بتغير في سلوك الداعي، بعد التخويل والتمليك خاصة، الذي يكون فضلًا ونعمةً ومنّة من الله، فينكشف ما بداخل هذا الداعي بوساطة سلوكه، فتبرز الصورة السيكولوجية الباطنة له، من خلال سلوك كلامي، في قوله: ﴿**قالَ إنَّما أُوتِيتُهُ عَلى عِلْمٍ**﴾ **(الزمر:49)**، فيدعي تملكه ما أوتيه بوساطة علم، بلا فضل من الله، أي دون أن ينسب الفضل فيما امتلكه إلى صاحب الفضل والمنّة، فيستعلي بذلك على الله، وهو ما يدل عليه حرف الجر (على)* الذي يفيد معنى الاستعلاء. والتفاتًا لاستطرادٍ أزعم أهمية توضيحه، سارت بعض كتب التفسير –حسبما يفهم من كلامهم تلميحًا أو تصريحًا– في الآية الكريمة على وضع كلمة (نعمة) في موقع المفعول به الثاني في المعنى،[1] وعلى إعادة ضمير

---

* "يستعمل للأمور الثقيلة، للاستعلاء وللتكاليف، ولما يثقل أمره، ولما هو أشق على العموم". السامرائي، فاضل صالح: **أسئلة بيانية في القرآن الكريم**. ط:1، دار ابن كثير، بيروت، لبنان، 2011م، ج:2، ص:97.

[1] ينظر: الدعاس، أحمد، وزملاؤه: **كتاب إعراب القرآن**. ط:1، دار المنير للطباعة والنشر والتوزيع، دمشق، 2004م، ج:3، ص:143. وينظر: صافي، محمود: **الجدول في إعراب القرآن وصرفه وبيانه مع فوائد نحوية هامة**. ط:3، دار الرشيد، بيروت، لبنان، 1995م، ج:11، ص:88.

الغائب المفرد المذكر في (أوتيته) على (نعمة) المؤنثة، إتباعًا لهذا الإعراب، وإتباعًا للمعنى المترتب عليه، فأعادوا الضمير (هي) في قوله: ﴿**بَلْ هي فِتْنَةٌ**﴾ (**الزمر**:49)، إلى النعمة، أي إن النعمة من الأساس كانت فتنة لهم.[1]* ولي في ذلك ترجيح*.

---

* من تلك الآراء، قول ابن عاشور: "وتَرْكِيزُ ضَمِيرِ الغائِبِ في قَوْلِهِ (أُوتِيتُهُ) عائِدٌ إلى (نِعْمَةً) عَلى تَأْوِيلِ حِكايَةِ مَقالَتِهِمْ بِأنَّها صادِرَةٌ مِنهم في حالِ حُضُورِ ما بَيْنَ أيْدِيهِمْ مِن أنْواعِ النِّعَمِ فَهو مِن عَوْدِ الضَّمِيرِ إلى ذاتٍ مُشاهَدَةٍ، فالضَّمِيرُ بِمَنزِلَةِ اسْمِ الإشارَةِ"، ابن عاشور: **التحرير والتنوير**. ج:24، ص:35.

وآخر يقول: أنّ "النِّعْمَة هُنا عامٌّ في جَمِيعِ ما يُسْدِيهِ اللهُ إلى العَبْدِ، فَمِن ذَلِكَ إزالَةُ الضُرِّ المَذْكُورِ، ومِن ذَلِكَ الصِحَّةُ والأمْنُ والمالُ، وبِذِكْرِ الكَسْبِ. وذكرَ تَعالى الضَمِيرَ في قَوْلِهِ: "أُوتِيتُهُ"، وذَلِكَ يَحْتَمِلُ وُجُوهًا: مِنها أنْ يُرِيدَ بِالنِعْمَةِ المالَ، ومِنها أنْ يُعِيدَ الضَمِيرَ عَلى المَذْكُورِ، إذِ اسْمُ النِعْمَةِ يَعُمُّ ما هو مُذَكَّرٌ ويَعُمُّ ماهُو مُؤَنَّثٌ"، الأندلسي: **المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز (تفسير ابن عطية)**. ج:4، ص:536.

وآخر يقول: "وذُكِّرَ الضَّمِيرُ في (أُوتِيتُهُ)، وإنْ كانَ عائِدًا عَلى النِّعْمَةِ؛ لِأنَّ مَعْناها مُذَكَّرٌ، وهو الأنْعامُ أوِ المالُ، عَلى قَوْلِ مَن شَرَحَ النِّعْمَةَ بِالمالِ، أوِ المَعْنى: شَيْئًا مِنَ النِّعْمَةِ، أوْ لِأنَّها تَشْتَمِلُ عَلى مُذَكَّرٍ ومُؤَنَّثٍ، فَغُلِّبَ المُذَكَّرُ"، الأندلسي: **البحر المحيط في التفسير**. الج:9، ص:210.

وآخر يقول: "فإن قلت: لم ذكر الضمير في أُوتِيتُهُ وهو للنعمة؟ قلت: ذهابًا به إلى المعنى؛ لأنّ قوله نِعْمَةً مِنَّا شيئًا من النعم وقسمًا منها"، الزمخشري، أبو القاسم: **تفسير الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل**. دار المعرفة، ج:4، ص:133.

وغيرها من الكتب التي تحمل آراءً مشابهة، مثل: **تفسير القرآن للسمعاني، وروح المعاني للآلوسي، وتفسير مفاتيح الغيب للرازي، وتفسير المختصر، وتفسير البغوي، وتفسير الميسر، وتفسير ابن كثير**.

* أرجح، ببساطة، ومخالفًا تلك الآراء، ومتلاشيًا ما وقعوا به نتيجة إعرابهم وفهمهم غير المستقيم –في رأيي–، أن إعراب كلمة (نعمةً) في الآية الكريمة: ﴿**فَإِذا مَسَّ الإِنسانَ ضُرٌّ دَعانا ثُمَّ إِذا خَوَّلْناهُ نِعْمَةً مِنّا قالَ إِنَّما أُوتِيتُهُ عَلى عِلْمٍ بَلْ هِيَ فِتْنَةٌ وَلكِنَّ أَكْثَرَهُم لا يَعْلَمُونَ**﴾ (**الزمر**:49)، يقتضي أن يكون مفعولًا لأجله، رغم جواز إعرابه –نحويًّا– مفعولًا به ثانيًا، إذ إن المعنى لا يقتضي تحديد المفعول به، أو ما خُول هذا الإنسان، نعمة أو ما شابه، إذ إن السياق يدور حول فكرة التمليك ليس إلا، فالمهم هو التخويل، أي الحدث فقط، أي إن المعنى يقتضي التركيز على قضية التمليك فقط، فالمهم هنا، أنه جرى تخويله وإعطاؤه وتمليكه، ولماذا هذا التمليك والتخويل؟ نعمةً وفضلًا وكرمًا ومنَّةً من الله –عز وجل–، وتبعًا لهذا الفهم، ينتهي الإشكال الذي وقع به المفسرون، فيعود ضمير المفرد المذكر في قوله: ﴿**أوتيته**﴾ على ضمير المفرد المذكر في قوله: ﴿**خولناه**﴾، أي على ما امتلكه، وليس على النعمة المؤنثة، ونصل إلى معنًى أدق –في نظري–، فكأن الآية تكون على الشكل الآتي: فإذا مس الإنسان ضرٌّ، دعانا. ثم إذا خولناه، (أي: ملّكناه وأعطيناه –بلا تحديد الذي ملكناه إياه–)، قال: إنما أوتيته على علم. ولماذا هذا التخويل؟ الإجابة: نعمةً، وتعرب بذلك مفعولًا لأجله. وأزعم، تبعًا لذلك، أن المقصود بكلمة (فتنة) في قوله: ﴿**بَلْ هِيَ فِتْنَةٌ**﴾، هو عملية التخويل والتمليك والإعطاء كلها، من بدايتها إلى نهايتها، وألّا تكون النعمة، بهذا الفهم، هي المقصودة في قوله: ﴿**بَلْ هِيَ فِتْنَةٌ**﴾، حسب رأيي.

نلمس عند تأمل الآية الكريمة: ﴿**فَإِذا مَسَّ الإِنْسانَ ضُرٌّ دَعانا ثُمَّ إِذا خَوَّلْناهُ نِعْمَةً مِنّا قالَ إِنَّما أُوتِيتُهُ عَلى عِلْمٍ بَلْ هِيَ فِتْنَةٌ وَلكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لا يَعْلَمُونَ**﴾ **(الزمر:49)**، استعلاءً من طرفٍ ضعيف (الداعي بتعجرفه وجنونه) إلى آخر قوي (الله بعظمته)، استعلاء بادعاء المُلك والعلم والقدرة، ونلحظ أن الله –عز وجل– لم يستخدم ضمير الملكية مرة أو مرتين، بل ثلاث مرات (**دَعانا / خَوَّلْناهُ / مِنّا**)، تأكيدًا منه على الملكية والعظمة والفضل، الدعاء الذي لا يستجاب بدونه، والتخويل الذي لا يكون إلا بإرادته، والفضل الذي لا يكون إلا منه، واستخدامه الضمير (نا) الدال على الجمع يدل على عظمته وقوته وجبروته، تحطيمًا وكسرًا لهذا الذي يشمئز من ذكر الله، ويستعلي عليه، وينكر فضل الله عليه، فيدعي تملكه بعلم لا بفضل. فلم يدرك ذاك الجاهل الأحمق، أنه بسلوكه الغبي، ومن خلال ادعائه الكاذب، أنه أوقع نفسه –بلسانه– في فتنة دون أن يعلم، فكانت عملية التمليك تلك فتنةً بين طرفين، قوي وضعيف، إذ إن "الفتنة أساسًا لا تكون إلا من قبل طرف قوي على طرف أضعف منه"[1]، فهذا الذي استعلى على الله ظنًّا منه أنه الأقوى، لم يلبث سوى أن حُطِّمت شوكته، وعظمته المدَّعاة، بتكرار ضمير ثلاث مرات فقط.

ونستلهم من سلوك الإنسان بعد دعائه، في الآية الكريمة صورةً لشخصية برانويدية، مضطربة، متجبرة، مجنونة، ترى العظمة في نفسها، متألهة، لا ترى أحدًا يعلوها، جريئة في الكذب والادعاء والقول، متسلطة في عباراتها، ترى في نفسها القوة، فالجميع أضعف منها، مشمئزة تتسم بالتشتت والكراهية، تشمئز ممن لا ترغب بهم، وتشمئز ممن تغار منهم، أو ممن توقن في داخلها –وتخفي في الوقت ذاته– أنهم أقوى منها، إنها شخصية بائسة جدًّا، أنانية لدرجة خيالية، مغرورة، جاحدة، متعجرفة، متكبرة على الله، تظن نفسها مالكة لكل شيء، فهي المتصرفة بالكون، حتى الضر، فهي قادرة –حسب ادعائها–

[1] ينظر: شحرور: **دليل القراءة المعاصرة للتنزيل الحكيم، المنهج والمصطلحات**. ص:82.

على إزالته بنفسها، وبعلمها، فهذا الذي ملك العالم أجمع، فملك مالًا لا يحصى مثلًا، يظن أنه بالاستعانة بأي طبيب سيعالَج ويحيا مدى الحياة، وباستعانة واحدة بهذا الإله الذي لا يعلم من هو إلا أنه فقط للاستعانة بكشف الضر، فإنه يزول عنه بكل بساطة، دون أن يعترف بأنه قد ضُرَّ يومًا، وبقوله: على علم، أي كأنه ملك العلم كله، فهو –في نظره– فوق أنواع العلم كلها، بل مالك له كله.

وتلخيصًا لما ورد، جاءت ثنائية الثبات والتغير في الصورة السيكولوجية للإنسان وقسمتها على ثلاثة محاور، فالمحور الأول (سيكولوجية الإنسان الغافل المسرف) تمثل بسلوك الإنسان بمروره الغافل، وعدم اكتراثه لما مضى، بينما المحور الثاني (سيكولوجية الإنسان العنيد) فتمثل بتعنت الإنسان وعودته لما كان عليه قبل الدعاء، أما المحور الثالث (سيكولوجية جنون العظمة) فتمثل بإنكار الإنسان، وادعائه الأشياء، فكأنها تكون أعلى درجات التغافل والإنكار، إذ تصل النفس فيها إلى الاضطراب الأعلى أو الجنون.

وختامًا لما تقدم، فإن ما وصف القرآن به الإنسان، من ضعف وكفر، وعجلة، ومكابرة، ونسيان، وطغيان، وذهول عن الله، وجحود لنعمه، يعد ظاهرةً عامة في تاريخ الإنسانية وما تزال فيها؛ لأن في طرق الإنسان مزالق، وأشواكًا، ومعوقات، وبغير الإيمان الراسخ، والعقيدة الصحيحة، لا يأمن من غوائل الشر المتسرب إلى نفسه بفعل الجواذب، والدوافع العنيفة، والمتنوعة.[1]

[1] ينظر: التهامي، نقرة: **سيكولوجية القصة في القرآن**. ط:1، الشركة التونسية للتوزيع، تونس، 1974م، ص:380.

## المبحث الثاني: الثنائية الدلالية (الثبات والتغير) للإنفاق عند المؤمنين والكافرين.

### مدخل

### المطلب الأول: الثنائية الدلالية (الثبات والتغير) للإنفاق عند المؤمنين.

**أولًا: التشبيه التركيبي للسنبلة في سياق تشبيه الإنفاق عند المؤمنين.**

**ثانيًا: التشبيه التركيبي للجنة في سياق تشبيه الإنفاق عند المؤمنين.**

### المطلب الثاني: الثنائية الدلالية (الثبات والتغير) للإنفاق عند الكافرين.

**أولًا: الصورة التركيبية للإنفاق.**

**ثانيًا: التشبيه التركيبي للحرث في سياق تشبيه الإنفاق عند الكافرين.**

## المبحث الثاني: الثنائية الدلالية (الثبات والتغير) للإنفاق عند المؤمنين والكافرين.

### مدخل.

يعد الإنفاق وسيلة عظمى من وسائل التكافل الاجتماعي بين أفراد المجتمع، وسببًا من أسباب ازدهار المجتمع اقتصاديًّا واجتماعيًّا، فهو يعود النفس على العطاء، والبذل.[1] وتتبع أهمية الإنفاق من دوره الكبير وترابطه بالنشاط الاقتصادي وتوجيه الحياة الاقتصادية، إذ يتوقف عليه شكل السوق من حيث نوعية السلع، والخدمات المطروحة، ونشاط المنتجين من حيث الكم، والكيف في الإنتاج، فالفعاليات الاقتصادية كلها تنظر إلى نشاط الإنفاق في المجتمع بعين الترقب والاهتمام؛ بسبب اعتماد أنشطتها على قوة الإنفاق.[2]

تتنوع أهداف الإنفاق بين حسن وسيء، فمن الممكن أن يُهدف من الإنفاق إصلاح المجتمعات، أو الحفاظ على الأسرة، وقد يكون إنفاقًا لأمر حسن إلا أن نفس المنفق غير سليمة، فتشعر بأنها مجبرة عليه، أو ليست راضية عن ذلك لسبب ما، أو قد يكون إنفاقًا حسنًا ولكن لأمر من أمور الدنيا، كالإنفاق على ما تهواه الأنفس، وما تعشقه الأعين، أو قد يكون لأمر سيء، كالإنفاق على الحروب، والأفلام الساقطة، أو ما نشاهده اليوم من إنفاق على توافه الأمور مما يفسد الأخلاق والمجتمعات، وهناك أنواع أخرى من الإنفاق، يفسح للقارئ المجال للتأمل بها.

---

[1] ينظر: قيلي، عفاف مكاوي، ودقيس، مريم سليمان: **آيات الإنفاق في سورة البقرة ودورها في معالجة القضايا الاجتماعية في المجتمع**. مجلة التأصيل، جامعة دنقلا، مركز تأصيل المعرفة والعلوم، ع:2، 2019م، ص:10.

[2] ينظر: عامر، باسم أحمد: **نظرية الإنفاق في ضوء القرآن الكريم –رؤية اقتصادية–**. (رسالة دكتوراه). إشراف: كمال حطاب. قسم الاقتصاد والمصارف الإسلامية، كلية الشريعة والدراسات الإسلامية، جامعة اليرموك، إربد، الأردن، 2009م، ص:36.

**ويعرف الإنفاق** بأنه: "صرف المال في حاجة"[1]، أو "صرف المال في الحاجات الضرورية وغيرها"[2]، أو "صرف المال في سبيل الخير من الفرض أو النفل"[3]، أو "بذل المال في وجه من الوجوه لتحقيق منفعة ما"[4]، أو "إخراج المال وبذله في وجوهه الشرعية الواجبة والمستحبة"[5]. لكني أزعم أن الإنفاق لا يقتصر على المال أو النقود المعروفة، بل إن الإنفاق مفهوم واسع يشمل الإنفاق من الأرزاق كلها التي فُضّل بها إنسان على آخر، كالعلم، والمهن، وغيرها، ويشمل المشاعر والأحاسيس، كالحب، والإخلاص، والطيبة، والحنان، والصبر، وضبط النفس، وغيرها، ويؤكد فكرة الإنفاقَ المعنوي، ما نُسب إلى رسولنا الكريم (ﷺ): "**تَبَسُّمُكَ فِي وَجْهِ أَخِيكَ لَكَ صَدَقَةٌ**"[6]، فالابتسامة صدقة، إي إنها نوع من الإنفاق الذي يثاب عليه الإنسان.

وتتعدد **جوانب الإنفاق ومجالاته**، فتشتمل على الزكاة الواجبة ومصارفها، والصدقة المستحبة، والإنفاق على الأهل، والأولاد، وذوي القربى أصولًا، وفروعًا، والنفقة بعد الموت **(الوصية)**، والديات والكفارات، مثل: ما ينفق مقابل القتل الخطأ، والإطعام لمن تعذر صيامه.[7] **وللإنفاق طرق متعددة**، فمنها: الإنفاق على الفقراء، والمساكين، وإسقاط الديون عن الغارمين، والمعسرين، وإطعام الطعام، وكسوة

---

[1] المناوي، محمد عبد الرؤوف: **التوقيف على مهمات التعاريف**. تح: محمد رضوان الداية. ط:1، دار الفكر، دمشق، 1990م، ص:100. والجرجاني، الشريف: **كتاب التعريفات**. (د.ط)، مكتبة لبنان، بيروت، لبنان، 1985م، ص:40.

[2] قلعة جي، محمد رواس، وقنيبي، حامد: **معجم لغة الفقهاء**. ط:2، دار النفائس، الأردن، 1988م، ص:32.

[3] البيضاوي، ناصر الدين: **أنوار التنزيل وأسرار التأويل (تفسير البيضاوي)**. تح: محمد المرعشلي. (د.ط)، دار إحياء التراث العربي، مؤسسة التاريخ العربي، بيروت، لبنان، (د.ت)، ج:1، ص:19.

[4] العمودي، عبد الله بن حسين: **ترشيد الإنفاق من منظور قرآني**. المؤتمر الدولي القرآني الأول: توظيف الدراسات القرآنية في علاج المشكلات المعاصرة، جامعة الملك خالد، كلية الشريعة وأصول الدين، 2016م، مج:2، ص:967.

[5] ينظر: اللاحم، سليمان: **تنوير العقول والأفهام في تفسير آيات الأحكام سورتي البقرة وآل عمران**. ط:1، دار العاصمة، الرياض، المملكة العربية السعودية، 2001م، ص:468.

[6] الترمذي، محمد بن عيسى: **الجامع الصحيح (سنن الترمذي)**. تح: إبراهيم عوض. ط:1، مطبعة مصطفى البابي الحلبي، مصر، 1962م، ج:4، ص:340، (1956).

[7] ينظر: الحازمي، العباس بن حسين: **قواعد قرآنية في الإنفاق المشروع والممنوع**. حولية كلية أصول الدين والدعوة الإسلامية بطنطا، جامعة الأزهر، كلية أصول الدين والدعوة الإسلامية بطنطا، ع:6، 2015م، ص:127-128.

المحتاجين، والإنفاق على طلاب العلم، وعلى الأرامل، والأيتام، وبناء دور العلم، والمستشفيات، والإنفاق في الأحوال الطارئة؛ لمساندة المجتمع، كالكوارث، والحرائق، والزلازل، والفيضانات، والحروب، وغيرها.[1]

## المطلب الأول: الثنائية الدلالية (الثبات والتغير) للإنفاق عند المؤمنين.

**يتعلق أسلوب التشبيه في القرآن الكريم بالنفس الإنسانية**؛ لمعالجة أمراضها، مثل: المال ومدى تعلق النفس به، ويحثّها على الإنفاق. وجاءت آيات الإنفاق في القرآن الكريم، بتصوير بديع، يحرك النفسَ الجموح، ويحثها على الإنفاق في سبيل الله، فتتفاعل مع وجدان الإنسان، حينما يدرك أن الأجر مضاعف بلا حدود، فيندفع نفسيًّا إلى البذل، فيُقضى على المثالب التي جبلت النفوس عليها، وتوضح صور التشبيه الحقائقَ الظاهرة والمعاني النفسية، فيركز القرآن على العناصر الأساسية في حياة الإنسان؛ ليشبه ما يريده بها، فيستثمر تعلق النفس بها، وصعوبة تخليها عنها، فتتكشف الحقائق بذلك.[2]

### أولًا: التشبيه التركيبي للسنبلة في سياق تشبيه الإنفاق عند المؤمنين.

تتجسد **ثنائية الثبات والتغير** في القرآن الكريم لإنفاق المؤمنين، في قوله تعالى: ﴿**مَّثَلُ الَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوالَهم في سَبِيلِ اللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنبَتَتْ سَبْعَ سَنابِلَ في كُلِّ سُنۢبُلَةٍ مِاْئَةُ حَبَّةٍ واللَّهُ يُضاعِفُ لِمَن يَشاءُ واللَّهُ واسِعٌ عَلِيمٌ**﴾ (البقرة:261)، فالإنفاق فيها ثابت، والمتغيرُ الصورة التركيبية للمشبه به، والنموذج (1) يوضح ذلك:

---

[1] ينظر: قيلي: **آيات الإنفاق في سورة البقرة ودورها في معالجة القضايا الاجتماعية في المجتمع**. ص:12.

[2] ينظر: الجيوسي، عبد الله محمد: **التعبير القرآني والدلالة النفسية**. ط:1، دار الغوثاني للدراسات القرآنية، دمشق، 2006م، ص:382-384.

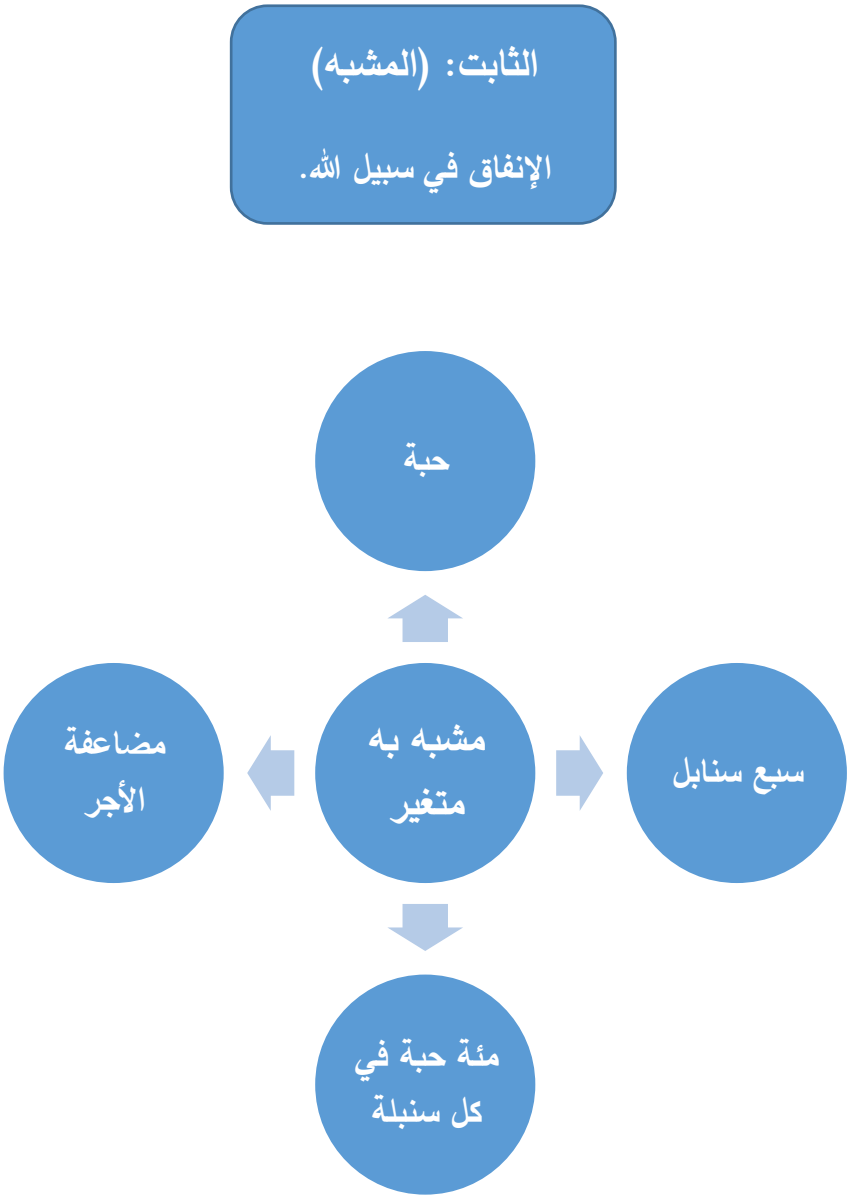


**نموذج (1): ثبات إنفاق المؤمنين، وتغير الصورة النباتية التركيبية للسنبلة.**

تمثل إنفاق من يبذلون أموالهم في أمور الخير، في الآية الكريمة، بصورة نباتية تركيبية لسنبلة تنمو، وتتكاثر، وتتضاعف، في صورة حركيّة تخيّليّة، يتضح فيها التحول من قليل إلى كثير.

ضَرَبَ اللَّهُ تَعَالَى هَذَا المَثَل؛ لِتَضْعِيفِ الثَّوَابِ لِمَنْ أَنْفَقَ فِي سَبِيلِهِ، إِشَارَةً إِلَى أَنَّ الْأَعْمَالَ الصَالِحةَ يُنَمِّيهَا اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ، لِأَصْحَابِهَا، كَمَا يُنَمِّي الزَّرْعَ لِمَنْ بَذَرَهُ فِي الْأَرْضِ الطَّيِّبَةِ.[1] فيشبه حال جَزائِهِمْ وبَرَكَتِهِمْ، أو حال إنْفاقِهِمْ، وحال إعْطاءِ النَّفَقَةِ ومُصادَفَتها مَوْقِعَها وما أُعْطِيَ مِنَ الثَّوابِ لَهم، بِحالِ حَبَّةٍ أنْبَتَتْ سَبْعَ سَنابِلَ، أيْ: زُرِعَتْ في أرْضٍ نَقِيَّةٍ، وتُرابٍ طَيِّبٍ، وأصابَها الغَيْثُ، فَأنْبَتَتْ سَبْعَ سَنابِلَ،[2] فالمَثَلُ لِلنَّفَقَةِ، إذ اعتاد العَرَب الحذف إذا دَلَّ المَعْنى عَلى ما يُرِيدُونَ، فكأنه أرادَ: (مثل نَفَقَةِ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أمْوالَه)، فالحَسَنَة في النَّفَقَةِ في سَبِيلِهِ تُضاعَفُ بِسَبْعِمِائَةِ ضِعْفٍ.[3] ووصل حذف المضاف (نفقة) التعبيرَ بين نمو الحبة وتكاثرها، وبين المنفقين في سبيل الله، فيظل الذهن يربط بينهما، ولا يشغل بسواهما، وتزداد الصورة وضوحًا، وإثارة للمشاعر الإنسانية، بقوله: ﴿**واللَّهُ يُضاعِفُ لِمَن يَشاءُ**﴾ (البقرة:261)، وتنفتح أمام الإنسان آفاق رحبة لعطاء الله الواسع الذي لا ينفد.[4]

يثير هذا المثل الطمع المحمود في الإنسان، تحريضًا للأنفس على بذل الأموال في سبيل الله، ففي تشبيه بذل المال في سبيل الله ببذر الحب في الأرض الزراعية المعطاء الطيبة، إثارة قوية لمطامع الإنسان، فالناس يعرفون قيمة العطاء الزراعي، فيثار طمع الإنسان للربح، والثروة.[5]

---

[1] ينظر: ابن كثير: **تفسير القرآن العظيم**. ج:1، ص:324.

[2] ينظر: ابن عاشور: **التحرير والتنوير**. ج:3، ص:41.

[3] ينظر: ابن الجوزي، أبو الفرج: **تفسير ابن الجوزي (زاد المسير في علم التفسير)**. تح: عبد الرزاق المهدي. ط:1، دار الكتاب العربي، بيروت، لبنان، 1422هـ، ج:1، ص:238.

[4] ينظر: الراغب: **وظيفة الصورة الفنية في القرآن الكريم**. ص:184.

[5] ينظر: الميداني، عبد الرحمن حسن حبنكة: **أمثال القرآن وصور من أدبه الرفيع**. ط:2، دار القلم للطباعة والنشر والتوزيع، دمشق، سورية، 1992م، ص:86-87.

يرى الباحث أن الغاية الأساسية من ضرب المثل بالسنبلة هي فكرة الكم، وأقصد بالكم عدد مرات الإنفاق، أي الاستمرارية في الإنفاق، ولا يُفهم من فكرة الكم المقدار، أو المبلغ المالي، حتى لو كان مهمًا في بعض الأحيان، إلا أنه ليس المراد. وكما نحن بحاجة إلى النباتات باستمرار؛ كي تستمر الحياة، فنحن بحاجة إلى الإنفاق المستمر، فالسنابل أو القمح خاصة المستخدم في صناعة الخبز، الذي يعد غذاء أساسيًّا، يتوافق مع فكرة الإنفاق التي ينبغي أن تكون أساسية دائمة في حياتنا.

**ترتبط ثنائية الثبات والتغير** في الآية الكريمة: ﴿**مَثَلُ الَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوالَهم في سَبِيلِ اللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنبَتَتْ سَبْعَ سَنابِلَ في كُلِّ سُنبُلَةٍ مِائَةُ حَبَّةٍ واللَّهُ يُضاعِفُ لِمَن يَشاءُ واللَّهُ واسِعٌ عَلِيمٌ**﴾ (البقرة:261)، **بثنائية القلة والكثرة**، فالثابت هو الإنفاق، والمتغير هو الصورة النباتية التركيبية للمشبه به **بتحولها من القليل إلى الكثير**، ترغيبًا في الإنفاق. فالصورة تفصّل صورة المشبه به، وتجمل صورة المشبه، فالسنبلة أنبتت سبع سنابل تحتوي كل منها على مئة حبة، فيزيد **هذا التدرج البطيء في** تشويق المخاطب، ويرغبه بالإنفاق، فيظل يتابع مشهد نمو الحبة وهي تنمو وتكبر، كأنها أمام عينيه في مشهد محسوس جميل، مثير للخيال، ومشوق للنفس، فتغدو الحبة سبع سنابل، ثم سبعمئة، ثم يترك **للخيال** أن يتابع تضاعف الأجر، بمضاعفة الحبة. **وليس المراد حقيقة العدد، بل التكثير والمضاعفة**؛ ليلقي التعبير ظل الكثرة في حس المخاطب وخياله، فيندفع إلى الإنفاق، طلبًا للزيادة، ومضاعفة للأجر.[1]

وتعزز الدلالة المعجمية المشهد؛ لتؤكد **التحول من القلة إلى الكثرة**، فالمراد من عدد السنابل السبع هو **التكثير والمضاعفة**، فالعرب تقول: "سَبَّعَ الله لك، أي: ضَعَّفَ لك ما صنعت سبعة أَضعاف، وسَبَّعَ الله لك الأَجر أَراد التضعيف، وسَبَّعَ الله لفلان تَسْبِيعًا، أَي: تابع له الشيء بعد الشيء، وهو دعوة تكون في الخير والشر، والعرب تضع التسبيع موضع التضعيف وإن جاوز السبع"[2]، واقتضى السياق

---

[1] ينظر: الراغب: **وظيفة الصورة الفنية في القرآن الكريم**. ص:184.

[2] ابن منظور: **لسان العرب**. مادة: (سبع).

التعبير بالجمع (سنابل)، إذ إن سنابل جمع كثرة، فسيقت الآية في مقام **التكثير ومضاعفة** الأجور.[1] وتتفق **دلالة القلة المتمثلة في الحبة، ودلالة الكثرة** المتمثلة في (سبع) و(سنابل)، مع الدلالة المقصودة التي تعني **دفع القليل للحصول على الكثير**، ويثير هذا التحول ذهن المتلقي، فيعزز البواعث الإيمانية للإنفاق الذي يعد ركيزة في التكافل الاجتماعي.[2]

وتدهش المتلقي جملتا ﴿**أَنۢبَتَتۡ سَبۡعَ سَنَابِلَ**﴾، و﴿**فِي كُلِّ سُنۢبُلَةٖ مِّاْئَةُ حَبَّةٖ**﴾، إذ تتشكل **صورة حسية بصرية، فيتخيل** سنبلة تنبت سبع سنابل، فيجد نفسه متأملًا خاشعًا مسبحًا بقدرة الله، ويزداد انتباهه للصورة الحسية حينما تتحول إلى مئة حبة، فتكتسب بذلك الاتساع والتمدد.[3]

ويتصاعد **الأفق التخيلي** في صورة المشبه به من جملة ﴿**أَنۢبَتَتۡ سَبۡعَ سَنَابِلَ**﴾، فتجسد تحولًا دلاليًّا لافتًا في **الدلالة على الكثرة**، بتحول السنبلة إلى سبع سنابل، ويشرع **خيال المتلقي** بالانتقال من المستوى الدلالي المألوف في الآية إلى مستوى دلالي بصري مستمد من خارج السياق اللغوي للآية، فيستدعي المتلقي صورة السنبلة المتكاثرة، فيثير هذا التحول اللافت المقاربة بين **الثواب الكبير** للإنفاق القليل، **والتكاثر** المثير للسنبلة. ويتصاعد -أيضًا- بجملة ﴿**فِي كُلِّ سُنۢبُلَةٖ مِّاْئَةُ حَبَّةٖ**﴾ فيُضاعف يقظة المتلقي، فيبدو المشبه به **تحولًا عدديًّا متزايدًا في ظاهره**، بتحول السنبلة إلى سبع سنابل، إلى أن تكون سبعمئة سنبلة، ويبدو في **جوهره تحولًا دلاليًّا**، بتعزيز أهمية الإنفاق وثوابه، أي: بالتحول الذهني الوجداني الذي يشعر به المتلقي في المقاربة بين زيادة ثواب الإنفاق، والزيادة في عدد السنابل. **وليس المراد في الجملتين تحديد عدد نهائي للسنابل، وإنما التمثيل الحسي للثواب العظيم الذي يناله المنفقون في**

---

[1] ينظر: السامرائي، فاضل صالح: **التعبير القرآني**. ط:4، دار عمار، عمان، 2006م، ص:40.

[2] ينظر: خمايسة: **نعت المشبه به في القرآن الكريم في ضوء نظرية السياق**. ص:35.

[3] ينظر: **المرجع السابق**. ص:39.

**سبيل الله**، فتحولت **الدلالة العددية المتمثلة** بعدد السنابل **اللامحدود إلى دلالة ذهنية** تتمثل بالثواب العظيم الذي لا يحيط به تخيل بشر.[1]

ويفضي التشبيه المركب إلى تكثيف الصورة المتخيلة للمشبه به؛ حينما توضع البذرة في الأرض، ثم يمضي عليها وقت، ثم تنبت سبع سنابل، ثم يكون في كل سنبلة منها مائة حبة، فتؤخذ حبة من هذه المائة التي تحتويها سنبلة من هذه السنابل السبعة لنضعها في الأرض من جديد، ولتنبت هذه الحبة سبع سنابل أخرى في كل سنبلة مائة حبة أخرى، وهكذا مما لا نهاية له وإن كانت له بداية، ويغرق في هذا التخيل، والتحليل، والتطويل، والإغراء، مَن يعيش حياته موازنًا بين الربح والخسارة.[2]

وتعقيبًا على ما تقدم، يتجاوب المشبه به في المثل القرآني مع التشبيه؛ لتحقيق غرض نفسي، فيكون أكثر تأثيرًا، وأقوى دلالةً من المشبه، ويُلمس مدى تأثير التشبيه الحسي في النفس بالمال، إذ يفرض وجوده بقوة في الحياة الاجتماعية، ويمثل دوره في القيم الإنسانية، فيحرك القرآن الكريم النفس على إنفاقه في سبيل الله، ويَعِدُ المتقين وعدًا حسنًا على ذلك بسخاء، ويضاعف الأجر، واعتمد التشبيه صورةً تهيئ المناخ النفسي للإنفاق، بتفاعله مع ما بداخل الإنسان الذي يجد إنفاقه مضاعفًا بإمداد غير مترقب، فيندفع نفسيًّا إلى الإنفاق بيد مبسوطة.[3]

تتجلى جماليات التشبيه التمثيلي المركب بالمقاربة بين عناصر صورة المشبه وعناصر صورة المشبه به، فالمشبه صورة المال القليل المنفَق في سبيل الله، والمشبه به الحبة التي أنبتت سبع سنابل إلى سبعمئة حبة فأكثر، فيحسن التقابل مع من ينفق القليل في سبيل الله ويكون أجره كثيرًا، أي إن من

---

[1] ينظر: خمايسة: **نعت المشبه به في القرآن الكريم في ضوء نظرية السياق**. ص:82-83.

[2] ينظر: لقمة، محمد محمد: **الجوانب الأدبية والبلاغية في القصة القرآنية**. (رسالة دكتوراة). قسم الأدب والبلاغة، كلية اللغة العربية، جامعة الأزهر، 1968م، ص:520-521.

[3] ينظر: الصغير، محمد حسين: **الصورة الفنية في المثل القرآني (دراسة نقدية وبلاغية)**. (د.ط)، منشورات وزارة الثقافة والإعلام، دار الرشيد للنشر، الجمهورية العراقية، 1981م، ص:172-173.

أنفق شيئًا –ولو قليلًا– في سبيل الله، يحصد كثيرًا من الأجر والثواب. إذ اشتملت لوحة التمثيل على حَبٍّ وزرع، ونبات خصيب، وسنابل سبع لكل حبة، ومئة حبةٍ في كل سنبلة، وعند تحليل العناصر نجد أن البذل يشبه عملية الزرع، وتنمية الله له تشبه النبت الجيّد، ومضاعفة الأجر تشبه تكاثر السنابل، فيتسم هذا التمثيل بالدقة في تلاقي العناصر، وتناسقها في اللوحة التمثيلية، ومماثلتها لما ضرب المثل له.[1]

**يرسم السياق مفهوم الصدقة بتفصيل وإسهاب** مظلَّلًا بظلال نفسية مأنوسة، ويبين آدابها النفسية والاجتماعية، فتتحول الصدقة عملًا تهذيبيًّا لنفس معطيها، وعملًا نافعًا مربحًا لآخذيها، ويتحوّل المجتمع عن طريقها إلى أسرة يسودها التعاون، والتكافل، والتواد، والتراحم، وترفع البشرية إلى مستوى كريم، يتساوى فيه المعطي والآخذ.[2] فمفهوم الصدقة يبدأ بالحض والتأليف، لا بالفرض والتكليف، فيستجيش المشاعر، والانفعالات الحية في الكيان الإنساني كله، ويعرض صورةً نابضةً ناميةً معطيةً واهبةً، صورةً للزرع، هبةِ الأرض أو هبةِ الله، فالزرع يعطي أضعاف ما يأخذه، ويهب غلاته مضاعفة بالقياس إلى بذوره، يعرض هذه الصورة الموحية للذين ينفقون أموالهم في سبيل الله، فينتهي المعنى الذهني للتعبير إلى **عملية حسابية**، ويعرض التعبير مشهدًا حيًّا أوسع، وأجمل، وأكثر إثارة للمشاعر، وأكثر تأثيرًا في الضمائر، هو مشهد الحياة النامية، والطبيعة الحية، ثم مشهد العجب في عالم النبات، فالعود الذي يحمل سبع سنابل، والسنبلة التي تحوي مائة حبة، ويتجه موكب الحياة النامية الواهبة بالضمير البشري إلى البذل والعطاء، فهو لا يعطي بل يأخذ، ولا ينقص بل يزداد، وتمضي موجة العطاء

[1] ينظر: الميداني: **أمثال القرآن وصور من أدبه الرفيع**. ص:20.

[2] ينظر: قطب: **في ظلال القران الكريم**. ص:304.

والنماء في طريقها، تضاعف المشاعر التي استجاشها مشهد الزرع، ويضاعف الله لمن يشاء، بلا عدة ولا حساب، من رزقه ورحمته.[1]

## ثانيًا: التشبيه التركيبي للجنة في سياق تشبيه الإنفاق عند المؤمنين.

تجلت **ثنائية الثبات والتغير** في قوله تعالى: ﴿**وَمَثَلُ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمُ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ وَتَثْبِيتًا مِنْ أَنْفُسِهِمْ كَمَثَلِ جَنَّةٍ بِرَبْوَةٍ أَصَابَهَا وَابِلٌ فَآتَتْ أُكُلَهَا ضِعْفَيْنِ فَإِنْ لَمْ يُصِبْهَا وَابِلٌ فَطَلٌّ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ**﴾ (البقرة:265)، فالمشبه (الإنفاق) ثابت، والمتغيرُ الصورة التركيبية للمشبه به، والنموذج (2) يوضح ذلك:

[1] ينظر: قطب: **في ظلال القران الكريم**. ص:306.

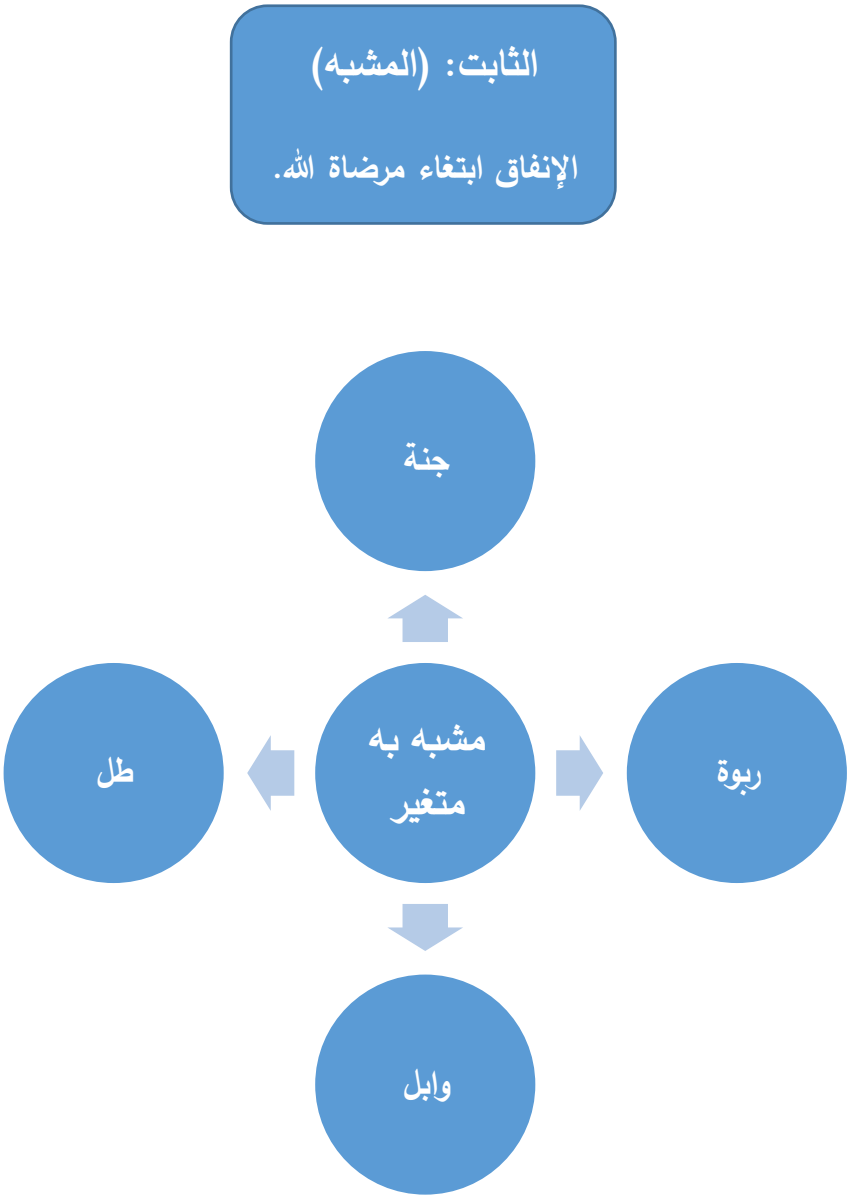


**نموذج (2): ثبات إنفاق المؤمنين، وتغير الصورة النباتية المائية التركيبية للجنة.**

تمثل المشبهُ بإنفاق المؤمنين الذين يهدفون من إنفاق أموالهم الحصولَ على مرضاة الله، والتثبيتَ من أنفسهم، واحتوت الصورة التركيبية للمشبه به على صورةٍ لِجنةٍ من الأشجار على ربوةٍ مرتفعة، تتحول، فتنمو، وتثمر، تحت ظروف بيئية طيبة، وُفِّرَتْ لها أسبابُ النماء والعطاء، فأثمرت، وأعطت بسخاء شديد، سواءً اشتد نزول المطر عليها أم قل، فعطاؤها لا يتوقف، ولا ينقطع تحت أي ظرف.[1]

وصفت الآية الكريمة حالة المؤمن المتصدق وصورته تصويرًا دقيقًا، فشبهت المنفق في سبيل الله بالجنة التي يصيبها الماء فتؤتي أكلها الدائم، وهي صورة تمثيلية منتزعة من الواقع لا من الخيال، فمثلت من ينفق ماله ابتغاء مرضاة الله، وتثبيتًا للإيمان في قلبه، ولفضيلة الجود عنده، بزارعٍ حصيفٍ عاقلٍ يزرع حبة في جنة سمينة التربة، بربوة لا تجرفها السيول، فنزل عليها المطر الغزير، فآتت أكلها ضعفين، فإن لم يصبها المطر الغزير كفاها الطلّ وهو المطر الخفيف؛ لتعطي الثمر الطيب المضاعف.[2]

يتمثل **الثابت** في الآية الكريمة **بصورة المنفق** ابتغاء وجه الله ومرضاته، أما **المتغير** فظهر بصورة نباتية مائية تركيبية، تتحول فيها جنة تقع في ربوة، تبرز أمام العيون، فتُرى؛ لجمال شجرها، وطيب ثمرها، وينزل عليها المطر من السماء –سواءً كان وابلًا شديدًا أم طلًّا خفيفًا– فتنمو، ويتضاعف ثمرها، فتتحول إلى جنة ذات ضعفين من الأُكل والثمرات، لطيب تربتها، وكرم مغرسها.

اقترن **الإنفاق** في الآية الكريمة بمرضاة الله وتثبيت النفوس، فمثَّلَ الرحمةَ والبركةَ، إذ ينجذب القلب روحيًّا، فينفتح؛ ليتلقى القربات، ويبذلها على فطرتها، وفي سبيلها المطلوب، كما تتفتح الأرض في

---

[1] ينظر: النجار، زغلول: **تفسير الآيات الكونية في القرآن الكريم**. ط:1، مكتبة الشروق الدولية، القاهرة، مصر، 2007م، ج:1، ص:124.

[2] ينظر: الميداني: **أمثال القرآن وصور من أدبه الرفيع**. ص:51.

المكان الرحب، والذروة المرتفعة، تباركها النسمات، وتباكرها المزن، فيتضاعف عطاؤها، ويزكو ثمرها، فما جاء متفتحًا متبرعمًا شُبِّه بمثله.[1]

تتحول الثنائية الدلالية للمشبه به **من الإجمال إلى التفصيل**، فالجنة وصف مجمل، والجمل التي تليها تفصيل لها، فهذه الجنة بربوة، مكان مرتفع، وفيه تراب، ومواجهة للشمس، وتتصاعد حدة النماء، حينما يأتي المطر الشديد فيتضاعف الخير، أو الندى فينعش الثمر، ويجعلها أكثر نضارة، فنلمح من هذه التفصيلات رسائل تحفيزية للإقبال على الخير والإنفاق في سبيل الله.[2]

**تناظر مادةُ (جنن) الإنفاقَ الخفي، أو النفقة بالخفاء، إذ تدل على الستر، والخفاء، والمواراة، والحماية**، فنقول: "جَنَّ الشيءَ: سَتَره، وَيُقَالُ لِكُلِّ مَا سَتر: جنَّ وأَجنَّ، وأَجْنَنْتُه، أَي: وارَيتُه، وَكلُّ مستورٍ: جَنِينٌ، والجَنينُ: المَسْتُورُ فِي نُفُوسِهِمْ، والجَنانُ: الأَمر الْخَفِيُّ، وأَجْنَنْتُ الشَّيْءَ فِي صَدْرِي، أَي: أَكْنَنْتُه، والجُنَّةُ: الوِقايةُ"[3]، فالجنة* ما زالت غير مثمرة، أي إن بذورها غرست في التربة، وغطيت بالسماد، أي إنها في الطور الأول للنمو، وتماثلها النفقة الخفية، التي زرعت في كف فقير، فترتبط بما تضمره النفوس من أهداف مخلصة لنيل رضا الله –عز وجل– والتثبيت من النفوس، وكانت حماية البذور

---

[1] ينظر: الصغير: **الصورة الفنية في المثل القرآني (دراسة نقدية وبلاغية)**. ص:190–191.
وينظر: دوب، رابح: **خصائص التشبيه في القرآن الكريم**. مجلة العلوم الإسلامية، جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية، الجزائر، ع:3، يناير/ 1992م، ص:63.

[2] ينظر: خمايسة: **نعت المشبه به في القرآن الكريم في ضوء نظرية السياق**. ص:36.

[3] ابن منظور: **لسان العرب**. مادة: (جنن).

* الجنة: هي كل بستان ذي شجر يستر بأشجار الأرض. زيدان: **الفروق اللغوية في القرآن الكريم**. ص:441.
والسر في تسمية الجنة بهذا الاسم أن أجمل البساتين وأكرمها منظرًا ما كانت أشجاره مظللة متكاثفة الظلال، وهذا جار على ما أودعه الله في النفوس من حب المناظر الجميلة، وفي الشجر الملتف المتكاثف جمال الشكل واللون، وفيه أنس للنفوس لما فيه من حياة وبهجة، وهو وسيلة من وسائل التنعم والترفه عند البشر قاطبة. ينظر: داود: **معجم الفروق الدلالية في القرآن الكريم لبيان الملامح الفارقة بين الألفاظ متقاربة المعنى، والصيغ والأساليب المتشابهة**. ص:392.

في غرسها، وحماية الفقير بالإنفاق عليه في خفاء، وحماية المنفق في الإنفاق الذي يبتغي رضا الله، وحماية النفس من الآثام، والمن، والأذى، والرياء، بستر تلك النفقة، وإنفاقها في الخفاء.

**وتفيد مادة (ربا) معاني الزيادة، والنماء، والأخذ أكثر من الإعطاء، والعلو، والارتفاع، والعظمة، والنشأة**، فنقول: "رَبا الشيءُ: زَادَ وَنَمَا، وأَرْبَيْتُه: نَمَّيته، وأَرْبَيْت إِذا أَخَذْتَ أَكثرَ مِمَّا أَعْطَيْتَ، والرَّبْوَةُ والرُّبْوَةُ والرِّبْوَة: كلُّ مَا ارْتَفَعَ مِنَ الأَرض، ورَبَوْت الرَّابِية: عَلَوْتها، وأَرضٌ مُرْبِية: طَيّبة، ورَبِيْتُ رِباءً ورُبِيًّا: نَشَأْتُ فِيهِمْ، ورَبَوْتُ فِي بَني فُلَانٍ: نَشَأْتُ فيهِم، ورَبَّيْته تَرْبِيَة وتَرَبَّيْته: غَذَوْتُه، وقوله: ﴿**اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ**﴾ (فصلت:39)، و(الحج:5)، مَعْنَاهُ: عَظُمَتْ وانْتَفَخَتْ"[1]، فتتشابه مع مكان النفقة المختار بعناية، فتؤدي إلى النمو، والزيادة، والأخذ أضعاف ما أعطي، أي إنها تماثل الفقير المستحق بصدق، أي إن البذر غرس في مكان جيد اختير بعناية، فتحقق بذلك شرطٌ آخرُ من شروط الإنفاق، هو الاستحقاق، وتتناسق دلالة مادة (ربا) مع الهدف السامي، الذي يؤدي للعلو والارتفاع، وأعني به الهدف من الإنفاق، وهو نيل رضا الله، والوصول للدرجات العليا.

تعد **الروابي** أفضل البيئات المعروفة، وأنسبها لنمو أشجار الفاكهة، والثمار الأخرى؛ إذ تتميز الربوة* بلطف مناخها، ووفرة مائها، وزيادة فرص تعرضها لأشعة الشمس، ولأمطار السماء، ولرطوبة

---

[1] ابن منظور: **لسان العرب**. مادة: (ربا).

* الربوة: تعد من أشكال سطح الأرض المستوية والمرتفعة فوق مستوى سطح البحر ارتفاعًا متوسطًا يتراوح بين 300-600م، دون الجبل وفوق التل، فماء المطر لا يغرقها مهما انهمر؛ لاندفاعه بالجاذبية إلى المستويات الأقل في منسوبها من الربوة في المنطقة المحيطة بها، بعد تشبع تربتها، وصخورها، بالماء اللازم المرطب لها، المخزون فيها، ويساعد ضبطُ هذا المخزون المائي النباتَ على القيام بأنشطته الحيوية بكفاءة دون إغراق أو جفاف؛ لأن الجفاف يقضي على النبات، والإغراق بالماء يؤدي إلى تعفن الجذور، وتعطنها، وتحللها، والقضاء عليها، وتأخذ التربة، والصخور، والنباتات النامية، كفايتَها من الماء عند هطول المطر على الربوة، ويفيض الزائد عن الكفاية إلى المناسيب الأخفض، حتى يصل الأودية، والسهول المحيطة بالربوة، ويساعد انضباط كمية الماء في تربة الربوة، وصخورها، على امتداد جذور النباتات، والأشجار، لأعمق مما هي عليه، فتتضاعف العناصر، والمركبات التي يمكن الوصول إليها وامتصاصها، ويزيد من تثبيت النباتات بالأرض، ومقاومته لشدة هبوب الرياح، والمتغيرات البيئية. ينظر: النجار: **تفسير الآيات الكونية في القرآن الكريم**. ج:1، ص:123.

الجو، ولحركة الرياح، ولتجدد الهواء حولها، وتتميز بمضاعفة إنتاجها عند هطول الأمطار، وبوفرة ثمارها عند تضاؤل الرطوبة في الجو إلى رذاذ أو ندى، فنباتاتها تستفيد من ماء المطر مهما قل، وبماء الندى المتكثف حولها بمعدلات أعلى من تكثفه في مناطق أخرى.[1]

ويوحي **تصوير الوابل والطل في الآية الكريمة بالإنفاق الكثير والقليل**، إذ تتركز فكرة الآية في أن **الإنفاق الخالص** لوجه الله –وإن قل– يتضاعف أجره. فالوابل الهاطل من السماء عامل نماء وحياة، لقابلية الربوة للخير، واستعدادها له، فهي تمثل قلب المؤمن العامر بالإيمان، المستعد لبذل الخير، والعطاء باستمرار، فهي جنة بربوة، وثمار، وأرض طيبة، وتربة صالحة للنماء والحياة، والسماء تجود عليها بغيثها الكثير أو القليل، وهي تستقبله، فتفيض عطاء ونماء.[2] **فتحولَ المعنى الذهني للإنفاق الثابت إلى مشاهد حركية** تصور الحالة النفسية في مشهد يبرز جمال التشبيه القرآني، وإبداعه في العرض، وجمال تنسيقه، وروعة نظمه وتأليفه، وجرس ألفاظه، ليدل على صورة معانيها.[3] فتحول معنى الإنفاق الذهني إلى مشاهد حركية تمثلت بنمو الجنة، ومشهد حركة المطر الساقط عليها، ثم مشهد الإثمار المضاعف.

**تدل مادة (وبل) على معنى المواظبة، وضخامة العطاء، وثقله**، فنقول: "وابل العمل: واظب عليه"[4]، و"رجل وابل: جواد يبل بالعطايا"[5]، "ووبلت السماءُ الأرض: غمرتها بالماء"[6]، و"الوَبْلُ والوابِلُ: الْمَطَرُ الشَّدِيدُ الضَّخْم القطْرِ، وماءٌ وَبِيلٌ: هُوَ الثقيلُ الغليظُ جِدًّا، ووَبَلَةُ الطعامِ: تُخَمَتُه، والوَبالُ: الشِّدَّةُ

---

[1] ينظر: النجار: **تفسير الآيات الكونية في القرآن الكريم**. ج:1، ص:122–123.

[2] ينظر: الراغب: **وظيفة الصورة الفنية في القرآن الكريم**. ص:185–186.

[3] ينظر: قاسم، محمد محمود صالح: **التشكيل البلاغي للصورة الفنية في القرآن الكريم**. (رسالة دكتوراة). إشراف: عبد القادر الرباعي. جامعة اليرموك، 2002م، ص:194.

[4] أبو العزم: **معجم الغني الزاهر**. مادة: (وبل).

[5] مجمع اللغة العربية: **المعجم الوسيط**. مادة: (وبل).

[6] عمر: **معجم اللغة العربية المعاصرة**. مادة: (وبل).

والثِّقَل"[1]، فتتناسب مع المنفق المخلص السّخيّ، المواظب على الإنفاق في سبيل نيل رضا الله، فيجود بكرمه وعطائه. أما الطل فهو: "المَطَرُ الصِّغارُ القَطر الدائمُ، وَهُوَ أَرْسخُ الْمَطَرِ نَدًى"[2]، فيدل على معنى الاستمرار والديمومة، أي قليل دائم خير من كثير منقطع، فالإنفاق لو كان قليلًا، إذا دام، فإنه يضاعف أيضًا، فما ينبغي التركيز عليه، هو الإخلاص، والاستمرار، وليس الكم.

وعطفًا على ما تقدم، تميزت تشبيهات القرآن الكريم **بانتقاء المفردات**، واختيارها اختيارًا مناسبًا للمعنى، وما يتطلبه المقام، فهي تجعل الكلام موحيًا مشعًّا يؤثر في القلوب بطريقة فنية ونفسية عجيبة،[3] فاختيار لفظة **(الجنة)** تدل على كل شيء جميل، ولم يختر بدلًا منها لفظة بستان، واختار لفظة **(ربوة)** وهي المكان المرتفع ولم يقل: جبلًا، فكلما جلا التشبيه المعنى زاده قوة ووضوحًا، فصار أملك للنفس وأبعد للتأثير.[4]

ويتحقق **التكامل الدلالي والفني بين صورتي المشبه والمشبه به**، باحتياج صورة المشبه به إلى عناصر فنية تناظر عناصر المشبه، وتشكل **كلمة (جنة)** نواة صورة المشبه به، ولا يمكن الاكتفاء بلفظ الجنة، لاستقامة المعنى المراد، فتنقسم النواة (الجنة)، وتتفرع، ابتداء من شبه الجملة **(بربوة)**، التي أضافت **بعدًا دلاليًّا وجماليًّا** لصورة الجنة، وتتنامى وتتكامل بوساطة جملة **(أصابها وابل)**، فتنسجم كثرة المطر وغزارته فيها، مع كثرة ثواب الذين ينفقون أموالهم ابتغاء مرضاة الله، وتضيف **مشهدًا بصريًّا** للمشبه به، فتمنح المتلقي **أفقًا تخيليًّا** لنزول المطر الغزير على أشجار الجنة، وما يرافق نزول المطر من حركة الأشجار، وتمايلها، وغسلها بالماء. وتتصل الجملة المعطوفة **(فآتت أكلها ضعفين)** بدلالة

---

[1] ابن منظور: **لسان العرب**. مادة: (وبل).

[2] **المصدر السابق**. مادة: (طلل).

[3] ينظر: شرف، حفني محمد: **إعجاز القرآن البياني بين النظرية والتطبيق**. ط:4، اللجنة العامة للقرآن والسنة، المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية، الجمهورية العربية المتحدة، 1970م، ص:339.

[4] ينظر: حسين، عبد القادر: **القرآن والصورة البيانية**. ط:2، عالم الكتب، بيروت، لبنان، 1985م، ص:110.

**(أصابها وابل)** دلاليًا وفنيًا، فالمطر الغزير أدى إلى نضوج ثمار الشجر في الجنة، ويتناسب معنى لفظة **(ضعفين)** مع غزارة المطر، وكثرة ثواب المنفقين في صورة المشبه، وميل النفس الإنسانية للأشجار المثمرة، وأضافت جملة **(فآتت أكلها ضعفين) بعدًا نفسيًّا** لجملتي **(بربوة) و(أصابها وابل)**؛ لأنها تثير شهوة الأكل في سياق تخيل صورة المشبه به. **وترمي دلالة (بربوة) و(أصابها وابل)** إلى ترغيب الإنسان بالإنفاق في سبيل الله، فصورة الجنة على ربوة، وقد ارتوت بالمطر، ونضج ثمرها للآكلين، تمثل ترغيبًا للنفس الإنسانية لتنفق في سبيل الله **وتفضي دلالة (بربوة) و(أصابها وابل)** إلى كبح النفس عن التشكك والتردد، أي إن المنفقين المؤمنين يمنعون أنفسهم من التردد في الإنفاق في وجوه البر.[1] وتحمل مفردة **(ربوة)** صورة فريدة في تخيل الجنان تتساقط عليها الأمطار فتمسح سطحها، وهي سامقة شامخة، فتزيل القذى عن أشجارها، وتثبت جذورها، وتمنحها القوة، والحياة، والاستمرار، وهي على نشز الأرض تباكرها هذه الهبات وما يوحي ذلك من مناخ نفسي يسكن إليه الضمير.[2]

يظهر التحول في اختيار الجنة في الآية الكريمة لعوامل عدة، إذ يتناسب اختيار مكان الجنة والزرع، مع اختيار مكان الإنفاق وسببه، فاختيار المكان الصحيح عامل مهم يؤدي إلى مضاعفة الأجر، فسبب اختيار مكان الجنة أنها في ربوة يتناسب مع سبب الإنفاق أنه ابتغاء مرضاة الله، واختيار جنة بربوة أنها تتميز عن غيرها من الجنات والبساتين في نوعية ثمارها المنتجة وكميتها وجودتها ونقائها وصفائها، فتتناسب مع اختيار مكان الإنفاق، أهو لله أم لغيره؟ فإن كان لله فستكون نتيجته أضعافًا مضاعفة للأجر والثواب، ونوعية هذا الأجر مختلفة عن الأجور الأخرى. وكلنا نعلم أن البستان يحتاج إلى العمل، فلو تملك أحدهم بستانًا، في أفضل مكان، ولم يهتم به، ولم يزرعه، ولم يعمل فيه، فإنه سيكون خرابًا، ولن ينتج ثمرًا، ففكرة ضرب المثل، تفيد آفاقًا أخرى، فمن ينوِ الإنفاق ابتغاء مرضاة الله،

---

[1] ينظر: خمايسة: **نعت المشبه به في القرآن الكريم في ضوء نظرية السياق**. ص:86-88.

[2] ينظر: الصغير: **الصورة الفنية في المثل القرآني (دراسة نقدية وبلاغية)**. ص:251-252.

دون أن ينفق، أو أن يطبق ما نوى، فلن يكون له أجر أو ثواب أصلًا، فالعامل الثاني لاختيار الجنة هو العمل، أي التعب، والعناية، والاهتمام، والاستمرار، والخبرة، ليكون الأجر مضاعفًا، وأسأل تمثيلًا على ذلك: لو وجد مريض يحتاج إلى عملية جراحية بسرعة قصوى، بمبلغ مالي يتساوى مع تكلفة بناء مسجد، فما الأولى بالإنفاق؟! وصاحب البستان إن لم يكن خبيرًا بالزراعة، فقد تفشل عملية الإثمار، فمثلًا، لو زرع نباتات في غير الموسم المناسب لزراعتها، فكيف ستنبت؟ وهل ستثمر له شيئًا؟ فيتضح أن العامل الثالث لاختيار الجنة أو الإنفاق، هو الوقت، وعامل آخر، هو النوعية، أي نوعية الثمار المزروعة، فلو أراد الزارع محاصيل زراعية ذات جودة عالية، فعليه أن يختار بذورًا ذات جودة عالية، أو صنف جيد، أو ما هو متعارف عليه بالنخب، وكذلك الإنفاق، فلو كانت المدينة محتاجة لمستشفى، فينبغي للمنفق أن يبني مستشفى لا مدرسة، ولو طلب أحدهم منك عنبًا، من المنطق أن تعطيه وتنفق عليه عنبًا، لا زيتونًا، فالإنفاق حسب الحاجة والمطلوب.

وتناظر دلالة المكان المرتفع للجنة (الربوة)، ارتفاع المراد أو الهدف المطلوب، وعظمة شأنه وقيمته، فالمطلوب هو أفضل الثمار، وأكثرها جودة، وألذها طعمًا، وأحلاها مذاقًا، فيتناسب مع الهدف الأسمى لإنفاق المؤمن، وهو الوصول إلى مرضاة الله، والدرجات العليا، والجنة العظمى.

**اعتمادًا على ما تقدم**، تؤثر الصورة الفنية في القرآن الكريم في **النفس الإنسانية**، وتثير الانفعالات، فتثير شوق الإنسان، فيعمل فكره، ويبذل جهده لمعرفة المقصود، فتتحقق له متعة اكتشاف المعنى المستور، وتقاس قوة الصورة بمقدار إثارتها للعواطف والاستجابة لها، فالصورة بقاء أثر الإحساس في النفس بعد زوال المؤثر الخارجي.[1] ويؤثر القرآن الكريم بوساطة التشبيه في العاطفة بترغيبها وترهيبها، ويؤلف بين النفس والعاطفة في صورة معبرة، فيحث النفس على الإنفاق في سبيل الله، ويدفعها نفسيًّا للعطاء مقابل الأجر المضاعف. فالتشبيه يضاعف اليقظة، ويعمق الإحساس تجاه المعنى، وينقل

[1] ينظر: الراغب: **وظيفة الصورة الفنية في القرآن الكريم**. ص:417-418.

المتلقي من مستوى دلالي مسطح مألوف إلى مستوى دلالي تتعالق فيه الدلالة مع المشاعر في فضاء تخيلي يفتح نوافذ دلالية للنص لا تقدر على فتحها اللغة المألوفة. ولم تتوقف الصورة التشبيهية في القرآن الكريم عند حد الصورة المادية الحسية للشبه بين الأشياء، بل تجاوزتها إلى الصورة النفسية، وأضفت عليها الصورة التشخيصية والحركية المتجددة.[1]

## المطلب الثاني: الثنائية الدلالية (الثبات والتغير) للإنفاق عند الكافرين.

تتجلى ثنائية الثبات والتغير في سياق الإنفاق عند الكافرين، فيكون الثابت فيها الإنفاق، والمتغير الصورة التركيبية للمشبه به، مثل قوله تعالى: ﴿**كَالَّذِي يُنْفِقُ مَالَهُ رِئَاءَ النَّاسِ وَلَا يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ صَفْوَانٍ عَلَيْهِ تُرَابٌ فَأَصَابَهُ وَابِلٌ فَتَرَكَهُ صَلْدًا لَا يَقْدِرُونَ عَلَى شَيْءٍ مِمَّا كَسَبُوا وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ**﴾ (البقرة:264)، وقوله تعالى: ﴿**مَثَلُ مَا يُنْفِقُونَ فِي هَذِهِ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَثَلِ رِيحٍ فِيهَا صِرٌّ أَصَابَتْ حَرْثَ قَوْمٍ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ فَأَهْلَكَتْهُ وَمَا ظَلَمَهُمُ اللَّهُ وَلَكِنْ أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ**﴾ (آل عمران:117).

هدف القرآن الكريم من التشبيه توضيحَ الغامض، وتقريب البعيد، وتجلية المعنى، وبيان الأثر النفسي، فكشفت صور التشبيه القرآني ضلالَ الكافرين وضعف معتقداتهم، واتخذ القرآن الكريم من النفس والحس محورًا للتشبيه، وجعل الحظ الأوفى والنصيب الأكبر للنفس، فكان الغرض من التشبيه إثارةَ الوجدان والتأثير في النفس، فرسم صورة فنية للمشبه به توضح الغرض الذي سيق من أجله التشبيه.[2]

### أولًا: الصورة التركيبية للإنفاق.

يشترط في الإنفاق أن يكون في سبيل الله، غير مصحوب بالمن والأذى، حتى يتحقق تهذيب نفس المنفق، وبث روح التعاون بين أفراد المجتمع الإسلامي، إلا أن الآية الكريمة: ﴿**كَالَّذِي يُنْفِقُ مَالَهُ**

---

[1] ينظر: خمايسة: **نعت المشبه به في القرآن الكريم في ضوء نظرية السياق**. ص:30-31.

[2] جيني، عبد الحكيم أحمد: **التشبيه القرآني ودوره في تصوير حال الكافرين**. جامعة القرآن الكريم وتأصيل العلوم، ع:6، 2013م، ص:92-93.

رِياءَ النّاسِ ولا يُؤْمِنُ بِاللَّهِ واليَوْمِ الآخِرِ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ صَفْوانٍ عَلَيْهِ تُرابٌ فَأصابَهُ وابِلٌ فَتَرَكَهُ صَلْدًا لا يَقْدِرُونَ عَلى شَيْءٍ مِمّا كَسَبُوا واللَّهُ لا يَهْدِي القَوْمَ الكافِرِينَ﴾ (البقرة:264)، كشفت عن صورة خاصة من صور إنفاق الكافرين، فهم –في هذا المشهد– ينفقون أموالهم لهدف محدد، أي: للمراءاة، فتمثلَ الإنفاق رياء بصورة تركيبية متغيرة للمشبه به، أي لصفوان عليه تراب، يصيبه وابل أو طل، فيزيل عنه التراب، ويحوله صلدًا، بصورة حركيّة تخيّليّة، يتضح فيها **التحول من الغموض إلى الوضوح، ومن خفي إلى جلي**، فينكشف الصفوان المغطى بالتراب، فيظهر صلدًا، إذ تتحول نواياهم الخبيثة الغامضة إلى نوايا مكشوفة واضحة أمام الجميع، ونموذج (3) الآتي يوضح ذلك:

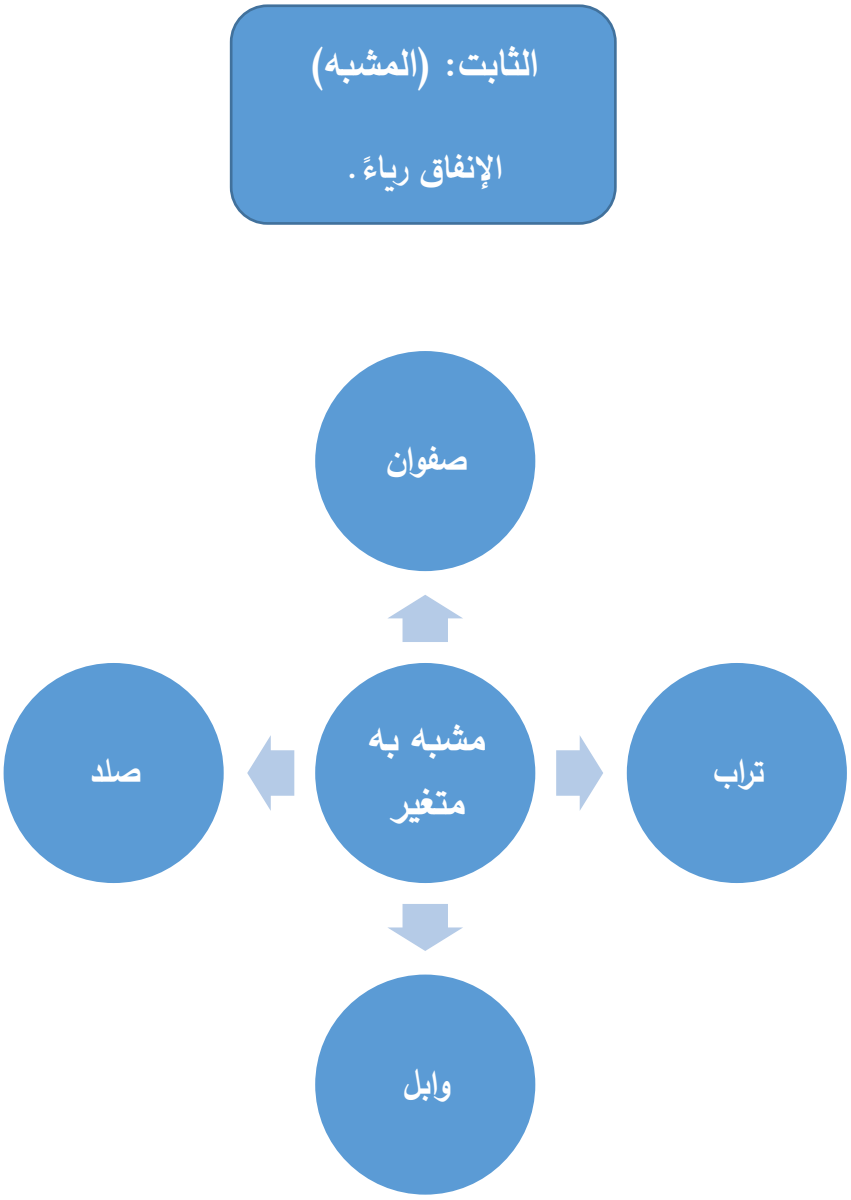


**نموذج (3): ثبات إنفاق الكافرين، وتغير الصورة التركيبية للصفوان.**

تنمو الصورة، وتتدرج في أداء المعنى، وهو **بطلان الإنفاق القائم على الرياء أو الأذى**، فبدأ المثل بتصوير المنان بالمرائي الكافر، ثم جاء تصوير المثل لهذا المرائي الكافر في نمو متدرج، وتفاعل بين صورة المثل، وصورة المرائي بطريق المجاورة في السياق، والتماثل بين صورة المرائي، وصورة الممثل به.[1] وضُرِبَ المَثَل لِعَمَلِ المانّ المُؤْذِي، ولِعَمَلِ المُنافِقِ، فَالنّاسَ يَرَوْنَ في الظّاهِرِ أنَّ لِهَؤُلاءِ أعْمالًا، كَما يُرى التُّرابُ عَلى الصَّفْوانِ، فَإذا كانَ يَوْمُ القِيامَةِ اضْمَحَلَّ كُلُّهُ وبَطُلَ؛ لِأنَّهُ تَبَيَّنَ أنَّ تِلْكَ الأعْمالَ ما كانَتْ لِلَّهِ تَعالى، كَما أذْهَبَ الوابِلُ ما كانَ عَلى الصَّفْوانِ مِنَ التُّرابِ، فَالمَعْنى أنَّ تِلْكَ الصَّدَقَةَ أوْجَبَتِ الأجْرَ والثَّوابَ، ثُمَّ أزال المَنُّ والأذى ذَلِكَ الأجْرَ، كَما يُزِيلُ الوابِلُ التُّرابَ عَنْ وجْهِ الصَّفْوانِ.[2] وقاربت الصورةُ بين المؤمن الذي يبطل صدقاته بالمن والأذى، والكافر الذي لا يؤمن بالله واليوم الآخر؛ لتماثلهما في النية من ناحية، ولزجر المؤمن، وتحذيره من هذا السلوك المشين من ناحية أخرى، ثم يأتي التعقيب بعد الانتهاء من تصويره، وبناء حكم عليه؛ لبيان المغزى من تصوير المثل، والتركيز على المشبه؛ لتحذيره.[3]

برزت ثنائية الثبات والتغير في الآية الكريمة، فجاء المشبه (الإنفاق) ثابتًا، والمشبه به (الصورة التركيبية لتحول الصفوان إلى صلد) متغيرًا. وتسعى ثنائية الثبات والتغير **لتوضيح صورة المشبه به التركيبية للصفوان وتفصيلها**، ويبين ذلك ما تتسم به **دلالة (صفوان) من غموض فيما لو كانت وحدها**، في قوله: ﴿**فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ صَفْوانٍ**﴾، أي إن تشبيه الذي ينفق ماله رياء بالصفوان وحدَه، لا يُظهر وجه الشبه بين المشبه والمشبه به. فيشبّه الله –عز وجل– **الصدقات** المختلطة التي يفسدها المن والأذى،

---

[1] ينظر: الراغب: **وظيفة الصورة الفنية في القرآن الكريم**. ص:185.

[2] ينظر: الرازي: **تفسير الفخر الرازي المشهور بالتفسير الكبير ومفاتيح الغيب**. ج:7، ص:47.

[3] ينظر: الراغب: **وظيفة الصورة الفنية في القرآن الكريم**. ص:184–185.

بصفوان يغطيه غشاء شفاف من التراب، فيصيبه المطر، فيغسل الحجر (الصفوان)، ويزيل ما عليه من تراب، فيصبح متحجرًا صلدًا.

يتصاعد التغير في صورة المشبه به بتخيل الحجر ناتئًا، بارزًا، مغطًى بغلاف خارجي من تراب يبتل بالمطر، فيعبر عن القلب الذي يصبح في غشاوة بسبب الرياء، أو بما نفث من المن والأذى، فبدلًا من أن يساعد المطر في إزالة التراب المتراكم، إذا به يزيد الحجر صلابة.[1] فالمرائي شُبِّه بمن يزرع على صخرة صلدة ملساء، عليها تراب رقيق يرمز للرياء المُبْطِل للأعمال، فينزل المطر من السماء، فيجرف هذه الطبقة الترابية الرقيقة عن الصخرة بما زرع فيها، لينكشف الصفوان حجرًا صلدًا غير قابل للامتصاص، فيماثل قلب المرائي في قسوته، وعدم صلاحيته لامتصاص الخير، فيضيع إنفاق المرائي كضياع الغيث الهاطل، فوق الصخر الأصم.[2] أي إن عناصر الصورة التركيبية للمشبه به تشتمل على دلالات مضمرة تتفق مع صفات صورة المشبه (المنفق للمال في غير مرضاة الله).

**تضمر مادتا (صفا) و(ترب) في صورة المشبه به دلالة الخسران، والانقطاع، والفقر، إذ تدل مادة (صفا)، على الخسران،** فنقول: "أَصْفى الشاعرُ: انقطَع شِعْرُه، وأَصْفي الرجلُ من المالِ والأَدَبِ: خلا، وأَصْفى الأَمِيرُ دارَ فلانٍ واسْتَصْفى مالَه: أَخذه"[3]، **وتفيد مادة (ترب) معنى الغنى والفقر معًا،**[4] فنقول: "تَرِبَ تَرَبًا ومَتْرَبةً: خَسِرَ وافْتَقَرَ، ولَزِقَ بالتُّراب وأَتْرَبَ: استَغْنَى وكَثُر مالُه، وتَرِبَتْ يَداهُ: لا أَصابَ خيرًا، وأَتْرَبَ: قَلَّ مالُه، وأَتْرَبَ الرجلُ: كثر مالهُ، ورجل تَرِبٌ: فقيرٌ، ورجل تَرِبٌ لازِقٌ بالتُّراب من الحاجة ليس بينه وبين الأَرض شيءٌ"[5].

---

[1] ينظر: الصغير: **الصورة الفنية في المثل القرآني (دراسة نقدية وبلاغية)**. ص:190.
وينظر: دوب: **خصائص التشبيه في القرآن الكريم**. ص:62-63.

[2] ينظر: الراغب: **وظيفة الصورة الفنية في القرآن الكريم**. ص:158.

[3] ابن منظور: **لسان العرب**. مادة: (صفا).

[4] ينظر: خمايسة: **نعت المشبه به في القرآن الكريم في ضوء نظرية السياق**. ص:98.

[5] ابن منظور: **لسان العرب**. مادة: (ترب).

**تدل البنية الدلالية العميقة للصفوان ولجملة (عليه تراب) على بطلان الصدقات المتبوعة بالمن والأذى**؛ فتوحي الدلالة المعجمية بثنائية دلالية تنسجم مع دلالة صورة المشبه، إذ إن أموال الصدقات لا قيمة لها إذا تبعها منّ وأذى، فالصدقات أموال، لكن لا قيمة لها في الوقت نفسه، وكأنها تراب على حجر يغسله ماء.[1] وتُفضي جملة **(عليه تراب)** إلى **تأمل صورة المشبه به**، فالحجر (صفوان) غطته طبقة من التراب فظن فيه الخصوبة، فإذا نزل عليه المطر، ذهب عنه التراب وتركه صلبًا أملس، بعد أن كان يُظن فيه من الخصوبة والنماء فيؤهل للزراعة، فالمشبه هو من ينفق ماله رياء الناس، ولا يؤمن بالله واليوم الآخر، والمشبه به هو الحجر (الصفوان) الذي عليه تراب، فأصابه وابل، فتركه صلدًا، أما وجه الشبه فهو **عدم الانتفاع** مما أعطوا، إلا بحب التطاول على الضعفاء.[2] وتنكشف ظاهرة الرياء للذين ينفقون مالهم رياءً ونفاقًا هباءً بلا فائدة ولا نتيجة.[3]

وتنتزع الصورة التشبيهية من طبيعة الأرض قسوتها، فتمتزج عوامل المناخ في تقلباته بسلوك المرء، فتشبه ما كان جافًّا غليظًا بالحجر الصلد.[4] وتدل **مادة (وبل)** على الغيث المنهمر، والمطر المتدافع،[5] وتلمح مجازًا إلى الأذى الشديد الذي تعرض له الصفوان، أو الرياء الذي تعرض له المنفَق. ويكشف الوابل جوهرَ الصفوان المجدب وعدم نفعه لاستقبال الخير، ولو ستر وراء طبقة ترابية رقيقة تمثل عمل الخير في الظاهر.[6] ويدل توالي الفاءات في التعبير (فمثله، فأصابه، فتركه) على سرعة

---

[1] ينظر: خمايسة: **نعت المشبه به في القرآن الكريم في ضوء نظرية السياق**. ص:98.

[2] ابن عاشور: **التحرير والتنوير**. ج:3، ص:44.

[3] ينظر: خمايسة: **نعت المشبه به في القرآن الكريم في ضوء نظرية السياق**. ص:100.

[4] ينظر: دوب: **خصائص التشبيه في القرآن الكريم**. ص:63.

[5] ينظر: الصغير: **الصورة الفنية في المثل القرآني (دراسة نقدية وبلاغية)**. ص:244.

[6] ينظر: الراغب: **وظيفة الصورة الفنية في القرآن الكريم**. ص:185-186.

الإيقاع، وعدم الإمهال، بما يوحيه للسمع وللذهن.[1] فيوحي بسرعة إحباط الإنفاق، وتلاشيه دون أن يمكث وقتًا قصيرًا.[2] أي إن عقوبة الرياء تكون سريعةً، قريبة الجزاء.

**تدرّج القرآن الكريم في بيان الصدقات، وبيّن قبح المن والأذى، بثلاث طرق بيانية، تدرجت بالنفس الإنسانية،** فبدأ القرآن بالثناء على تارك المنّ والأذى، بقوله: ﴿**لا يُتْبِعُونَ ما أَنْفَقُوا مَنًّا ولا أَذًى**﴾ (البقرة:262)، ثم بيّن أن الصدقة التي يتبعها المنّ والأذى فيها ضرر، ففضلّ الله عليها القول المعروف والمغفرة، بقوله: ﴿**قَوْلٌ مَعْرُوفٌ ومَغْفِرَةٌ**﴾ (البقرة:263)؛ لأنهما لا يلحقهما أي ضرر، ثم جاء التصريح بالنهي عنها؛ لأنها تبطل العمل وتذهب فائدته وثوابه، في قوله تعالى: ﴿**يا أَيُّها الَّذِينَ آمَنُوا لا تُبْطِلُوا صَدَقاتِكم**﴾ (البقرة:264)، فيبيّن للناس أن الصدقة التي تبذل رياءً، والتي يتبعها المنّ والأذى، لا تثمر شيئًا ولا تبقى، فينقل إليهم هذا المعنى المجرد في صورة حسية، يوجّهها للمؤمنين بعد أن بيّن لهم فيما مضى أهمية الصدقة، وبالغ في النهي عن المنّ والأذى الذي يتبع الإنفاق.[3]

**ويتضح التغير في الصورة التركيبية للمشبه به علميًّا،** فالحجر (الصفوان) الأملس، كان ينتظر التفتت بطريقة طبيعية، أو ما يسمى بالتجوية*، فيختلط التراب بعد ذلك مع فتاته، فتندمج معادن هذا الحجر مع التراب، فنحصل على تراب زراعي جيد، إلا أن ماء المطر الشديد عطل تفتيت الصفوان،

---

[1] ينظر: الصغير: **الصورة الفنية في المثل القرآني (دراسة نقدية وبلاغية)**. ص:241.

[2] ينظر: الراغب: **وظيفة الصورة الفنية في القرآن الكريم**. ص:158.

[3] ينظر: خمايسة: **نعت المشبه به في القرآن الكريم في ضوء نظرية السياق**. ص:98-99.

* التجوية: تفكك أو تحلل الصخر موضعيًّا، أو تفكك الصخر وتغيره قرب سطح الأرض، وتكوين معادن مختلفة في خصائصها عن المعادن السابقة لحدوثها محسوب، محمد صبري: **الجغرافيا الطبيعية أسس ومفاهيم حديثة**. (د.ط)، دار الفكر العربي، مصر، 1996م، ص:67.

وهي التفكك والتفتت والتلف الطبيعي والعطب الحتمي للصخور، عند ملامستها لعناصر الطبيعة من ماء، وهواء، وكائنات حيوية، فهي نوع من التلاؤم، والتكيف الصخري، مع عناصر بيئة جديدة، تطرأ عندما تتكشف الصخور على السطح، وتختلف تمامًا عن الظروف الطبيعية السائدة في داخل أعماق القشرة الأرضية، حيث تكونت هذه الصخور. ينظر: الغالبي، خلاف: **التربة والماء وأثرهما في إنبات الطعام**. الإعجاز العلمي، رابطة العالم الإسلامي، ع:12، 2002م، ص:47.

فلم يختلط التراب مع فتاته، فأُزيل التراب وذهب بعيدًا، فلم تتكون التربة الصالحة للإنبات؛ فأدى ذلك إلى عدم حدوث المنفعة المتوقعة من الصفوان، بل تحول أيضًا إلى حجر صلد أملس يابس.

**تتقارب الصور في المشهد**، فيقارب الصفوانُ الفقيرَ المحتاج، فالصفوان محتاج للماء، رمز الحياة؛ ليندمج مع التربة، فيثمر، والفقير محتاج للنفقة، التي تساعده على الحياة، ليندمج مع المجتمع، فينتج كغيره، وتقارب التربةُ الصدقةَ أو النفقةَ الموضوعة في كف الفقير، فكان ينبغي لها لو لم تتعرض للوابل الشديد المناظر للمن والأذى أو المراءاة، أن تختلط في كف هذا الفقير، وتعينه، وتقضي احتياجاته، فتتقابل مع صورة ما يُزرع في التربة الصالحة للزراعة، فينمو، ويثمر، ما دامت عوامل نموه متوفرة، لكن هذه التربة لم تحصل على شروط نموها، فأصابها مطر شديد، لم يؤدِّ دوره كالمعتاد، فأذهب التراب عن الحجر، ولم يتفتت هذا الحجر، ولم يختلط بالتراب، ولم تحدث الفائدة المرجوة من اختلاطهما؛ ليتحول التراب إلى تراب صالح للزراعة، بل إن هذا الحجر في نهاية المطاف، تحول إلى حجر صلد أملس يابس، ولم يثمر؛ لعدم حدوث عملية التجوية والتفتت، فالماء يؤدي دورًا مهمًّا في إحياء التربة وتهيئتها للزراعة، إذ تبدأ التربة في التكوين والتشكل مباشرة، بعد توافر أدنى أثر لحياة نباتية أو حيوانية في الجزء السطحي المتفكك الهش، بعد أول تحلل جيوكيميائي (التجوية) للأساس الجيولوجي (الصخرة الأصلية)، ويمر تكوين التربة بثلاث مراحل، هي: تحلل الصخرة الأصلية (المرحلة الأولى)، والتوفير المتزايد للمواد العضوية (المرحلة الثانية)، وتطور التربة وتمايز آفاقها (المرحلة الثالثة)، وفي هذه المرحلة يجري نقل عناصر وجزيئات طينية، وعناصر ذائبة ومتحللة، عبر الحركات العمودية للماء –من أعلى إلى أسفل، ومن أسفل إلى أعلى، حسب الفصول–، وانتقالات تلك العناصر –من أعلى إلى أسفل أو من أسفل إلى أعلى –بوساطة الماء– تنضج التربة وتميز آفاقها. فللتجوية أهمية كبرى، إذ من دون حصولها، تظهر القارات على شكل صخور صلدة قاسية، خالية من أي غطاء ترابي، فتستحيل حياة النبات والحيوان على

الأرض.[1] وللماء طاقة ميكانيكية هائلة تفتت صخور الأرض لتتكون منها الصخور الرسوبية، فهو يؤدي دورًا مهمًّا في التجوية الميكانيكية* والكيميائية*، وفي ترسيب المواد المعدنية، وفي تكوين الركازات المعدنية الخارجية فوق سطح القشرة الأرضية أو بمحاذاة معها.[2] فالتربة الخصيبة تتكون من مواد معدنية، ومواد عضوية تتعرض للتحلل، وباجتماع هذه العناصر مع الهواء والماء تستمر العمليات الحيوية داخل أجسام الكائنات الحية، وتعد التربة التي لا تحتوي إلا على المواد الصخرية والمعدنية المتحللة تربة مجدبة لا يمكن أن تكون مهدًا لنمو النباتات، أما التربة المنتجة الخصيبة فهي تربة حية، يعيش فيها عدد لا يحصى من الكائنات الدقيقة، أي إن التربة تتكون من تأثير العوامل الجوية على الجزيء الصلب من سطح الأرض، بالإضافة إلى ما يعيش فيها من الكائنات الحية ومنتجاتها على طول الزمان.[3]

**يناظر عدم حدوث التجوية، أو عدم تفتت الصخر مع صورة الفقير المتأذي، الذي لم يفد من الصدقة؛** لعدم تحقق شروطها، فلم يشعر بخيرها، بل إنه عاش حالة نفسية سيئة، فهو لم يرد يومًا أن يكون فقيرًا، ولم يختر فقره، إلا أن الله –عز وجل– لحكمته، قضى بأن يكون فقيرًا، ولعدم حدوث عملية الإنفاق والتصدق بشروطها المفروضة، انكشف حال الفقير المستور، فتأذى؛ بسبب من أنفق عليه

---

[1] ينظر: الغالبي: **التربة والماء وأثرهما في إنبات الطعام**. ص:49.

* التجوية الميكانيكية: تطلق على تفكك الكتل الصخرية إلى أجزاء صخرية صغيرة، بوساطة مجموعة من العمليات الميكانيكية، دون أن يطرأ أي تغيير على التركيبة المعدنية، ولا الكيميائية للصخور المجواة، فلا يضاف أي عنصر كيميائي إلى الصخور ولا ينتزع منها. ينظر: **المرجع السابق**. ص:47.

* التجوية الكيميائية: يقصد بها تحلل معادن الصخور؛ نتيجة للتفاعلات الكيميائية مع عناصر الغلاف الجوي، والغلاف المائي (الهواء، والماء)، بوساطة تدمير البنية الداخلية للمعادن، التي تحل محلها معادن جديدة متلائمة مع عناصر البيئة الجديدة، فتتغير بذلك التركيبة الكيميائية والمظهر الخارجي للصخرة. ينظر: **المرجع السابق**. ص:48.

[2] ينظر: موكينا، مصطفى: **سيلان المياه وتكون المعادن في القشرة الخارجية للأرض انطلاقًا من قوله تعالى: (وأما ما ينفع الناس فيمكث في الأرض)**. مراجعة: ميمون باريش. المؤتمر العالمي الثامن للإعجاز العلمي في القرآن والسنة، المغرب، ص:124.

[3] ينظر: الصوفي: **الموسوعة الكونية الكبرى**. ج:10، ص:262.

أمام العيون كلها، وتُرِك مكشوفًا وحيدًا، لا يقدر على شيء مما حدث معه، فهو لا يستطيع ردّ الصدقة؛ لأن ظاهر المنفِق يكون خيرًا، ولو لم يأخذها –الفقير– فإنه سيتعرض للانتقادات ممن هم حوله، إذ لا يشعرون بما يشعر، وفي الوقت ذاته، تعرض لأذًى خفي، لا يشعر به سواه، هو انكشاف حاله وفقره، وأخذه للصدقة رغمًا عنه. وإضافةً إلى ذلك، فمن الممكن ألا يكون الفقير على علم بصفة المنفِق إذا ما كان مرائيًا أو منانًا، فيقع في فخ منّه وأذاه بعد أن يقبل صدقته. فنلحظ **ثنائية الستر والكشف**، بتحول الصفوان إلى صلد، ترتبط بكشف حال الفقير المستور، وتحوله من إنسان سليم إلى متأذٍ، فتنسجم بذلك مع ثنائية الثبات والتغير في القرآن الكريم.

وتعزيزًا لما تقدم، فإن التشبيه يفيد الإيجاز، والتوضيح، والتوكيد، بإخراج الخفي إلى الجلي، والمبهم إلى الواضح، والبعيد إلى القريب، والمعنوي إلى شيء تدركه الحواس فيتأكد في النفس، ويتقرر في الفؤاد، فلا تنمحي صورته من الأذهان.[1]

ويُضمر ما تقدم خطابًا تربويًّا اجتماعيًّا، إذ تتعرض مجتمعاتنا اليوم، لظاهرة المراءاة والمن والأذى، بأساليب معلنة، دون اكتراث لأحاسيس الفقراء ومشاعرهم، فكثيرًا ما نجد في مواقع التواصل الاجتماعي، برامج أو مشاهد لمن يختص بالبحث عن الفقراء الجالسين وحدهم في الطرقات، يحاولون إخفاء أنفسهم، فيأتي هذا المرائي، فيمنحهم مبلغًا من المال، أو قطعة من الثياب، أو شيئًا من الطعام، على مرأى العيون كلها، بل بتصوير وتوثيق، ومشاركة على مواقع التواصل الاجتماعي، صحيح أننا لا نعلم بالنوايا، إلا أننا لا نعلم شعور المنفَق عليه بعد ذهابنا، فيختل شرط الصدقة بذلك، وأرجح، أن لفظ المراءاة لا يقتصر على الصدقات، وإنما على أي عمل يُرجى به إجبار الناس على رؤية مكان الإنفاق وأسبابه، وأعني بذلك، مثلًا، ما نراه اليوم، من ظاهرة سيئة توحي بالجهل، وفساد القلوب، والعقول، عند بعض الناس، وهي ظاهرة المبالغة في تصوير المأكولات، والمشروبات، وتوثيق أي لحظة حتى لو كانت

[1] حسين: **القرآن والصورة البيانية**. ص:112.

تافهة، ونشرها على مواقع التواصل الاجتماعي، دون اكتراث لمشاعر من لا يقدر على ذلك، وخاصةً الفقراء.

تهدف صورة الإنفاق إلى الترغيب وهو أسلوب تربوي لتهذيب النفوس وصقلها، ففي الإنفاق طمأنينة نفسية للفقراء والضعفاء، وترغيب للأغنياء، وتبعث هذه الصور مشاعر الأمل والرجاء، والخوف والرهبة في النفس، وتقيم توازنًا بين الإنفاق والإمساك؛ كي لا ترجح كفة على أخرى، فالحياة لا تقوم إلا بالتوازن بينهما، ويؤدي التركيز على أحدهما إلى تمزيق الكيان الإنساني الذي فطره الله على هذه المشاعر المتقابلة، فتقيم الصورة التشبيهية التوازن بينهما، بتحريك النفس، وبعثها، لتكون في الاتجاه الصحيح لها. وتقابل صورة المنفق المخلص لله في إنفاقه، صورة المنفق المرائي المنان؛ حتى تتضح الفروق بين النموذجين، وللاقتداء بالنموذج الأول، وللتحذير من النموذج الثاني المرائي. وتصور معظم سور القرآن الكريم هذين المسارين النفسيين؛ لتهذيب مشاعر الإنسان، وبناء نفسه؛ لأن الطريق لبناء سلوك الإنسان، يبدأ أولًا من البناء النفسي المتوازن.[1]

## ثانيًا: التشبيه التركيبي للحرث في سياق تشبيه الإنفاق عند الكافرين.

يتحول المشبه به في صورة الإنفاق عند الكافرين في القرآن الكريم، فتكون صورة تركيبية لصفوان يتحول إلى صلد مرةً، وصورة تركيبية لريح باردة تهلك الزرع.

ظهرت ثنائية الثبات والتغير في قوله تعالى: ﴿**مَثَلُ ما يُنْفِقُونَ في هَذِهِ الحَياةِ الدُّنْيا كَمَثَلِ رِيحٍ فِيها صِرٌّ أصابَتْ حَرْثَ قَوْمٍ ظَلَمُوا أنْفُسَهم فَأهْلَكَتْهُ وما ظَلَمَهُمُ اللَّهُ ولَكِنْ أنْفُسَهم يَظْلِمُونَ**﴾ (آل عمران:117)، فالثابت هو المشبه أي إنفاق الكافرين، والمتغير صورة تركيبية للمشبه به، وهو إهلاك ريح باردة لحرث قوم ظلموا أنفسهم. والنموذج (4) يوضح ذلك:

[1] ينظر: الراغب: **وظيفة الصورة الفنية في القرآن الكريم**. ص:424-425.

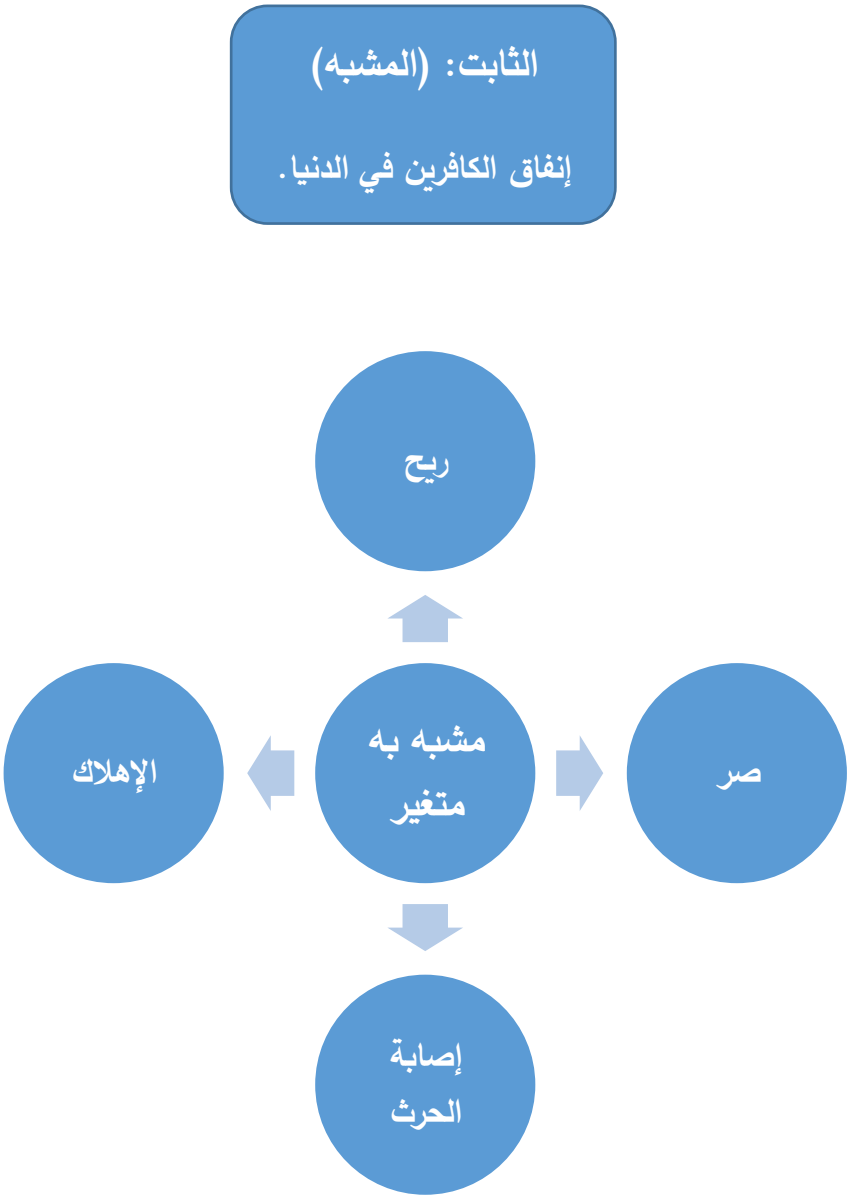


**نموذج (4): ثبات إنفاق الكافرين، وتغير الصورة التركيبية للريح.**

**استمدت الصورة في الآية الكريمة من الزرع**، فضرب المثل لقوم أنفقوا أموالهم في أرض زراعية اعتنوا بها بالزرع والمياه، حتى نما الزرع، ودنا وقت الحصاد، وهم فرحون مستبشرون يعلقون عليها الآمال، فإذا بريح باردة فيها صر، تهلكه وتبيده، فتضيع جهودهم كلها في تلك الأرض، وكانت الريح أداة التدمير للزروع.[1] ويصور القرآن الكريم ما ينفقه الكافرون من حيث بطلانه وذهابه وعدم منفعته لهم، فيشبه الإنفاق بزرع أصابته ريح شديدة البرودة فأهلكته ولم ينتفع أهله به، فالمشبه إنفاق الكافرين الخالي من الثواب، والمشبه به الزرع الذي أهلكته الريح الباردة، ووجه الشبه خيبة الأمل والحسرة على ما بذلوه من جهد ومشقة ولم ينتفعوا به، وهذه العناصر تتكامل لتكون الصورة المُراد إيصالها.[2]

خصت سياقات العذاب في القرآن الكريم بلفظ (ريح)،[3] والسر في ذلك أن الريح تكون غالبًا شديدة الهبوب سريعة من جهة واحدة، فاختصاص الريح بسياق العذاب يعود إلى أنها تأتي من وجه واحد،[4] ولا يأتي منها إلا الشر؛ فاستخدمها القرآن الكريم في مقام العذاب والهلاك.[5] وهو ما يتناسب مع هلاك حرث القوم الظالمين لأنفسهم، ومع هلاك الكافرين، أصحاب النار الخالدين فيها، الذين لن تغني عنهم أموالهم ولا أولادهم من الله شيئًا، في الآية السابقة لها، في قوله: ﴿**إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَنْ تُغْنِيَ عَنْهُم أَمْوَالُهم ولا أَوْلادُهم مِنَ اللَّهِ شَيْئًا وأُولَئِكَ أَصْحابُ النّارِ هم فِيها خالِدُونَ**﴾ (آل عمران:116).

**تكشف مادة (صرر) في قوله تعالى: (فيها صر) عن علاقة بين معنى الهلاك للزرع، والعذاب للقوم الظالمين لأنفسهم، فنقول:** "أَصَرَّ الزرعُ إصرارًا: خَرَج قبل أَن يخلُص سنبله، ويكون الزرع صَرَرًا حين يَلْتَوِي الورَق ويَيْبَس طرَف السُّنْبُل وإن لم يخرُج فيه القَمْح، والصَّرَر: السُّنْبُل بعدما يُقَصِّب، والصَّرَّة:

---

[1] ينظر: الراغب: **وظيفة الصورة الفنية في القرآن الكريم**. ص:16.

[2] ينظر: خمايسة: **نعت المشبه به في القرآن الكريم في ضوء نظرية السياق**. ص:97.

[3] داود: **معجم الفروق الدلالية في القرآن الكريم لبيان الملامح الفارقة بين الألفاظ متقاربة المعنى، والصيغ والأساليب المتشابهة**. ص:501.

[4] عتيق: **ظواهر أسلوبية في القرآن الكريم التركيب والرسم والإيقاع**. ص:145.

[5] زيدان: **الفروق اللغوية في القرآن الكريم**. ص:584.

الشِّدة من الكْرب والحرْب"[1]، **وتدل على ما يرتبط بالمال والإنفاق**، إذ إن "الصُّرَّة: شَرَج الدَّراهم والدنانير"[2]، **وتدل على معنى الإصرار على الكفر والدوام عليه**، فنقول: "يَصِرُّ إِصْرارًا إِذا لزمه ودَاوَمه وثبت عليه"[3]، **وتكون صفة للريح**، إذ إن "الصر: الريح الباردة، والصر في صفة الريح بمعنى الباردة، والصِرّ: شدة البرد، ويقال ريح صرّ، وريح فيها صرّ، أي: شديدة البرد"[4].

وتنسجم دلالة **مادة (صرر)** مع الدلالة السياقية للآية السابقة لها، في قوله تعالى: ﴿**إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَنْ تُغْنِيَ عَنْهم أَمْوالُهم ولا أَوْلادُهم مِنَ اللَّهِ شَيْئًا وأُولَئِكَ أَصْحابُ النّارِ هم فِيها خالِدُونَ**﴾ (آل عمران:116)، إذ تتطابق مع معنى الهلاك، فالكافرون مهما كانت أعمالهم، فلا أولادهم ولا أموالهم ستغني عنهم من الله شيئًا، بل سيخلدون في النار ويهلكون فيها. **وتوحي كلمة (صر) في المعجم بدلالة صوتية خاصة**، لما تحمله من وقع تصطك له الأسنان، ويشتد معه اللسان، فالصاد الصارخة مع الراء المضعفة ولدتا جرسًا يضفي صيغة الفزع، وصورة الرهبة، فلا الدفء يستنزل، ولا الوقاية تتجمع، بما يزلزل وقعه كيان الإنسان.[5] وَالصِّرُّ: الْبَرْدُ الشَّدِيدُ الْمُمِيتُ لِكُلِّ زَرْعٍ أَوْ وَرَقٍ يَهُبُّ عَلَيْهِ فَيَتْرُكُهُ كَالْمُحْتَرِقِ، وَلَمْ يُعْرَفْ فِي كَلَامِ الْعَرَبِ إِطْلَاقُ الصِّرِّ عَلَى الرِّيحِ الشَّدِيدِ الْبَرْدِ، وَإِنَّمَا الصِّرُّ اسْمُ الْبَرْدِ. وَأَمَّا الصَّرْصَرُ فَهُوَ الرِّيحُ الشَّدِيدَةُ وَقَدْ تَكُونُ بَارِدَةً.[6] والريح الصرصر رياح شديدة البرودة أو شديدة الصوت، أو هي العاصفة الرعدية وقت الرصد دون سقوط مطر، فهي صوت رعد دون سقوط مطر. بينما ريح صر:

---

[1] ابن منظور: **لسان العرب**. مادة: (صرر).

[2] **المصدر السابق**. مادة: (صرر).

[3] **المصدر السابق**. مادة: (صرر).

[4] **المصدر السابق**. مادة: (صرر).

[5] الصغير: **الصورة الفنية في المثل القرآني (دراسة نقدية وبلاغية)**. ص:240.

[6] ابن عاشور: **التحرير والتنوير**. ج:4، ص:61.

هي رياح فيها حرارة أو برد شديد، والرياح شديدة البرودة أو الحرارة تسبب الموجة الباردة أو الموجة الحارة.[1]

**ويتبادر سؤال، كيف هلك الزرع الذي قدمت له شروط الإثمار كلها، وقد يكون أثمر ونضج، ولماذا هلك؟!**

ظُلمت النفقة التي تحققت شروطها، واختلطت بالفقراء والمجتمعات ونفعتهم، بكفر أصحابها، فلم تُقبل ولم تضاعف، والزرع على الرغم من الاهتمام به، ورعايته، وتوفر شروط الإنبات، إلا أنه في نهاية المطاف، جاءه عارض خارجي أهلكه وأفسده، فيتناسب حال الزرع المُهلَك، الذي لم يُجْنَ ثمره، مع حال إنفاق الكافرين، الذين لم يكن لهم أي أجر. فأعتقد بذلك أن الإهلاك بوساطة الريح الباردة يتناسب تمامًا مع ظلم النفس والإهمال المهلك.

يخيل للسامع أن ثمار الحرث ناضجة، وآن أوان حصدها وقطفها وحرثها، **وتفيد مادة (حرث) معنى الكسب، والجمع، والدرس، والثواب، والنصيب،** فالحرث يعني: "العَمل فِي الأَرض زَرْعًا كَانَ أَو غَرْسًا، ويعني: الزَّرْع، والكَسْبُ، واحْتَرَثَ المالَ: كَسَبه، والحَرْثُ: كَسْبُ الْمَالِ وجَمْعُه، ويعني: الثَّوابُ والنَّصِيبُ"[2]، وسواء كان المعنى المراد من الحرث هو الزرع أو الكسب، إلا أنه في نهاية المشهد أُهلك، وصورة الحرث عند غرس البذور أو عند نضجها، تقابل صورة النفقة التي وضعت في مكانها الصحيح، أو إنها أثمرت فكان لها أثر مفيد. لكن سرعان ما يتحول مشهد البذور المغروسة، أو الثمار الناضجة، إلى مشهد الهلاك، إذ إن هذا الحرث سواءً زرعًا كان أم كسبًا، إلا أن أصحابه وُصفوا بأنهم ظلموا أنفسهم، **والسؤال هنا: كيف ظلم القومُ أنفسَهم؟! وهل يمكن القول: إنهم لم يهتموا بحرثهم ولم يعتنوا به ولم يحصنوه من الريح الباردة أو التي فيها صر؛ فتسببت بإهلاكه؟**

---

[1] مندور: **مصطلحات الطقس والمناخ في القرآن الكريم**. ص:100.

[2] ابن منظور: **لسان العرب**. مادة: (حرث).

تُختزل الإجابة أنهم ظلموا أنفسهم بكفرهم، ولم يحصنوا أنفسهم بالإيمان، فلم يحصلوا على الثواب أو مضاعفة الأجر لما أنفقوا، مع حال القوم الذين لم يكترثوا لحرثهم، ولم يعتنوا به، ولم يحصنوه من الريح الباردة المهلكة للزرع والثمار، والمتأمل لحال هؤلاء الكفرين، يوقن أنهم أشبه بالمساكين، فيشفق عليهم، إذ إن مثل هذه الشخصيات الخيرة يؤسف أن تكون كافرة ولا تثاب على هذا الخير، فنعتهم بأنهم ظلموا أنفسهم، وأموالهم لا تغني عنهم من الله شيئًا ولا تصرف عنهم العذاب.

يعزز التواصل الدلالي بين الجملتين (فيها صر) و(أصابت حرث) وحدة العناصر الفنية لصورة المشبه به، ويشير معنى جملة (فيها صر) إلى ذنوب الكافرين في صورة المشبه، إذ إن القرآن يرسم صورًا ويعرض مشاهد، فيتوافر لهذه المشاهد وتلك الصور، أدق مظاهر التناسق الفني في الصورة، والمشاهد، والأجزاء المقسمة، وتوزيعها في الرقعة المعروضة، **وألفاظ التشبيه في القرآن الكريم ألفاظ دقيقة موحية مصورة**، فمثلًا لفظة **(ريح)** جاءت لتدل على العقاب والعذاب، ولفظة **(صرّ)** أيضًا تدل على العذاب؛ لأنها جاءت مع الريح فصارت ريحًا شديدة البرودة، ولفظة **(أهلكته)** شديدة القوة والجزالة في بيان الهلاك، ولا يفوتنا جَرس كلمة (صرّ) من تصوير لمدلولها، وكأنما هو قذائف صغيرة تنطلق على الحرث فتهلكه، وذلك لون من التناسق، وتتضح **جماليات التكامل الدلالي** بين الجمل التركيبية والمشبه به، فلو ذكر المشبه به وحده (الريح) ولم تذكر معه جملة (فيها صرّ)، لما أفادت شدة العذاب الواقع، ولما دلت على الرياح الشديدة البرودة المهلكة الحارقة، ولو لم تذكر جملة (أصابت حرث) لما تحقق تكامل دلالي بينها وبين المشبه به، وجملة (ظلموا) بيّنت أن القوم كانوا ظالمين، فظلموا أنفسهم قبل أن يظلموا الناس، فاستحقوا العذاب والعقاب الواقع عليهم، فنجد تكاملًا مع المشبه به في تكوين الصورة التشبيهية.[1]

[1] ينظر: خمايسة: **نعت المشبه به في القرآن الكريم في ضوء نظرية السياق**. ص:96-97.

## المبحث الثالث: البعد النفسي للبخل.

**مدخل.**

**المطلب الأول: البعد النفسي للبخيل في قصة أصحاب الجنة.**

**المطلب الثاني: البعد النفسي للبخيل في قصة صاحب الجنتين.**

## المبحث الثالث: البعد النفسي للبخل.

### مدخل.

**تزينت الحياة الدنيا بالمال والبنين؛** في قوله تعالى: ﴿**المالُ والبَنُونَ زِينَةُ الحَياةِ الدُّنيا**﴾ (الكهف:46)، لكن لا يمكن للفرد أن يتصرف فيهما كيفما يشاء؛ فالمال ليس ملكية خاصة للإنسان، والأبناء كذلك، إذ ليس من حق الأبوين التحكم المطلق بأبنائهم، حتى لو كانوا زينة، وينبغي أن يكون التحكم وفق شرع رب العالمين. وعلى الرغم من حب الإنسان الشديد للمال بفطرته، إلا أنه اُسْتُخلف فيه، فله حق الإنفاق منه، والتصرف فيه وفق ضوابط محددة، وينبغي للإنسان أن يقيم حق الله بأداء ما فيه من الحقوق، والامتناع عن المكاسب التي حرمها الله؛ إذ إن المال أمانة.[1] **والإنفاق وسيلة من وسائل التكافل الاجتماعي** بين أفراد المجتمع المسلم، وأحد أسباب ازدهار المجتمعات اقتصاديًّا واجتماعيًّا، إذ يُعَوِّدُ النفسَ على العطاء والبذل، ويقضي على صفة الشح والبخل، فرغَّب القرآن الكريم بالإنفاق في كثير من آياته، ورهَّب من الإمساك وكنز الأموال، وعده سبيلًا إلى التهلكة.[2]

يعد البخل "ظاهرة اجتماعية ذات جذور نفسية تقترن غالبًا برغبة تكديس المال"[3]. وتتعدد **مفاهيم البخل الاصطلاحية**، فيطلق على المنع عن فعل شيء، أو منع الموافقة على شيء أو عدم دفع شيء، أو الصمت السلبي في موقف ما.[4] وهو "عند العرب: منع السائل مما يفضل عنده، وفي الشرع:

---

[1] ينظر: باظه، ريم عبد المنعم: **الاقتصاد في الإنفاق في ظل النص القرآني**. المؤتمر الدولي القرآني الأول: توظيف الدراسات القرآنية في علاج المشكلات المعاصرة، جامعة الملك خالد، كلية الشريعة وأصول الدين، 2016م، مج:8، ص:5243.

[2] ينظر: قيلي: **آيات الإنفاق في سورة البقرة ودورها في معالجة القضايا الاجتماعية في المجتمع**. ص:10-11.

[3] خضري، محمد رضا: **سيكولوجية البخل عند الجاحظ**. ع:17، مجلة الممارسات اللغوية، جامعة مولود معمري تيزي وزو، مخبر الممارسات اللغوية، 2012م، ص:216.

[4] ينظر: مخلوف، أمال أحمد: **تصوير بخل المرآة في الشعر الأموي**. جامعة الأزهر، حولية كلية اللغة العربية، بنين بجرجا، ع:21، 2017م، ج:4، ص:3404.

منع الواجب"[1]، وقيل: "إمساك المقتنيات عما لا يحل حبسها عنه"[2]. وقيل: هو منع الرجل من مال نفسه، وقيل: ترك الإيثار عند الحاجة، وقيل: محو صفات الإنسانية وإثبات عادات الحيوانية.[3] وأرى أنها أقوال صائبة، لكنها تحدد وتقلص مفهوم البخل؛ إذ تنظر للبخل من منظور واحد، وتركزه في جانب واحد، وأزعم أن محاولة تجميع المفاهيم السابقة، وتهذيبها، والربط بينها، والزيادة عليها، ثم عرضها بسلاسة، قد تؤدي لمفهوم شامل للبخل، فالبخل مفهوم واسع، يشمل جوانب الحياة كلها، بأمورها المادية والمعنوية، وليس محصورًا بالمال.

---

[1] العيسى، إبراهيم بن محمد: **صفات الإنسان المذمومة في القرآن الكريم وسبل التزكية منها في ضوء مصادر التربية الإسلامية**. جامعة أسيوط، كلية التربية، المجلة العلمية، ع:1، يناير/ 2019م، مج:35، ص:198.

[2] الأصفهاني: **المفردات في غريب القرآن**. ج:1، ص:38، مادة: (بخل).

[3] ينظر: الجرجاني: **كتاب التعريفات**. ج:1، ص:19.

قُسّم سلوك البخل إلى خمسة أنواع رئيسة، هي: بخل الحرص والتدبير*، وبخل الوهم والخداع*، وبخل الحسد*، وبخل المحافظة*، والبخل الانفعالي*.[1] فينبغي أن ندرك أن البخل من مساوئ الأخلاق، ومن المخلات بالدين والمروءة، وأنه يجلب الشقاء لصاحبه في الدنيا والآخرة، وقيل في البخيل: إنه بعيد

---

* **بخل الحرص والتدبير:** لا يصل فيه البخيل في إمساكه، ومنعه، وتقتيره، إلى الدرجة المرضية التي يمكن أن يوصف بها بالبخل، فهو بخيل، ويصف الناس بالبخل، وكثيرًا ما يكون كريمًا، معطاءً لأهله، ويمارس البخل بصورة دائمة خارج نطاق الأسرة، ويسعى إلى تعديل سلوكياته البخيلة، فيحاول أن يكون كريمًا أمام أبنائه حتى لا ينقل إليهم هذه السلوكيات. ينظر: زيدان، أكرم: **سيكولوجية المال هوس الثراء وأمراض الثروة**. عالم المعرفة، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت، ع:351، 2008م، ص:114.

* **بخيل الوهم والخداع:** لا يدرك أنه بخيل، إذ يخدع نفسه أنه كريم، جواد، معطاء، ويتصف هذا النوع بإمساكه على نفسه، وعلى الآخرين، داخل الأسرة وخارجها، فيدمج أبناؤه خصال البخل وسلوكيات الاكتناز منه بصورة تلقائية، فيبيت البخل سلوكًا وراثيًّا. ينظر: **المرجع السابق**. ص:114.

* **بخل الحسد:** يتصف بخيل الحسد بأنه مادي، وقاسٍ، وعدواني، وحقود، ومشاكس، وكتوم، ومنغلق على ذاته، ولا يقنع دائمًا بما يمتلك، وينظر إلى ما في أيدي الآخرين حتى لو كان تافهًا أو قليلًا، ولا يشعر بالرضا عن حياته، فهو كثير الشكوى والسخط على الآخرين، بل على الحياة. ينظر: **المرجع السابق**. ص:115.

* **بخل المحافظة:** يتصف البخيل المحافظ ببعض خصائص بخيل الحسد، من حيث الادخار القهري، والكتمان، والسادية، والعدوانية، ويتميز بالحقد على الآخرين إذا كانوا يمتلكون أكثر منه، فيسير على مبدأ: (أن تملك شيئًا فهذا حقك، أما أن يكون أكثر مني فذاك حقي)، ويتسم بالغيرة، فهو متربص بالآخرين دائمًا، وهو قليل الحيلة، لديه كثير من المفاهيم، والأفكار، والمعتقدات الخاطئة، فالقلق اهتمام، والشك إخلاص، والارتياب وفاء، والحسد حب. ويتصف بأنه مرتب، ونظامي، ومدع أحيانًا، ودقيق في المواعيد، وتظهر عليه سلوكيات وسواسية، ويتصف بالحرص الشديد، والاكتناز، والتخزين المبالغ فيه، والهوس في تجميع الأشياء مهمة أم غير مهمة، ولا يقدم على إنفاق المال مهما كانت تفاهة الإنفاق، ولا يقوم بشراء أشياء قيمة، ويستخدم بقايا الآخرين، إذ إن ما لا تحتاجه اليوم حتمًا ستحتاج إليه في الغد. ينظر: **المرجع السابق**. ص:115-116.

* **البخل الانفعالي:** لا يقف عند الجوانب المادية المالية فقط، بل ينتشر إلى جوانب الحياة النفسية والاجتماعية، فهو حالة يمسك فيها الفرد عواطفه الإيجابية ومشاعره التي تخدم الآخرين، فيبدو قليل الكلام، عديم الانتباه، فاقدًا للاهتمام، لا يبالي بمشاعر الآخرين، ورغباتهم، يصعب عليه لين الكلام وحلوه، فيستعذب الكلام الخشن، والعبارات القاسية المختصرة المباشرة، يفتقر إلى التعاطف والمشاركة الوجدانية مع الآخرين، تكاد تكون علاقاته الاجتماعية شبه منقطعة تمامًا، فهو يتهرب منها؛ لاعتقاده أنها ستكلفه أموالًا، أو ردًّا للضيافة، أو أن يتجرأ أحد ويطلب قليلًا من المال، ويتولد لديه شعورٌ بالحسد والغيرة والضغينة إذا ما رأى الآخرين يتمتعون ويفرحون، فقلما نجد بخيلًا انفعاليًّا يتألم مع المتألمين، أو يبكي مع الباكين، أو يبتهج مع المبتهجين، فهو أناني الطبع، نرجسي الشخصية، ولا يستطيع مشاركة الآخرين لذّاتهم، ونادرًا ما يشعر بالشفقة نحو الآخرين، فتواصله الاجتماعي مع الآخرين تواصل وهمي خيالي. ينظر: **المرجع السابق**. ص:116-117.

[1] **المرجع السابق**. ص:114.

من الله، وبعيد من خلق الله، وبعيد من الجنة، قريب من النار، فهو ضيق الصدر، صغير النفس، قليل الفرح، كثير الهم والغم، لا يكاد تُقضى له حاجة، ولا يُعان على مطلوب. ومن الناس من يبخل بماله، على الرغم من امتلاكه ما يكفيه وذريتَه آلاف السنين لو عاشوها، ومنهم من يبخل بجاهه، فلا يبذله في الخير من إعانة مظلوم، أو شفاعة حسنة لمن يستحقها، ومنهم من يبخل بنصحه، فلا ينصح أحدًا، ولو استُنصح لبخل بالنصيحة.[1]

**نهى القرآن الكريم عن البخل، وسلك طريق الترهيب والتخويف مع الذين يبخلون بالمال** للمحتاجين، فعرض على نحو متدرج صورًا من العذاب المخفف والمشدد، وقلب المفاهيم التي بنى البخلاء عليها نظرياتهم، كتصور البخيل أن عدم الإنفاق، وجمع المال، رصيدٌ يتمتع به في أوقاته كلها، بل يدخره إلى اليوم الأسود![2] ولم يُبِح القرآن الكريم البخلَ، فلا نجد آيةً تحض عليه أو تجيزه، فكان له فلسفة خاصة، تقوم على رفض البخل بأشكاله وألوانه كلها، وأشار إلى أن حالة الخوف من الفقر التي تعتري النفس الإنسانية مصدرها وسوسة الشيطان، لقوله تعالى: ﴿**الشَّيْطَانُ يَعِدُكُمُ الْفَقْرَ وَيَأْمُرُكُم بِالْفَحْشَاءِ**﴾ (البقرة:268)، فهو يَعِد بالفقر ويخوف منه، ويشجع على البخل تبعًا لذلك، فيزرع في النفوس الخوف من الإنفاق، ويزرع بداخل الإنسان ضرورة اكتناز المال.[3]

**وكشف القرآن الكريم عن خطوات متعددة للنهي عن البخل والتقتير**، كالتصريح بالنهي عن البخل، في قوله تعالى: ﴿**وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ**﴾ (الإسراء:29)، والإخبار بأن ترك الإنفاق في

---

[1] الحمد، محمد بن إبراهيم: **سوء الخلق مظاهره– أسبابه– علاجه**. ط:3، دار ابن خزيمة، الرياض، المملكة العربية السعودية، 2012م، ص:39.

[2] ينظر: زايد، إبراهيم عبد الله: **الإنفاق: مفهومه، مظاهره، ضوابطه، وثمراته**. مجلة البحوث والدراسات الشرعية، مج:8، ع:77، 2018م، ص:62.

[3] ينظر: قحيف، أمان محمد عبد المؤمن: **منهج القرآن في الحض على الإنفاق**. مجلة الوعي الإسلامي، ع:595، 2015م، ص:61.

سبيل الله مهلكة، في قوله تعالى: ﴿**وَأَنفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ**﴾ (البقرة:195)، وبيان أن البخل سبب لتعسير الأمور، في قوله تعالى: ﴿**وَأَمَّا مَن بَخِلَ وَاسْتَغْنَى * وَكَذَّبَ بِالْحُسْنَى * فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْعُسْرَى**﴾ (الليل:8-10)، وتنفير المؤمنين من صفة البخل بأنها من صفات المنافقين، في قوله تعالى: ﴿**الْمُنَافِقُونَ وَالْمُنَافِقَاتُ بَعْضُهُم مِن بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمُنكَرِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمَعْرُوفِ وَيَقْبِضُونَ أَيْدِيَهُمْ**﴾ (التوبة:67)، والوعيد للممسكين عن الإنفاق، في قوله تعالى: ﴿**وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَبْخَلُونَ بِمَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ هُوَ خَيْرًا لَّهُم بَلْ هُوَ شَرٌّ لَّهُمْ سَيُطَوَّقُونَ مَا بَخِلُوا بِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ**﴾ (آل عمران:180).[1]

**وللبخل والتقتير آثار سلبية على الإنسان**، فهو يعتاد على حرمان نفسه، والتضييق عليها رغبة في حفظ المال، ويحرم أهله وبنيه من حقوقهم، ويضيق عليهم، فيجعلهم يبغضونه، ويتمنون موته، ومن الممكن بعد أن يعتاد المنع والحرمان، أن يمنع الصدقة أو الزكاة، ويقطع الرحم، ويعق الوالدين. ويعد البخل سببًا رئيسًا في البطالة الانكماشية، ومدعاة للتضخم والكساد، وإيجاد الضغائن والأحقاد.[2] ومن ضرر البخل في الدنيا تعريض مال الغني للضياع، والنهب، والسرقة، والأحقاد، وظهور الحملات الشنيعة على الأغنياء المترفين.[3] ولعل البخل من أشد الأمراض النفسية فتكًا بالفرد والمجتمع، ومنشؤه عدم التصديق بوعد الله، وإيثار النفس على غيرها من عباد الله، والاستهانة بسوء السمعة بين الناس.[4]

---

[1] ينظر: العمودي: **ترشيد الإنفاق من منظور قرآني**. مج:2، ص:970-971.

[2] ينظر: القضاة، أحمد محمد مفلح: **التدبير بين التقتير والتبذير: دراسة في ضوء قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ إِذَا أَنفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا وَكَانَ بَيْنَ ذَٰلِكَ قَوَامًا﴾ (الفرقان)**. المؤتمر الدولي القرآني الأول: توظيف الدراسات القرآنية في علاج المشكلات المعاصرة، جامعة الملك خالد، كلية الشريعة وأصول الدين، 2016م، مج:8، ص:5092-5093.

[3] ينظر: الزحيلي، وهبة: **التفسير المنير في العقيدة والشريعة والمنهج**. ط:10، دار الفكر، دمشق، سورية، 2009م، ج:4، ص:180.

[4] العيسى: **صفات الإنسان المذمومة في القرآن الكريم وسبل التزكية منها في ضوء مصادر التربية الإسلامية**. مج:35، ص:198.

ينبغي للمسلم أن يكون معتدلًا في إنفاقه للمال، فلا يصل إلى حد البخل والإقتار، ولا يضيع حقوق أهله وذويه، ولا يظلم نفسه، ولا يصل إلى التبذير والإسراف، إذ إن الإسلام دين الوسطية الداعي إلى الاعتدال، فلا ينبغي للإنسان أن يقصر في أداء الحق والواجب، فلا يسرف حتى لا يهدر ثروته، ولا يقتر فيضيع حقًّا، فهو يجعل نفقة الطاعات في المباحات بلا إفراط ولا تفريط.[1] فينفق باعتدال حسب قدرته المالية؛ لأن التقتير فيه توقيف لحركة الاستهلاك، وانحراف عن وضع الإنتاج والثروة، إذ إن التقليل المبالغ في الاستهلاك يؤدي إلى الكساد، وضعف الإنتاج، وتقليل فرص التنمية.[2]

## المطلب الأول: البعد النفسي للبخيل في قصة أصحاب الجنة.

**يعد القصص القرآني مصدرًا مهمًّا للتربية الإسلامية**، إذ يتميز بربانيته، وواقعيته، ودقته، وشموليته، وبإضافته تجارب سابقة على السلوك الإنساني؛ لتكمله، وتفيد منه في توجيه سلوك الأفراد والجماعات، ولا يخفى أن للقصة القرآنية أثرًا كبيرًا في النفوس، ووقعًا عظيمًا على القلوب، ولا يخفى أن حياة الإنسان كلها قصة، والتركيز على السلوك الإنساني هو العنصر الذي يصحب القصة.[3]

**تتجلى ثنائية الثبات والتغير في البخل في القرآن الكريم** في قصة أصحاب الجنة، في قوله تعالى: ﴿**إِنَّا بَلَوْنَاهُمْ كَمَا بَلَوْنَا أَصْحَابَ الْجَنَّةِ إِذْ أَقْسَمُوا لَيَصْرِمُنَّهَا مُصْبِحِينَ * وَلَا يَسْتَثْنُونَ * فَطَافَ عَلَيْهَا طَائِفٌ مِنْ رَبِّكَ وَهُمْ نَائِمُونَ * فَأَصْبَحَتْ كَالصَّرِيمِ * فَتَنَادَوْا مُصْبِحِينَ * أَنِ اغْدُوا عَلَى حَرْثِكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَارِمِينَ * فَانْطَلَقُوا وَهُمْ يَتَخَافَتُونَ * أَنْ لَا يَدْخُلَنَّهَا الْيَوْمَ عَلَيْكُمْ مِسْكِينٌ * وَغَدَوْا عَلَى حَرْدٍ**

---

[1] ينظر: العرابيد، عبد السميع خميس: **مظاهر الفساد المالي وطرق علاجه كما يصوره القرآن الكريم**. المؤتمر الدولي القرآني الأول: توظيف الدراسات القرآنية في علاج المشكلات المعاصرة، جامعة الملك خالد، كلية الشريعة وأصول الدين، 2016م، مج:7، ص:4569.

[2] ينظر: خليفات، عدنان عبد الكريم: **حديث القرآن الكريم عن الإنفاق**. مجلة الميزان للدراسات الإسلامية والقانونية، جامعة العلوم الإسلامية العالمية، عمادة البحث العلمي، ع:1، 2014م، مج:1، ص:179.

[3] ينظر: الجيوسي: **التعبير القرآني والدلالة النفسية**. ص:476-480.

**قادِرِينَ * فَلَمّا رَأَوْها قالُوا إِنّا لَضالُّونَ * بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ * قالَ أَوْسَطُهم أَلَمْ أَقُلْ لَكم لَوْلا تُسَبِّحُونَ * قالُوا سُبْحانَ رَبِّنا إِنّا كُنّا ظالِمِينَ * فَأَقْبَلَ بَعْضُهم عَلى بَعْضٍ يَتَلاوَمُونَ * قالُوا يا وَيْلَنا إِنّا كُنّا طاغِينَ * عَسى رَبُّنا أَنْ يُبَدِّلَنا خَيْرًا مِنها إِنّا إِلى رَبِّنا راغِبُونَ * كَذَلِكَ العَذابُ ولَعَذابُ الآخِرَةِ أَكْبَرُ لَوْ كانُوا يَعْلَمُونَ﴾** (القلم:17-33).

يتمثل الثبات في التصوير القصصي بدمار البستان، ويتمثل المتغير في البعدين النفسي والسيكولوجي لأصحابه، ففي بداية القصة، بدأ أصحاب البستان واثقين من قدرتهم على جني المحصول قبل وصول المساكين والفقراء، ثم تحولت الثقة إلى ندم وحسرة بعد دمار البستان.

تروي الآيات الكريمة قصة بخلاء ملكوا بستانًا، وقرروا أن يمنعوا المساكين حقهم مما تنبت الأرض، فأقسموا على أن ينطلقوا صباح يومهم الآتي منفردين؛ كي لا يلتقوا بالمساكين، ومتخافتين؛ حتى لا يحس عليهم أحد من المساكين والفقراء لكيلا يعطوهم من ثمار البستان شيئًا، فينفردوا بملكهم الثمار كلها، إلا أن الأمر الإلهي فاجأهم؛ فلم يجدوا أي أثر لبستانهم، إذ طاف عليه طائفٌ ليلًا –أزعم أنه شيء يطوف أو يدور أي ما يشبه الإعصار ولكن بلا تنقل– فصار صريمًا بلا نبت أو ثمر، فأدركوا، بعد ذلك ظلمهم، وقسوتهم، وطغيانهم، فبدأ كل منهم يلوم الآخر على ما خسروه وأضاعوه، ثم طفقوا يرغبون إلى ربهم أن يبدلهم خيرًا منه، ويقبل توبتهم.*

---

* تدور غالبية كتب التفسير حول قصة ثلاثة شبان ورثوا بستان أبيهم الكريم، الذي اعتاد المساكين أن يأتوا كل صباح إلى البستان، ويأخذوا حاجتهم، إلا أن هؤلاء الثلاثة، لم يهن عليهم ذلك، بل عدوه ضياعًا وهدرًا لأموالهم وثمراتهم ورزقهم، فقرروا ألا يعطوا أحدًا شيئًا. ومن تلك التفسيرات:

أَنَّ اللَّهَ ابْتَلى كفار مكة بِالجُوعِ والقَحْطِ لَمّا بَطِرُوا، مثل ابتلاء أَصْحاب الجَنَّةِ، المَعْرُوف خَبَرُهم عِنْدَهم، وذَلِكَ أَنَّها كانَتْ بِأَرْضِ اليَمَنِ عَلى فَرْسَخَيْنِ مِن صَنْعاءَ لِرَجُلٍ يُؤَدِّي حَقَّ اللَّهِ مِنها، فَماتَ وصارَتْ إلى أَوْلادِهِ، فَمَنَعُوا النّاسَ خَيْرَها، وبَخِلُوا بِحَقِّ اللَّهِ فِيها، أو هم قَوْمٌ مِن ثَقِيفٍ كانُوا بِاليَمَنِ مُسْلِمِينَ ورِثُوا مِن أَبِيهِمْ ضَيْعَةً، فِيها جَنّاتٌ وزَرْعٌ ونَخِيلٌ، وكانَ أَبُوهم يَجْعَلُ مِمّا فِيها مِن كُلِّ شَيْءٍ حَظًّا لِلْمَساكِينِ عِنْدَ الحَصادِ والصِّرامِ، فَقالَتْ بَنُوهُ: المالُ قَلِيلٌ، والعِيالُ كَثِيرٌ، ولا يَسَعُنا أَنْ نَفْعَلَ كَما كانَ يَفْعَلُ أَبُونا، وعَزَمُوا عَلى حِرْمانِ المَساكِينِ، فَصارَتْ عاقِبَتُهم إلى ما قَصَّ اللَّهُ في كِتابِهِ. الشوكاني، محمد

بن علي: **فتح القدير (الجامع بين فني الرواية والدراية من علم التفسير)**. ط:1، دار الكلم الطيب، دمشق، بيروت، 1414هـ، ج:5، ص:323.

**وتفسير آخر:** أن أَهْلَ مَكَّةَ أصيبوا بِبَلِيَّة القَحْط، كبَلاءِ أصْحاب الجَنَّةِ المَعْرُوفِ خَبرُها عِنْدَهم، وكانَتْ بِأَرْضِ اليَمَنِ بِالقُرْبِ مِنهم قَرِيبًا مِن صَنْعاءَ، لِرَجُلٍ كانَ يُؤَدِّي حَقَّ اللَّهِ تَعالى مِنها، فَماتَ، فَصارَتْ إلى ولَدِهِ فَمَنَعُوا النّاسَ خَيْرَها، وبَخِلُوا بِحَقِّ اللَّهِ تَعالى مِنها، فَكانَ ما ذَكَرَهُ اللَّهُ تَعالى. أو كانَتْ بِأَرْضٍ في اليَمَنِ، يُقالُ لَها صَوْرانُ بَيْنَها وبَيْنَ صَنْعاءَ سِتَّةُ أمْيالٍ. أو هم ناسٌ مِنَ الحَبَشَةِ، كانَتْ لِأبِيهِمْ جَنَّةٌ، وكانَ يُطْعِمُ مِنها المَساكِينَ، فَماتَ، فَقالَ بَنُوهُ: إنْ كانَ أبُونا لَأحْمَقَ حِينَ يُطْعِمُ المَساكِينَ، فَأقْسَمُوا عَلى أنْ لا يُطْعِمُوا مِنها مِسْكِينًا. أو أنَّها كانَتْ لِشَيْخٍ مِن بَنِي إسْرائِيلَ وكانَ يُمْسِكُ قُوتَ سَنَتِهِ، ويَتَصَدَّقُ بِالفَضْلِ، وكانَ بَنُوهُ يَنْهَوْنَهُ عَنِ الصَّدَقَةِ، فَلَمّا ماتَ أقْسَمُوا عَلى مَنعِ المَساكِينِ. وفِي رِوايَةٍ أنَّها كانَتْ لِرَجُلٍ صالِحٍ عَلى فَرْسَخَيْنِ مِن صَنْعاءَ وكانَ يَتْرُكُ لِلْمَساكِينِ ما أخْطَأهُ المِنجَلُ، وما في أسْفَلِ الأكْداسِ، وما أخْطَأهُ القِطافُ مِنَ العِنَبِ، وما بَقِيَ عَلى البِساطِ تَحْتَ النَّخْلَةِ إذا صَرُمَتْ، فَكانَ يَجْتَمِعُ لَهم شَيْءٌ كَثِيرٌ، فَلَمّا ماتَ، قالَ بَنُوهُ: إنْ فَعَلْنا ما كانَ يَفْعَلُ أبُونا ضاقَ عَلَيْنا الأمْرُ، ونَحْنُ أُولُو عِيالٍ، فَحَلَفُوا لِيَصْرِمُنَّها وقْتَ الصَّباحِ خُفْيَةً عَنِ المَساكِينِ. الألوسي: **روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني**. ج:15، ص:33-34.

**وآخر:** أنها قِصَّةٌ مَعْرُوفَةٌ، وهي أنَّهُ كانَتْ بِبَلَدٍ يُقالُ لَهُ: ضَرَوانُ مِن بِلادِ اليَمَنِ بِقُرْبِ صَنْعاءَ. وقِيلَ: ضَرَوانُ اسْمُ هَذِهِ الجَنَّةِ، وكانَتْ جَنَّةً عَظِيمَةً، غَرَسَها رَجُلٌ مِن أهْلِ الصَّلاحِ والإيمانِ مِن أهْلِ الكِتابِ، ولَمْ يُبَيِّنْ مِن أيِّ أهْلِ الكِتابِ هو: أمِنَ اليَهُودِ أمْ مِنَ النَّصارى؟ أو كانُوا مِنَ الحَبَشَةِ، وكانَتْ لِأبِيهِمْ جَنَّةٌ، وجَعَلَ في ثَمَرِها حَقًّا لِلْمَساكِينِ، وكانَ يُدْخِلُ مَعَهُ المَساكِينَ لِيَأْخُذُوا مِن ثمارِها فَكانَ يَعِيشُ مِنها اليَتامى، والأرامِلُ، والمَساكِينُ، وكانَ لَهُ ثَلاثَةُ بَنِينَ، فَلَمّا تُوُفِّيَ صاحِبُ الجَنَّةِ، وصارَتْ لِأوْلادِهِ، أصْبَحُوا ذَوِي ثَرْوَةٍ، وكانُوا أشِحَّةً أوْ كانَ بَعْضُهم شَحِيحًا، وبَعْضُهم دُونَهُ، فَتَمالَئُوا عَلى حِرْمانِ اليَتامى، والمَساكِينِ، والأرامِلِ، وقالُوا: لَنَغْدُوَنَّ إلى الجَنَّةِ في سُدْفَةٍ مِنَ اللَّيْلِ، قَبْلَ انْبِلاجِ الصَّباحِ، مِثْلُ وقْتِ خُرُوجِ النّاسِ إلى جَنّاتِهِمْ لِلْجِذاذِ، فَلَنَجُذَّنَّها قَبْلَ أنْ يَأْتِيَ المَساكِينُ. فَبَيَّتُوا ذَلِكَ وأقْسَمُوا أيْمانًا عَلى ذَلِكَ، ولَعَلَّهم أقْسَمُوا لِيُلْزِمُوا أنْفُسَهم بِتَنْفِيذِ ما تَداعَوْا إلَيْهِ. وهَذا يَقْتَضِي أنَّ بَعْضَهم كانَ مُتَرَدِّدًا في مُوافَقَتِهِمْ عَلى ما عَزَمُوا عَلَيْهِ، وأنَّهم ألْجَمُوهُ بِالقَسَمِ، وقِيلَ: كانَ يَقُولُ لَهُمْ: اتَّقُوا اللَّهَ واعْدِلُوا عَنْ خُبْثِ نِيَّتِكم مِن مَنعِ المَساكِينِ، وذَكَّرَهُمُ انْتِقامَ اللَّهِ مِنَ المُجْرِمِينَ، أيْ فَغَلَبُوهُ ومَضَوْا إلى ما عَزَمُوا عَلَيْهِ، ولَعَلَّهم أقْسَمُوا عَلى أنْ يَفْعَلُوا، وأقْسَمُوا عَلَيْهِ أنْ يَفْعَلَ مَعَهم ذَلِكَ فَأقْسَمَ مَعَهم، أوْ وافَقَهم عَلى ما أقْسَمُوا عَلَيْهِ، ولَمّا جاءُوا جَنَّتَهم، وجَدُوها مُسْودةً، أصابَها ما يُشَبِّهُ الاحْتِراقَ، فَلَمّا رَأوْها بِتِلْكَ الحالَةِ، عَلِمُوا أنَّ ذَلِكَ أصابَهم دُونَ غَيْرِهِمْ لِعَزْمِهِمْ عَلى قَطْعِ ما كانَ يَنْتَفِعُ بِهِ الضُّعَفاءُ مِن قَوْمِهِمْ، وأنابُوا إلى اللَّهِ رَجاءَ أنْ يُعْطِيَهم خَيْرًا مِنها. ابن عاشور: **التحرير والتنوير**. ج:29، ص:80.

**وآخر:** أنَّ رَجُلًا كانَ بِناحِيَةِ اليَمَنِ لَهُ بُسْتانٌ، وكانَ مُؤْمِنًا. وكانَ يَأْخُذُ مِنهُ قَدْرَ قُوتِهِ، وكانَ يَتَصَدَّقُ بِالباقِي. وقِيلَ: كانَ يَتْرُكُ لِلْمَساكِينِ ما تَعَدّاهُ المِنجَلُ، وما يَسْقُطُ مِن رُؤُوسِ النَّخْلِ، وما يَنْتَثِرُ عِنْدَ الدِّراسِ، فَكانَ يَجْتَمِعُ مِن هَذا شَيْءٌ كَثِيرٌ، فَماتَ الرَّجُلُ عَنْ ثَلاثِ بَنِينَ، فَقالُوا: واللَّهِ إنَّ المالَ لَقَلِيلٌ، وإنَّ العِيالَ لَكَثِيرٌ، وإنَّما كانَ أبُونا يَفْعَلُ هَذا إذْ كانَ المالُ كَثِيرًا، والعِيالُ قَلِيلًا، وأمّا الآنَ فَلا نَسْتَطِيعُ أنْ نَفْعَلَ هَذا. فَعَزَمُوا عَلى حِرْمانِ المَساكِينِ، وتَحالَفُوا بَيْنَهم لَيَغْدُنَّ قَبْلَ خُرُوجِ النّاسِ، فَلْيَصْرِمُنَّ نَخْلَهُمْ، فَذَلِكَ قَوْلُهُ تَعالى: ﴿إذْ أقْسَمُوا﴾ أيْ: حَلَفُوا ﴿لَيَصْرِمُنَّها﴾ أيْ: لَيَقْطَعُنَّ نَخْلَهم ﴿مُصْبِحِينَ﴾ أيْ: في أوَّلِ الصَّباحِ. وقَدْ بَقِيَتْ مِنَ اللَّيْلِ ظُلْمَةٌ لِئَلّا يَبْقى لِلْمَساكِينِ شَيْءٌ. ابن الجوزي: **تفسير ابن الجوزي (زاد المسير في علم التفسير)**. ج:4، ص:323.

**يتجلى الإبداع القرآني في تصويره القصصي**، فمن مظاهره تنوع طريقة المفاجأة في الآيات الكريمة، إذ يكشف السر للمشاهدين، ويبقيه مخفيًّا عن أبطال القصة، يتصرفون وهم جاهلون به، بينما يشاهد الجمهور تصرفاتهم وهم يعلمون النتيجة والحدث، وذلك في معرض السخرية من تلك الشخصيات التي لا تدري حقيقة الموقف. فأصحاب الجنة أَقْسَمُوا بأن يَصْرِمُوا البستان صباحًا، ولا يَسْتَثْنُونَ أحدًا، فَطافَ عَلَيْه طائِفٌ مِن الله وهم نائِمُونَ، فصار كالصَّرِيمِ، والمشاهدون يعلمون هذا، أما أصحاب الجنة فيجهلونه؛ لقوله تعالى: ﴿**فَتَنادَوْا مُصْبِحِينَ* أنِ اغْدُوا عَلى حَرْثِكم إنْ كُنْتُمْ صارِمِينَ* فانْطَلَقُوا وهم يَتَخافَتُونَ * أنْ لا يَدْخُلَنَّها اليَوْمَ عَلَيْكم مِسْكِينٌ* وغَدَوْا عَلى حَرْدٍ قادِرِينَ**﴾ (القلم:21-25)، فظل المشاهد ساخرًا من هؤلاء وهم يتنادون ويتخافتون، والجنة خاوية كالصريم، إلى أن كشف لهم السر أخيرًا، في قوله: ﴿**فَلَمّا رَأَوْها قالُوا إنّا لَضالُّونَ * بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ**﴾ (القلم:26-27)، وذلك جزاء من يحرم المساكين ويصر على ذلك، ولم ينته الموقف عند هذا الحد؛ بل شوهدوا عند إدراكهم السبب، في قوله: ﴿**فَأقْبَلَ بَعْضُهم عَلى بَعْضٍ يَتَلاوَمُونَ * قالُوا يا وَيْلَنا إنّا كُنّا طاغِينَ* عَسى رَبُّنا أنْ يُبْدِلَنا خَيْرًا مِنها إنّا إلى رَبِّنا راغِبُونَ**﴾ (القلم:30-32)، ثم كان التعقيب الإلهي، في قوله: ﴿**كَذَلِكَ العَذابُ ولَعَذابُ الآخِرَةِ أكْبَرُ لَوْ كانُوا يَعْلَمُونَ**﴾ (القلم:33).[1]

أفضت صيرورة قصة البستان إلى تشكيل أربعة مشاهد، توزعت بين الثبات والتغير، فمشهد البستان قبل دماره، يناظره مشهد عزم أصحابه على قطف الثمار وحرمان المساكين والفقراء من حقهم في الثمار. ومشهد دمار البستان يناظر المشهد النفسي لأصحاب البستان الذين أصابتهم الصدمة والخيبة والحسرة والندم. والمشاهد الأربعة تختزل بمشهدين بصري مرئي ونفسي محسوس.

[1] ينظر: عبد التواب: **الصورة الأدبية في القرآن الكريم**. ص:96-97.

يقطع البخيل النعم عن نفسه وعن الآخرين، **فصفات القطع والمنع والحرمان صفات دائمة فيه**، مميزة له، فجاءت دلالة القطع في الآيات الكريمة معلنة واضحة، فارتبطت وتناسبت بما يعرف به البخلاء ويميزهم عن غيرهم، فأصحاب الجنة حسموا أمرهم على قطع الثمار صباحًا، ومنعها عن المساكين، وكان جزاؤهم من جنس عملهم ونيتهم، إذ عوقبوا بصرم الثمار، وقطعها، وتدميرها، ومنع الفائدة المرجوة منها، فتناسبت مع صفات البخيل المعلنة الواضحة المميزة له. وتعد صفات البخيل ثابتة، ومصير البستان متغيرًا، فلا ثبات لأمر إلا بمشيئة الله، ولا تغير إلا بإرادة رب العالمين.

تعد نوايا أصحاب البستان نواة دلالية مركزية في التصوير القصصي، وتتمثل النواة الدلالية بقرار صرم البستان وقطع ثماره في الصباح الباكر، وتلتقي دلالة الصرم في قوله تعالى: ﴿**إِذْ أَقْسَمُوا لَيَصْرِمُنَّهَا مُصْبِحِينَ**﴾ (القلم:17)، مع دلالة (خفت) في قوله تعالى: ﴿**فَانطَلَقُوا وَهُمْ يَتَخَافَتُونَ**﴾ (القلم:23)، إذ تصور دلالة مادتي (صرم)، و(خفت) صورة نفسية وصوتية، "فالصَّرْمُ: القَطْعُ البائنُ، والانْصِرامُ: الِانْقِطَاعُ، والتصارُمُ: التَّقَاطُعُ، والصَّرامَةُ: المُسْتَبِدُّ برأْيه المُنْقَطِعُ عَنِ المُشاورة، والصَّرِيمُ المَجْذُوذُ الْمَقْطُوعُ"[1]، ونقول: "خَفَتَ الْمَيِّتِ إذا انْقَطَعَ كلامُه وَسَكَتَ، فَهُوَ خافِتٌ، وَيُقَالُ لِلرَّجُلِ إذا ماتَ: قَدْ خَفَتَ أَي انْقَطَعَ كَلَامُهُ"[2]، و**تتشابه دلالة مادة (صرم) مع حال أصحاب الجنة (البستان)**، إذ عزموا أمرهم وحسموه وأقسموا على ذلك؛ تأكيدًا وتوثيقًا منهم على تنفيذ ما اتفقوا عليه، **فتدل مادة (صرم) على معنى العزم**، فنقول: "أَمر صَرِيمٌ: مُعْتَزَمٌ، والصَّرِيمَةُ: الْعَزِيمَةُ عَلَى الشَّيْءِ وقَطْعُ الأَمر، والصَّريمةُ: إِحْكامُك أَمْرًا وعَزْمُكَ عَلَيْهِ، والصَّرِيمَةُ وَالْعَزِيمَةُ وَاحِدٌ، وَهِيَ الْحَاجَةُ الَّتِي عَزَمْتَ عَلَيْهَا"[3].

---

[1] ابن منظور: **لسان العرب**. مادة: (صرم).

[2] **المصدر السابق**. مادة: (خفت).

[3] **المصدر السابق**. مادة: (صرم).

وتحمل **مادة (حرد)** في قوله تعالى: ﴿**وَغَدَوْا عَلَىٰ حَرْدٍ قَادِرِينَ**﴾ (القلم:25)، معنى **القصد** الذي يتصف به البخيل، فهو يمنع بقصد، أي إن منعه الشيء عن نفسه أو عن الآخرين يكون مقصودًا، لا عفويًّا، "فالحرد: الجِد وَالْقَصْدُ، وحَرَدَ يَحْرِد حَرْدًا: قَصَدَ"[1]، **وتلتقي مع مادة (حرم) في قوله تعالى:** ﴿**بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ**﴾ **(القلم:27)، في دلالتهما على معنى المنع الذي يتميز به البخيل عن غيره**، إذ إن حبس الأشياء عن الآخرين هو الهدف الأول عنده، "فالحَرْدُ: الْمَنْعُ، وَغَدَوْا عَلى حَرْدٍ، أَي: عَلَى مَنْعٍ وَبُخْلٍ"[2]، أما "الحِرْمُ فهو الْمَنْعُ، والحَرِمُ: الْمَمْنُوعُ، وأَحْرَمَهُ: مَنَعَهُ الْعَطِيَّةَ، وَرَجُلٌ مَحْروم: مَمْنُوعٌ مِنَ الْخَيْرِ، والحرمان: نقيض الإعطاء، والمَحْروم: الَّذِي لَا يَنْمِي لَهُ مَالٌ"[3]، ويؤيد ذلك ما فعله أصحاب الجنة من محاولة الخروج باكرًا، بخفاء عن أعين الناس، فبذلك يحجبون ويمنعون الناس وأنظارهم، وحسدهم (في نظر البخيل)، فهم يشعرون أن الناس يترصدونهم، ويراقبون رزقهم، ويتربصون ثروتهم.

**توحي القصة القرآنية المدروسة بقانون أساس في الكون**، فتؤكد قانون **(الجزاء من جنس العمل)**، الذي يدل على صفةٍ عظمى لله –عز وجل– هي صفة العدل، إذ نلمس من الآيات الكريمة المدروسة أن الله العادل –جل في علاه– جزى هؤلاء البخلاء بما عقدوا نواياهم عليه، من صرم للحرث، ومنع وحرمان لحق المساكين فيه، فجزاهم منعًا وحرمانًا، وصرم الحرث والثمر فأهلكه بالصرم والقطع الذي خططوا إليه، بل حرق قلوبهم وبستانهم كما أرادوا أن يحرقوا قلوب الفقراء والمساكين. ويرتبط هذا القانون الكوني بمصير المكذبين، والهمازين، والمشائين بنميم، والمناعين للخير، والمعتدين الآثمين، وغيرهم، فمصيرهم سيكون من جنس عملهم، سواء في الدنيا أم في الآخرة. **وعطفًا على ما سبق، فالثابت قانون العدل الرباني، والمتغير الفضاء النفسي لأصحاب البستان، ومصير البستان نفسه.**

---

[1] ابن منظور: **لسان العرب**. مادة: (حرد).

[2] **المصدر السابق**. مادة: (حرد).

[3] **المصدر السابق**. مادة: (حرم).

ويؤكد ثنائية الثابت والمتغير ما تدل عليه **مادة (خفت) وارتباطها** بالحال الذي آل إليه البستان في نهاية القصة من موت وهلاك للحرث والثمار، فتتصل بالفكرة المركزية للآيات، وهي فكرة الجزاء من جنس العمل، إذ **تفيد مادة (خفت) معنى الموت والسكون**، فنقول: "خَفَتَ الصوتُ خُفُوتًا: سَكَنَ، والتَّخافُتُ: تَكَلُّف الخُفُوتِ، وَهُوَ الضَّعْفُ والسُّكونُ، وخَفَتَ مِنَ النُّعاس: سَكَن، وخَفَتَ الرجلُ خُفُوتًا: ماتَ، والخُفات: مَوْتُ البَغْتة وخَفَتَ خُفاتًا: مَاتَ فَجأَةً"[1]، **وتتسم مادة (خفت) بالدلالة الصوتية وانقطاع الصوت**، "والمُخافَتةُ: إِخْفاءُ الصَّوْتِ، وخافَتَ بِصَوْتِهِ: خَفَّضَه، وخَفَتَ صَوْتُهُ يَخْفِتُ: رَقَّ"[2]، **وتلتقي معها مادة (نوم) في دلالة انقطاع الصوت، والسكون، والموت**، "فكلُّ شيءٍ سكَنَ فَقَدْ نامَ، ونَامَت الريحُ: سكَنَت، وقيل: ماتت، ونَامَ البحرُ: هدَأَ"[3]، **وتتوافق مع مادة (سكن) في دلالتها على معنى الموت، والهدوء، والسكون**، "فالسُّكُونُ: ضِدُّ الْحَرَكَةِ، وسَكَنَ الشيءُ سُكونًا: ذَهَبَتْ حَرَكَتُهُ، وَكُلُّ شَيْءٍ مَاتَ فَقَدْ سَكَنَ، والسَّكَنُ: الساكِنُ"[4]، فأصحاب الجنة حينما قرروا منع المساكين حقهم من رزق الله وحرث الأرض، فكأنهم أرادوا إماتتهم، وسلبهم حياتهم وتسكينها، فكان جزاؤهم أن سُلبوا بستانهم، وسُكّنت خيراته، فلم يعد مثمرًا كما كان.

ويحمل أسلوب الاستفهام الإنكاري في قوله: ﴿**أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ**﴾ **(القلم:28)**، معنى التوبيخ والتقرير، **الذي يُضمر التغير النفسي لدى أصحاب البستان الذين تحولوا من الثقة بالنفس، والقدرة على قطف ثمار البستان، ومنع حقوق المساكين والفقراء، إلى الخيبة والحسرة والندم**، فالأخ العادل، الأكثر وسطية، وعظهم وحذرهم من أن يحرموا المساكين حقهم، لكن دلالة السياق الواضحة على مقول القول أدت إلى حذفه، وربما نلمس أن القرآن الكريم حذف مقول القول؛ لأنه لم يؤثر شيئًا فيما سبق،

---

[1] ابن منظور: **لسان العرب**. مادة: (خفت).

[2] **المصدر السابق**. مادة: (خفت).

[3] **المصدر السابق**. مادة: (نوم).

[4] **المصدر السابق**. مادة: (سكن).

وطواه سريعًا؛ لأنه –قد يكون– شاركهم واستجاب لرغبتهم، وعزم على ما عزموا عليه، فكان من الأنسب أن ينتقل سريعًا إلى حثهم على التسبيح والتوبة،[1] وأرجح أن أسلوب الاستفهام في قوله: ﴿**أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ**﴾ **(القلم:28)**، يتناسب مع حال البخلاء بالنسبة للناس؛ لدلالته على التهكم واللوم، فهي علاقة تبادلية، إذ إن البخيل يظل يتهكم على الآخرين ويسخر منهم طيلة حياته، ويلومهم على إسرافهم وتبذيرهم –في نظره– وعدم تقديرهم للنعم، وعدم حفاظهم عليها، أما الناس فيتهكمون على البخلاء، ويسخرون منهم، ويلومونهم؛ لحرمانهم أنفسَهم من أبسط حقوقهم، ولتفاهة مرادهم.

**وتظهر حالة الندم المصحوب باللوم عند أصحاب الجنة**، إذ اعترفوا بضلالهم عند رؤية الدمار والخراب الذي آل إليه بستانهم، وبحرمانهم الحرث، والثمار، والخير، والأجر، والثواب، واعترفوا بأنهم أوقعوا أنفسهم في متاهة الظلم والطغيان، ثم بدؤوا بلوم بعضهم بعضًا. ونكتشف من سلوكهم أن الندم حالةٌ انفعاليةٌ تنشأ عن شعور الإنسان بالذنب، وأسفه على ارتكابه، ولومه نفسه على ما فعل، فيتمنى لو لم يفعل ذلك.

وجاء تصوير الندم في القرآن الكريم؛ ليعبر عن الشعور الذي يحس به الإنسان، إذ يواجه مصيره المحتوم، ويتذكر ما مضى آسِفًا عليه، ومتمنيًّا لو لم يقدم عليه،[2] ويصور إقبال بعضهم على بعض يتلاومون حالةً تشبه المهاجمة والتقريع، وصيغة التلاوم تخيل في ذهن السامع صورًا من التقاذف والتراشق الواقع بينهم بهذا الإجمال البالغ غاية الإيجاز ودقته.[3] فجاء التلاوم لفظًا صريحًا في قوله تعالى: ﴿**فَأَقْبَلَ بَعْضُهُم عَلَى بَعْضٍ يَتَلَاوَمُونَ**﴾ (القلم:30)، إذ ينتهي المشهد بأن يبدأ أوسط أصحاب الجنة

---

[1] ينظر: السلمي، عبد الرحمن الجامعي: **جماليات النظم القرآني في قصة أصحاب الجنة في سورة القلم**. معهد الإمام الشاطبي للدراسات القرآنية، مج:6، ع:12، 2012م، ص:250.

[2] عزيز، صالح ملا: **تصوير الانفعالات النفسية في القرآن الكريم دراسة فنية**. قسم اللغة العربية، كلية التربية، جامعة صلاح الدين، ص:8.

[3] ينظر: السلمي: **جماليات النظم القرآني في قصة أصحاب الجنة في سورة القلم**. ص:252.

بتذكيرهم نصحه إياهم في أثناء حديثهم عن عقد نية الصرم للثمار، ومنعها عن المساكين، ولومه لهم بعد وقوع المصيبة، ثم يبدؤون بلوم أنفسهم، ولوم بعضهم بعضًا، وهو ما يتناسب تمامًا مع صفة اللوم والتلاوم الدائمة عند البخيل وعليه غالبًا.

**ويؤكد صوت النون المسبوق بالياء أو الواو مشاعرَ الندم والرضوخ**، ويضفي صوتُ المد قبلها نغمةَ الانكسار والهبوط النفسي عليها، فصوت النون في أغلب فواصل القصة القرآنية ارتبط بالجمع والجماعة، فلم تكن أصلًا لغويًّا اشتقت منه تلك الألفاظ: (مصبحين، يستثنون، نائمون، صارمين، يتخافتون، مسكين، قادرين، ضالون، محرومون، تسبحون، ظالمين، يتلاومون، طاغين، راغبون، يعلمون)، فختم الآيات بواو ونون أو بياء ونون يوحي بتقرير حقيقة، فهم في بداية القصة ظهروا واثقين من أنهم سيحصدون الزرع والثمر، لكنهم فوجئوا، فصاروا واثقين من أن غضب الله وقع عليهم، وفي ذلك ما يوحي بالاستكانة، والاستسلام لقضاء الله، معترفين بذنبهم.[1] ولحرف النون أثره في الإيحاء، فهو من أكثر الحروف قدرة على تصوير مشاعر النفس وتجسيدها، إذ تضفي نغمته على القصة إيقاعًا صوتيًّا يتلاءم مع جو الحزن والندم الذي أصاب أصحاب الجنة، أما وجود حرفي المد (الياء) و(الواو) فيسهم في وحدة الآيات التركيبية، ووحدة الانسجام الصوتي، والتوافق النغمي، وما يلائمها من وحدة نفسية، إذ إن لتكرار حرف المد أثرًا قويًّا في إيقاع النص؛ لأن كل حرف من حروف المد يكون مقطعين، خلافًا لغيرها من الحروف، والمد يحتاج إلى جهد نفسي، وهو الذي يتناسب مع مشاعر الأسى والحزن التي سيطرت على جو القصة.[2]

**تضمنت القصة القرآنية الكريمة قيمًا تربوية عدة**، تسهم في تعزيز ثنائية الثبات والتغير في قصة البستان، إذ يلحظ المتأمل **قيمة الإنفاق في سبيل الله**، فأصحاب الجنة رفضوا الإنفاق في سبيل

---

[1] جبر، يحيى: **مقابلة شخصية**. الساعة: 8 مساءً، بتاريخ: 2022/9/16م.

[2] ينظر: السلمي: **جماليات النظم القرآني في قصة أصحاب الجنة في سورة القلم**. ص:268.

الله، ولم يكتفوا بتصميمهم على حرمان الفقراء، بل راحوا يقسمون بأنهم سيحرمون الآخرين من الإنفاق، أي إنهم يقسمون على ارتكاب المعصية، فسيقطفون الغلال وحدهم، ولن يكون هناك بعد اليوم أي حصة لأحد غيرهم، فلا تبديد للثروة بعد الآن. ومن القيم التربوية الأخرى التي تفهم من القصة أيضًا **قيمة الكرم والتعرف إلى أضرار الشح**، فالقصة توحي أن لكل إنسان أحد خيارين في تعامله مع ما آتاه الله من علم، فإما أن يكرم الفقراء ويمنحهم حقهم من نعم الله ورزقه، ولا يحرمهم ذلك، وإما خلاف ذلك، فيبخل عليهم، فيترتب على ذلك العقوبة، والدمار، والهلاك، وأكدت القصة على **ضرورة الأخذ بالأسباب، وضرورة الربط بين السبب والنتيجة**، فالإسلام يرفض التفسير الأسطوري الخرافي لحوادث الطبيعة والكون والحياة، فربطت القصة بين المقدمات والنتائج، وبين النتائج والأسباب. وظهرت أهمية **التجرد من هوى النفس في القصة**، فعلى الفرد أن يسرع إلى الخيرات، ونكران الذات، والتجرد من هوى النفس؛ إذ إن سبب دمار الجنة هو اتباع أصحابها لهوى ذواتهم، وبعدهم عن طاعة الله، وعصيانهم أمره. ويتبين من القصة أن **الجزاء يكون من جنس العمل**، فلما أرادوا أن يحرموا الفقراء حقهم من البستان، كان عقاب الله لهم على الثمار نفسها.[1]

## المطلب الثاني: البعد النفسي للبخيل في قصة صاحب الجنتين.

**جاءت ثنائية الثبات والتغير في قصة صاحب الجنتين** في قوله تعالى: ﴿**واضْرِبْ لَهم مَّثَلًا رَّجُلَيْنِ جَعَلْنا لِأَحَدِهِما جَنَّتَيْنِ مِن أَعْنابٍ وحَفَفْناهُما بِنَخْلٍ وجَعَلْنا بَيْنَهُما زَرْعًا * كِلْتا الْجَنَّتَيْنِ آتَتْ أُكُلَها ولَمْ تَظْلِمْ مِنهُ شَيْئًا وفَجَّرْنا خِلالَهُما نَهَرًا * وكانَ لَهُ ثَمَرٌ فَقالَ لِصاحِبِهِ وهُوَ يُحاوِرُهُ أَنا أَكْثَرُ مِنكَ مالًا وأَعَزُّ نَفَرًا * ودَخَلَ جَنَّتَهُ وهُوَ ظالِمٌ لِنَفْسِهِ قالَ ما أَظُنُّ أَنْ تَبِيدَ هَذِهِ أَبَدًا * وما أَظُنُّ السّاعَةَ قائِمَةً ولَئِنْ رُدِدْتُ إِلى**

[1] ينظر: آل حامد، بنان سعد عبد الله: **المضامين التربوية في القصص القرآني: قصة أصحاب الجنة، قصة أصحاب الحجر وقصة أصحاب الأخدود**. جامعة طنطا، كلية التربية، مجلة كلية التربية، مج:74، ع:2، 2019م، ص:628-630.

رَبِّی لَأَجِدَنَّ خَيْرًا مِنهُما مُنقَلَبًا * قالَ لَهُ صاحِبُهُ وهُوَ يُحاوِرُهُ أَكَفَرْتَ بِالَّذِی خَلَقَكَ مِن تُرابٍ ثُمَّ مِن نُطْفَةٍ ثُمَّ سَوّاكَ رَجُلًا * لَكِنّا هو اللَّهُ رَبِّی ولا أُشْرِكُ بِرَبِّی أَحَدًا * ولَوْلا إِذْ دَخَلْتَ جَنَّتَكَ قُلْتَ ما شاءَ اللَّهُ لا قُوَّةَ إِلّا بِاللَّهِ * إِنْ تَرَنِی أَنا أَقَلَّ مِنكَ مالًا وولَدًا * فَعَسى رَبِّی أَنْ يُؤْتِيَنِی خَيْرًا مِن جَنَّتِكَ ويُرْسِلَ عَلَيْها حُسْبانًا مِنَ السَّماءِ فَتُصْبِحَ صَعِيدًا زَلَقًا * أَوْ يُصْبِحَ ماؤُها غَوْرًا فَلَنْ تَسْتَطِيعَ لَهُ طَلَبًا * وأُحِيطَ بِثَمَرِهِ فَأَصْبَحَ يُقَلِّبُ كَفَّيْهِ عَلى ما أَنْفَقَ فِيها وهِیَ خاوِيَةٌ عَلى عُرُوشِها ويَقُولُ يا لَيْتَنِی لَمْ أُشْرِكْ بِرَبِّی أَحَدًا * ولَمْ تَكُنْ لَهُ فِئَةٌ يَنْصُرُونَهُ مِن دُونِ اللَّهِ وما كانَ مُنْتَصِرًا﴾ (الكهف:32-43).

يتمثل المتغير في التصوير القصصي بمشاهد متناظرة ومتقابلة؛ صورة الرجل مالك البستان المزهو بنفسه ومُلكه يناظره ثمر البستان، ويقابله صورة الرجل المؤمن، الواثق بالله، الذي يدرك حقائق الأمور، فهو يعي ما يقول، ولم يأخذه فقره إلى الشرك أو الكفر أو الطغيان، ويناظره التدبير الرباني. ويتمثل الثبات بإيمان الرجل المؤمن والتدبير الرباني، إذ لا يمكن لإيمان الرجل المؤمن أن يتزحزح أو يتأثر بأي حال كان، لا بفقر ولا بغنى، وكذلك التدبير الرباني العادل، الذي لا يتغير ولا يتبدل، فالرجل الذي اغتر بجنته وملكه، وأن يؤذي الآخرين بكلامه، كان جزاؤه أن يسلب منه، وأن يفقد تعبه وماله الذي أنفقه على البستان. أي إن الذي كفر وأنكر ولم يتنازل عن كفره، واعتدى على الآخرين، ولم يمنحهم حقوقهم، سيعذب ويعاقب، ولا مجال للمغفرة، فالعدل والتدبير الإلهي يقتضي أن يحاسب كل على عمله، غنيهم وفقيرهم، أبيضهم وأسودهم، فلا مكان للمحسوبيات فيه، والتقوى هي الفصل، فيقول تعالى: ﴿**إِنَّ أَكْرَمَكم عِنْدَ اللَّهِ أَتْقاكم**﴾ (الحجرات:13).

**تحكي الآيات الكريمة** مثلًا ضربه الله -تعالى- في وصف حال الكافر الغني، وما يجره إليه البطر من كفران حق النعم، وحال المؤمن الذي مُلئ صدره بالإيمان والثقة بالله، فلا ينظر للمال والحطام إلا نظرة للأمور المتنقلة، والأعراض الزائلة المتحولة؛ فلو مُنحها شكرَ، ولو حُرمها صبرَ، فهو بذلك

كبير الفؤاد، عزيز النفس، بعيد من الدنايا وارتكاب الخطايا، فيصور الله للإنسان من تحاورهما كيف ينفخ الشيطان في أنوف أصحاب المال، ويطغيهم، حتى يرميهم في مصائر العدم، وكيف يعلو الإيمان بنفس صاحبه، فيهبه أعظم العلم بالحياة، وتكاليفها، وبالأمور، وتصاريفها، فيجعله مؤيدًا بالقول الثابت في الحياة الدنيا والآخرة، ويجعل له حسن العاقبة في الدارين، فالعالم لا يقوده إلا العقل والعلم، مع تسخير الثروة لهما.[1] أي **إن الآيات الكريمة تصور لنا قصة رجلين**، أحدهما غني، أوتي خيرًا كاملًا مضاعفًا، فبدلًا من أن يؤتى جنة واحدة، أوتي –لحكمة ما– جنتين اثنتين، بينما الآخر فقير، لم يؤت من الخير المادي شيئًا، فلم يحظ بشيء، لا جنة ولا جنتين.

وتسرد لنا الآيات الكريمة وصفًا دقيقًا لجنتي الغني، يوحي باكتمالهما، وشدة جمالهما، وعظم تناسقهما، وبراعة هندستهما، وتوافر مستلزمات الحياة فيهما، فهما جنتان لم ينقصهما أي شيء من عناصر الحياة الضرورية لهما، بل إن هاتين الجنتين أثمرتا، وتضاعفت ثمارهما، واكتملت على أفضل وجه، وأبهى لون، وأطيب رائحة، وأحلى مذاق، وكل ما تشتهيه الأنفس، وتلذه الأعين.

تفاجئنا الآيات الكريمة بانقلاب صاحب الجنتين الغني على الآخر الفقير، فيبدأ حوار بينهما، فيدعي الأول أنه صاحب مال ونفر، بل إنه ينقلب بعد ذلك، فينكر قيام الساعة، **وينكر قانون التغير الكوني**، فيدعي أن لا شيء يمكن له أن يُبيد جنتيه بعد أن وصلتا إلى هذا المستوى الجمالي، الزراعي، خاصةً، بعد أن توافرت وسائل الحياة كلها للأرض الزراعية. ثم يبدأ الآخر الفقير بتذكير صاحبه الغني بالله –عز وجل– وقدرته، ونعمه، فيحاول إقناعه بتذكيره مراحل حياته التي لم يتوقف لحظة فيها عن الانتقال من شكل إلى آخر، ثم ينتقل إلى أسلوب الحض على الفعل، والتوبيخ على الترك، ثم يبدأ بالدعاء المشروط على صاحبه الغني إذا كان قاصدًا التهكم والسخرية من فقره، وقلة ماله وأولاده، بأن يمنحه الله جنة أفضل من جنة الغني، وأن يرسل على جنته ما يدمرها، فتذهب أشجارها ونباتاتها، "ويبقى

[1] ينظر: الشريف، محمود: **الأمثال في القرآن**. ط:2، دار عكاظ، جدة، (د.ت)، ص:86–87.

له أرض ذهبت منافعها، حتى منفعة المشي فيها، فهي وحل لا تنبت، ولا تثبت فيها قدم، وأن يصبح ماؤها ذاهبًا في الأرض، لا يستطاع تناوله"[1]، وبعد ذلك، يتحقق رجاء المؤمن الفقير، فيصبح صاحب الجنتين خاسرًا متحسرًا نادمًا على ما فعل، لا يجد من يقف بجانبه في محنته.

**يرتبط الاعتقاد بالثبات –وفق القانون الكوني الرباني– بالشرك**، إذ إن الشرك: هو الإيمان بمبدأ الثبات، والشرك هو السكون في الفكر، والتوقف عن التطور،[2] فالرجل الغني آمن بالثبات، إذ ظن أن الجنة ستظل ثابتة على حالها وكمالها، ولن تهلك أو تبيد، في قوله: ﴿**وَدَخَلَ جَنَّتَهُ وَهُوَ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ قَالَ مَا أَظُنُّ أَن تَبِيدَ هَٰذِهِ أَبَدًا**﴾ **(الكهف:35)**، وأنكر التغير بإنكاره للساعة والتغير الكوني من حال إلى حال، من الدنيا إلى الآخرة، في قوله: ﴿**وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً**﴾ (الكهف:36).

**وأرجح أن الاحتجاج بقانون التغير الكوني**، في قوله تعالى: ﴿**قَالَ لَهُ صَاحِبُهُ وَهُوَ يُحَاوِرُهُ أَكَفَرْتَ بِالَّذِي خَلَقَكَ مِن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ سَوَّاكَ رَجُلًا**﴾ (الكهف:37)، **يتناسب مع قضية البخل** في القصة القرآنية، فأزعم أن البخل من المعيقات الأساسية لحركة التطور الكونية، فالبخيل بكنزه المال والممتلكات، يعيق مصالح الأفراد والمجتمعات، وأرزاقهم، وإبداعاتهم، فالاكتناز والحجز يسبب الأذى للمحتاجين، ولأصحاب العقول الاستثمارية خاصة، ممن يحتاجون شيئًا بسيطًا من المال مثلًا؛ لينطلقوا لعالم الإبداع، وفي سياق الكلام، أذكر أنني أشاهد قطعة أرض قاحلة يوميًّا، منذ طفولتي حتى اليوم، لم يحدث فيها أي تغير، لا بزراعة، ولا بيع، ولا استثمار، فكم مشروعٍ كان ينبغي له أن يستثمر فيها خلال السنوات الماضية كلها، وكم بيتٍ كان سيبنى، وكم فقيرٍ كان سيسد جوعه، وكم شجرة كانت ستثمر.

---

[1] ضمرة، معن: **الحوار في القرآن الكريم**. (رسالة ماجستير). إشراف: محمد الشريدة. كلية الدراسات العليا، جامعة النجاح الوطنية، نابلس، فلسطين، 2005م، ص:76.

[2] ينظر: شحرور: **دليل القراءة المعاصرة للتنزيل الحكيم، المنهج والمصطلحات**. ص:62.

**وتلتقي مادتا (قلب) و(كفف) في قوله: ﴿فَأَصْبَحَ يُقَلِّبُ كَفَّيْهِ﴾، مع قانون التغير الكوني** في الآية الكريمة: ﴿**قَالَ لَهُ صَاحِبُهُ وَهُوَ يُحَاوِرُهُ أَكَفَرْتَ بِالَّذِي خَلَقَكَ مِن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ سَوَّاكَ رَجُلًا**﴾، إذ **تدل مادة (قلب) على معنى التصريف والتحول الذي هو أساس التطور**، "فالقَلْبُ: تَحْويلُ الشيءِ عَنْ وَجْهِهِ"[1]، "وتَقْلِيبُ الشيء: تغييره من حال إلى حال، وتَقْلِيبُ الله القلوب والبصائر: صرفها من رأي إلى رأي، وقَلْبُ الشيء: تصريفه وصرفه عن وجه إلى وجه"[2]، أما **مادة (كفف) فتدل على الحال الذي تحول لها صاحب الجنتين**، فنقول: "اسْتَكَفَّ السَّائِلُ: بَسط كفَّه، وتكَفَّفَ الشيءَ: طَلَبَهُ بكَفِّه، واسْتَكَفَّ وتَكَفَّفَ إِذَا أَخذ بِبَطْنِ كَفِّهِ أَو سأَل كَفًّا مِنَ الطَّعَامِ أَو مَا يكُفُّ الْجُوعَ"[3]، "وتَكَفَّفَ الرّجل: إذا مدّ يده سائلًا، واسْتَكَفَّ: إذا مدّ كفّه سائلًا أو دافعًا"[4]، فنستدل بذلك إلى أن صاحب الجنتين تحول من الغنى إلى الفقر الشديد، وإلى سؤال الناس حاجته، أي إنه تحول من حالة الكبر والخيلاء إلى حالة الذل والانكسار، وكما أراد أن يكسر قلب صاحبه الفقير في البداية، وأن يجرح مشاعره وأحاسيسه، إلا أن الأمور لم تجرِ كما أراد، فانقلبت الأحوال، فكسر قلبه، وامتلأ بالآلام والحسرات، فكان جزاؤه من جنس عمله.

**وتتناغم مادتا (قلب) و(كفف) دلاليًّا مع معنى الندم** الذي تحول إليه الرجل الغني بعد أن كان مغرورًا، متباهيًا بحاله، مفتخرًا بما يملك، فتلتقيان بذلك مع ثنائية الثبات والتغير، "فتَقْلِيبُ اليد: عبارة عن النّدم ذكرًا لحال ما يوجد عليه النادم. وفي قوله تعالى: ﴿**فَأَصْبَحَ يُقَلِّبُ كَفَّيْهِ**﴾ (الكهف:42)، أي: يصفّق ندامة"[5]. وهي "حَرَكَةٌ يَفْعَلُها المُتَحَسِّرُ، وذَلِكَ أنْ يُقَلِّبَهُما إلى أعْلى ثُمَّ إلى قُبالَتِهِ؛ تَحَسُّرًا

---

[1] ابن منظور: **لسان العرب**. مادة: (قلب).

[2] الأصفهاني: **المفردات في غريب القرآن**. مادة: (قلب).

[3] ابن منظور: **لسان العرب**. مادة: (كفف).

[4] الأصفهاني: **المفردات في غريب القرآن**. مادة: (كفف).

[5] **المصدر السابق**. مادة: (قلب).

عَلى ما صَرَفَهُ مِنَ المالِ في إحْداثِ تِلْكَ الجَنَّةِ"[1]، فتقليب الكفين كناية عن الندم والحسرة، فمن عظمت حسرته يصفق إحدى يديه على الأخرى، وقد يمسح إحداهما على الأخرى، فتحمل الآية دلالة ندم الإنسان الذي يقدم شيئًا معينًا، أو يبذل جهدًا، أو ينفق مالًا؛ من أجل الوصول إلى نتيجة ما، فيخيب ظنه، وتكون النتيجة عكس ما أراد، فيقوم بحركة جسدية متعارف عليها بين الناس بتقليب الكفين للدلالة على الندم والحسرة على ما قدم، وعلى ذهاب جهده سدًى بلا نتيجة، فحينما يقوم بهذه الحركة يفهم من يراه أن هذا الشخص نادم، متأسف، من غير أن ينطق بكلمة واحدة.[2]

ولعل سائلًا يسأل، ما الحكمة من إيتاء الغني جنتين لا جنة واحدة؟ **أرى ارتباطًا وثيقًا بين قضية الغنى والبخل**، فهذا الغني الذي أوتي جنتين، لم يكترث لحاجة صاحبه الفقير، فكنز ماله وثمره، وترك الإيثار عند الحاجة، فانطبقت عليه صفة البخل بذلك*، ومنع الفقراء ماله وثمره، وحرمهم إياه، بل استغل غناه للتعريض بصاحبه الفقير، والتهكم عليه، والسخرية منه، فلم يدرِك المقصد الرباني المراد من الغنى وكثرة المال والثمر، ولم يدرك علة هبته جنتين اثنتين لا جنة واحدة، ولم يدرك أنه كان بإمكانه أن يهب صاحبه الفقير إحدى جنتيه، فيؤثره على نفسه، ويتركه غير محتاج لأحد، فتنتشر روح المحبة، وفضيلة الإيثار، والابتعاد عن أهواء النفس، واستغلال زينة الحياة الدنيا في الخير لا في الشر، واستثمارها للوصول للجزاء الحسن في الآخرة.

**ترتبط ثنائية الثبات والتغير مع السياق المائي الذي يبرز بوضوح في سياق قصة صاحب الجنتين**، إذ يكون الماء المعتدل –غير الكثير وغير القليل– في بداية القصة **عامل نماء واكتمال للجنتين**، وهو أساس وجودهما، وهو المسبب الأول لتصيير الأُكُل ثمرًا نافعًا صالحًا للأَكْل والاستخدام

---

[1] ابن عاشور: **التحرير والتنوير**. ج:15، ص:327.

[2] ينظر: ربايعة، أسامة: **لغة الجسد في القرآن الكريم**. (رسالة ماجستير). إشراف: عودة عبد الله. جامعة النجاح الوطنية، كلية الدراسات العليا، نابلس، فلسطين، 2010م، ص:73.

* تحدثت في التمهيد عن مفاهيم البخل، وكان منها: ترك الإيثار عند الحاجة.

البشري، فلولا إيجاد الله الماء وتسييره خلالهما لما بدأتا بالنمو، ولما دبت الحياة فيهما، ولما وصلتا إلى ما وصلتا إليه من الجمال، والاكتمال، والإثمار، لقوله تعالى: ﴿**كِلْتَا الْجَنَّتَيْنِ آتَتْ أُكُلَهَا وَلَمْ تَظْلِمْ مِنْهُ شَيْئًا وَفَجَّرْنَا خِلَالَهُمَا نَهَرًا * وَكَانَ لَهُ ثَمَرٌ**﴾ (الكهف:33-34)، ثم يؤول العنصر المائي في نهاية القصة إلى عامل إهلاك للبستان، إما بكثرته أو قلته، في قوله: ﴿**وَيُرْسِلَ عَلَيْهَا حُسْبَانًا مِنَ السَّمَاءِ فَتُصْبِحَ صَعِيدًا زَلَقًا * أَوْ يُصْبِحَ مَاؤُهَا غَوْرًا فَلَنْ تَسْتَطِيعَ لَهُ طَلَبًا**﴾ (الكهف:40-41)، فيرتبط بالقانون الكوني: **(الجزاء من جنس العمل)**، فتتناسب **ثنائية الكثرة والقلة** في الإهلاك المائي مع **ثنائية الغنى والبخل** المهلكتين لمن يتصف بهما، مع **ثنائية الإيمان والكفر** عند الرجلين، **وثنائية الثبات والتغير** في القصة الكريمة، فيرتبط السياق المائي بثنائية الثبات والتغير، فالماء يكون عامل حياة ونماء مرة، وعامل موت وهلاك مرة أخرى، فيمثل الماء بذلك ثنائية الحياة والموت، ويتناسب مع حال الرجل الأول، وانتقاله من الغنى إلى الفقر. وما يؤكد وضوح السياق المائي في القصة الكريمة أيضًا، ارتباطه مع سياق جزاء المؤمنين والكافرين، وذكره في قوله تعالى: ﴿**إِنَّا أَعْتَدْنَا لِلظَّالِمِينَ نَارًا أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا وَإِنْ يَسْتَغِيثُوا يُغَاثُوا بِمَاءٍ كَالْمُهْلِ يَشْوِي الْوُجُوهَ * إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلًا * أُولَئِكَ لَهُمْ جَنَّاتُ عَدْنٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهِمُ الْأَنْهَارُ**﴾ **(الكهف:29-31)**، فيظهر أن جزاء الكافرين يكون بالماء المُهل، بينما جزاء المؤمنين يكون بجنات عدن تجري من تحتهم الأنهار. ثم يرتبط الماء في نهاية القصة بالحياة الدنيا، فيضرب الماء مثلًا لها، فإما أن يكون جيدًا يساعد على الحياة، وإما أن يكون سيئًا فتجف النباتات بسببه، في قوله تعالى: ﴿**وَاضْرِبْ لَهُمْ مَثَلَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَاءٍ أَنْزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الْأَرْضِ فَأَصْبَحَ هَشِيمًا تَذْرُوهُ الرِّيَاحُ**﴾ (الكهف:45)، ولعل التتميم المرتبط بالعنصر المائي في قوله: ﴿**وَفَجَّرْنَا خِلَالَهُمَا نَهَرًا**﴾ (الكهف:33)، يدل على ديمومة الانتفاع بالماء، فالماء سر الحياة، وعامل النمو الأول في النباتات، فيستكمل صاحب الجنتين الملاذ كلها بذلك، ويستوفي ضروب النعم، وتمم ذلك بقوله: ﴿**كِلْتَا الْجَنَّتَيْنِ**

﴿آتَتْ أُكُلَهَا﴾ (الكهف:33)؛ لاستحضار الصورة التامة للانتفاع بالموارد. وورد الاحتراس في قوله تعالى: ﴿وَلَمْ تَظْلِمْ مِنْهُ شَيْئًا﴾ (الكهف:33)، فهو احتراس من أن يكون ثمة نقص في الأُكُل الذي آتته. ودلت الكناية على التمام وديمومة النماء في قوله: ﴿آتَتْ أُكُلَهَا﴾ (الكهف:33)، فهي فياضة المورد في الأحيان كلها.[1] وأزعم أن الجنتين صارتا جنة واحدة بعد أن تخللهما الماء، فلم يفرقهما، بل تفرع فيهما (خلالهما)، فوُصِلتا ببعضهما به، فصارتا به جنة واحدة، وبعد أن كبرت الأشجار وآتت الجنتان أكلهما، اتصلت الأشجار واختلطت ببعضها، أي إن تحول الجنتين من اثنتين إلى واحدة يتناسب مع ثنائية الثبات والتغير.

**ونلمح في هذه القصة، استخدام أسلوب الحوار***؛ المتناسب مع ثنائية الثبات والتغير وفق الصفات النفسية للرجلين ومصير البستان من الخضرة إلى الدمار، فالحوار يسبر أغوار الشخصيات ليترجم أزماتها النفسية وانفعالاتها الوجدانية في إطار صورة نفسية قائمة على الأفكار المنطوقة، فهو أحد أبرز الأساليب التعبيرية التي تجسد خلجات النفس في بعض المواقف. ويتضح ذلك في الحوار الذي جرى بين صاحب الجنتين والرجل المؤمن في قوله تعالى: ﴿وَكَانَ لَهُ ثَمَرٌ فَقَالَ لِصَاحِبِهِ وَهُوَ يُحَاوِرُهُ أَنَا أَكْثَرُ مِنْكَ مَالًا وَأَعَزُّ نَفَرًا * وَدَخَلَ جَنَّتَهُ وَهُوَ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ قَالَ مَا أَظُنُّ أَنْ تَبِيدَ هَذِهِ أَبَدًا * وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً وَلَئِنْ رُدِدْتُ إِلَى رَبِّي لَأَجِدَنَّ خَيْرًا مِنْهَا مُنْقَلَبًا﴾ (الكهف:34-36)، إذ **يرسم الحوار** صورة رجلٍ تموج نفسه بالكبر، ويمتلئ جنبه بالغرور، متباهيًا بثرائه الوافر، وقُوتِه الكبير على صاحبه الفقير، ناسيًا مصدر

---

[1] ينظر: الأسعد، عدنان عبد السلام، وفتحي، السيدة نور محمد: **بلاغة الخطاب القرآني في قصتي أصحاب الكهف وصاحب الجنتين: دراسة تحليلية**. مجلة جامعة كركوك للدراسات الإنسانية، جامعة كركوك، مج:8، ع:2، 2013م، ص:88.

* هو الكلام المتبادل بين المتكلم والمتلقي أو بين المتكلم ونفسه، ويضفي على النصوص الأدبية طابعًا قصصيًا، ويتسم في الأعمال الأدبية الرفيعة بالتكثيف، والإيحاء، والانتقاء في المفردة والتركيب والدلالة؛ لينتقل من مستواه المألوف (المحادثة اليومية) إلى مستوى مثالي فني يتوافر على التأثير، وإحياء المشاهد، وتصوير المواقف التي يضمّ عليها النص الأدبي. عزيز: **تصوير الانفعالات النفسية في القرآن الكريم دراسة فنية**. ص:16.

هذا النعيم البهيج، فاستفحل إحساسه بالكبر في تصاعد أفقي حتى استحال كفرًا وشركًا. **وينهض الحوار** بمتابعة الشعور المتنامي في قوله تعالى على لسان صاحب الجنتين: ﴿**وَدَخَلَ جَنَّتَهُ وَهُوَ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ قَالَ مَا أَظُنُّ أَنْ تَبِيدَ هَذِهِ أَبَدًا**﴾ (الكهف:35)، فيحمل هذا الحوار على لسان قائله ما يدور في خاطره من بقاء الجنتين سالمتين مدى العمر، ومن التشكيك بقيام الساعة، ومن الحصول على الرعاية والإيثار في الآخرة فيما لو كانت هناك قيامة، وهذه الأفكار النفسية المطروحة ما هي إلاّ تداعيات ذهنية للكبر الذي جعل صاحبه يتعالى على الناس، ويتناكر فضل الله عليه.

**وتؤدي تقنية الحوار دورها في تجسيد الانفعال النفسي**، إذ إن الحوار في النص ينتظم فنيًّا في شكلين، هما: الحوار الخارجي والحوار الداخلي، فيتمثل الخارجي في قول صاحب الجنتين: ﴿**فَقَالَ لِصَاحِبِهِ وَهُوَ يُحَاوِرُهُ أَنَا أَكْثَرُ مِنْكَ مَالًا وَأَعَزُّ نَفَرًا**﴾ **(الكهف:34)**، ويتمثل الداخلي في الحديث الذي وجهه إلى نفسه قائلًا: ﴿**مَا أَظُنُّ أَنْ تَبِيدَ هَذِهِ أَبَدًا * وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً وَلَئِنْ رُدِدْتُ إِلَى رَبِّي لَأَجِدَنَّ خَيْرًا مِنْهَا مُنْقَلَبًا**﴾ (الكهف:36)، وهذا التنوع في الحوار يمنح النصَّ بُعدًا إيحائيًّا في الدلالة على تمكّن هذا الشعور في نفس الرجل، ظاهرًا وباطنًا، مكشوفًا ومستورًا، فضلًا عن أنه يُضفي عنصرًا جماليًّا على السياق القصصي.

**تتجسد قوة السرد في المشهد** في قوله تعالى: ﴿**وَأُحِيطَ بِثَمَرِهِ فَأَصْبَحَ يُقَلِّبُ كَفَّيْهِ عَلَى مَا أَنْفَقَ فِيهَا وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا وَيَقُولُ يَا لَيْتَنِي لَمْ أُشْرِكْ بِرَبِّي أَحَدًا * وَلَمْ تَكُنْ لَهُ فِئَةٌ يَنْصُرُونَهُ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَمَا كَانَ مُنْتَصِرًا**﴾ **(الكهف:42-43)**، فتخلع صفة الدمار الفوري الذي لحق بصاحبه، وإدانته الذاتية؛ بإيقاعه لوحة بصرية نادبة نادمة؛ لها إيقاعها الدلالي العميق؛ في ترسيخ الشعور بالحسرة الملتاعة، وتفطر القلب ندمًا وكمدًا على ما فرط في جنب الله، يقول الله -عز وجل-: ﴿**وَأُحِيطَ بِثَمَرِهِ فَأَصْبَحَ يُقَلِّبُ كَفَّيْهِ عَلَى مَا أَنْفَقَ فِيهَا وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا وَيَقُولُ يَا لَيْتَنِي لَمْ أُشْرِكْ بِرَبِّي أَحَدًا**﴾ (الكهف:42)،

فهذه اللوحة لها تشكلاتها في رسم ملامح خواصها، المنذرة بسوء العاقبة؛ لتجعل من نسيج دلائلها أنموذجًا معياريًا يشكل مقاصد النص، الذي يقترح بعضه بعضًا اقتراحًا تراتبيًا، فكان الهدف المقصود للوحة في قوله تعالى: ﴿**وَلَمْ تَكُن لَّهُ فِئَةٌ يَنصُرُونَهُ مِن دُونِ اللَّهِ وما كانَ مُنتَصِرًا**﴾ (الكهف:43)، ويتجاوب هذا المقصد الذي يختم به السرد الأحداث، مع البنية الدلالية للقصة برمتها؛ ويرسم ذروة احتدامها وانسحاقها؛ حين لا تجد هذه الشخصية من ينصرها؛ فيؤول الأمر إلى مرجعيته الأساسية، إلى الله، بعد انهيار خطاب النرجسية، والاصطفاء، والاستحواذ، الذي مارسته الشخصية المتألهة المتندمة في آن واحد.[1] فيلتقي بذلك مصير البستان مع ثنائية الثبات والتغير، فالبستان يتحول من الخضرة إلى الهلاك.

**ظهرت نزعة غرور صاحب الجنتين النفسية** ملمحًا من ملامح الشخصية، وجمعت الجنتين بين الصفات الداخلية والخارجية، وتمثلت في الفكرة الجوهرية التي دارت حولها القصة، التي حملتها شخصية صاحب الجنتين بوصفها مخططًا سرديًّا متمثلًا فيما صدر عنه من أقوال، وأفعال، برزت في حوادث رئيسة، وأخرى ثانوية، دفعتها بما اكتسبته من كفاية سردية، فكانت بذلك الشخصية السردية الفاعلة. **ويظهر غرور صاحب الجنتين متناميًا** بما مهدت له الآيات من ذكر السبب والداعي لمثل هذه الصفة، وهو امتلاك الأموال وكثرة البنين، إلا أن صاحبهما في غمرة فرحة بما يملك، تنزعه نفسه عن فطرته السليمة؛ لتقوده إلى الاغترار بما ملك وما هو فيه من النعم، فيقف متباهيًا أمام صاحبه، قائلًا: ﴿**أَنَا أَكْثَرُ مِنكَ مَالًا وَأَعَزُّ نَفَرًا**﴾ (الكهف:34)، ونسي أن ينسب ما فيه إلى الله، فيظهر مفتخرًا بنفسه، متفاضلًا على صديقه، متعاليًا بما يملك. ثم تتطور النزعة بعد ذلك، ليتمادى صاحب الجنتين في غروره، فينكر البعث والنشور، ظانًّا أنه سيخلد، وسيخلد له ماله وعزه، في قوله تعالى: ﴿**مَا أَظُنُّ أَن تَبِيدَ هَٰذِهِ أَبَدًا * وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً**﴾ (الكهف:35-36)، ثم إذا ما ذكره صاحبه بربه، قال: ﴿**وَلَئِن رُّدِدتُّ إِلَىٰ رَبِّي**

---

[1] ينظر: أبو دقة، موسى إبراهيم منصور: **جمالية بنية السرد ومستوياته في قصص سورة الكهف**. المجلة الأردنية في اللغة العربية وآدابها، عمادة البحث العلمي، جامعة مؤتة، مج:2، ع:3، 2006م، ص:26.

**لَأَجِدَنَّ خَيْرًا مِنْهَا مُنْقَلَبًا**﴾ (الكهف:36)، وكأنه ظن أنه سيكون من أصحاب الجنان في الآخرة كما في الدنيا، فما كان فيه من غرور جعله في غياب عن وعي الفكر والقول، لا يقول بما يوعى ولا يعي ما يقول.

**وتظهر الشخصية السردية المساندة**، وهي شخصية الرجل النصوح كما لو أنها مضادة، وربما كان وجود شخصيتين في القصة، إحداهما تحمل نزعة الغرور، والأخرى تبين مساوئها، مما يجعل من الشخصيتين محوري ارتكاز تدور أحداث القصة حولها، مظهرة بخيوطها مختلفة العلاقات ملامح هذه النزعة، وأثرها على الشخصية السردية حاملة النزعة، وأثرها الفردي والجماعي على المجتمع، وإن كان المربع السيميائي يظهر اتجاهين متناقضين: اتجاه صاحب الجنتين المغرور، وغروره وإنكاره البعث، وفي المقابل، صاحبه النصوح الذي يخاف الله، ويحمده على نعمه، وينسب الفضل له.[1] ويفهم من هذا الكلام، أن الشخصيتين تجسدان الثبات والتغير، فالرجل المؤمن ثابت الإيمان، ثابت النصح، ثابت الموقف، لا يهزه وضعه المادي، لا فقره ولا غناه، بينما يمثل الرجل الغني التغير، فهو الذي تحول بعد الغنى إلى الغرور وإنكار التغير الكوني، وإنكار الساعة، ثم كانت نتيجته أن يتحول غروره إلى حسرة وندامة، وأن يتحول حاله من غنى إلى فقر.

**ويأتي الغرور ملمحًا أسلوبيًّا أكثر استحواذًا**؛ ليدلل على عدم قدرة هذه الشخصية على الائتلاف والانسجام في نفسها، فهي أسيرة الاختلاف والتناقض والحيرة، تعيش حالة نرجسية، بما تملكه من قدرة على التلون في الأحوال جميعها، إلى أن وصلت إلى ذروة غرورها؛ فحاولت فرض ذاتها على الاصطفاء الإلهي؛ ليحفظ لها مكانتها في الآخرة، ودليل ذلك قوله تعالى: ﴿**وَلَئِن رُّدِدتُّ إِلَىٰ رَبِّي لَأَجِدَنَّ خَيْرًا مِّنْهَا مُنْقَلَبًا**﴾ (الكهف:36)، فيخيل الغرور لذوي الجاه والسلطان والمتاع والثروة، أن القيم التي يعاملهم بها

---

[1] ينظر: غنيم، كمال أحمد، والعمري، سائدة حسين: **نوازع النفس الإنسانية في القرآن الكريم: مقاربة سيميائية**. مجلة اتحاد الجامعات العربية للآداب، مج:9، ع:2، 2012م، ص:904-905.

أهل الدنيا الفانية تظل محفوظة لهم حتى في الملأ الأعلى، فما داموا يستطيلون على أهل الأرض فلا بد أن يكون لهم عند السماء مكان ملحوظ،[1] أي إنها نفسية متغيرة، غير مستقرة، سيطر عليها الغرور، فسيطرت على صاحبها، فبدأت سلوكاته بالتغير والتحول، فمرة يتباهى بغناه، ومرة يؤذي الفقراء بالافتخار بما لديه دون مراعاة لأحاسيسهم ومشاعرهم، ومرة يظن ثبات الحال والغنى، ويدعي عدم هلاك ما لديه من أموال وبساتين وخدم وغيرها، ومرة يصل به الحال إلى إنكار الساعة وإنكار التغير الكوني. وتعبر هذه المواقف عن عمق هيمنة هذه الشخصية وانشدادها نحو الحياة، ورغبتها في ممارسة مركزيتها وذاتيتها، فبدا المقروء من خطاب ضمير المتكلم أكثر كشفًا لآليات تفكيرها، التي تتسم بوهم دوام الواقع، والتشبث بمفردات تلغي وتناهض أنماط التفكير التي تختلف معها.[2]

**يشخص التعبير القرآني صورة نفسية لصاحب الجنتين** حين نزل العذاب بجنتيه، فأصبح من النادمين، **فيرسم القرآن صورة حسية لَمسية لمشهد الندم والحسرات** الذي تلا نزول العذاب، ويطيل الوقوف عند هذه الصورة مثلما أطال الوقوف عند صورة وصف الجنتين قبل حدوث العذاب؛ كي يدفع الذهن بين الصورتين؛ ليستخلص من عملية الربط هذه المواعظ والعبر التي تمثل الهدف النهائي من سرد القصة، ومن مفردات هذه الصورة الحسية المجسدة للندم (تقليب الكف) و(خواء الجنة على عروشها)، وإطلاق هذه العبارة المشحونة بالحسرات المشيعة بمشاعر الندم القاتل، فيقول: ﴿**يَا لَيْتَنِى لَمْ أُشْرِكْ بِرَبِّى أَحَدًا**﴾ **(الكهف:42).**[3]

**تدعم مادتا (زلق) و(غور) ثنائية الثبات والتغير في قوله تعالى:** ﴿**فَعَسَىٰ رَبِّىٓ أَن يُؤْتِيَنِ خَيْرًا مِّن جَنَّتِكَ وَيُرْسِلَ عَلَيْهَا حُسْبَانًا مِّنَ السَّمَاءِ فَتُصْبِحَ صَعِيدًا زَلَقًا * أَوْ يُصْبِحَ مَاؤُهَا غَوْرًا فَلَن تَسْتَطِيعَ لَهُۥ طَلَبًا**﴾

---

[1] قطب: **في ظلال القران الكريم**. ص:2270.

[2] ينظر: أبو دقة: **جمالية بنية السرد ومستوياته في قصص سورة الكهف**. ص:24.

[3] عزيز: **تصوير الانفعالات النفسية في القرآن الكريم دراسة فنية**. ص:9.

**(الكهف:40-41)، إذ تؤكدان مشهد الفقر** الذي تحول إليه صاحب الجنتين البخيل المغرور المتكبر، فيتقابل مشهد انقلاب حال الجنة من الاكتمال والنضج والاستواء إلى النفاد والفناء والسقوط والتلف، مع مشهد انقلاب حال الغني البخيل وانزلاقه السريع من الترف إلى الفقر، ومن التكبر إلى الاستكفاف، ومن الغرور إلى الذل والمسألة، فلا يكترث لحاله أحد كما لم يكن يكترث لحال غيره في أثناء غناه؛ لبخله الشديد، "فالزَّلَقُ: الزَّلِلُ، والزَّلَقُ: الْمَكَانُ المَزْلَقة، وأَرض مَزْلقة ومُزْلقة وزَلَقٌ: لَا يَثْبُتُ عَلَيْهَا قَدَمُ، وَمِنْهُ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿فَتُصْبِحَ صَعِيدًا زَلَقًا﴾ (الكهف:40)؛ أَي: أَرْضًا مَلْساء لَا نَبَاتَ فِيهَا أَو مَلْسَاءَ لَيْسَ بِهَا شَيْءٌ، والزَّلَقُ العَجُز، وَيُقَالُ: زَلَقَه وأَزْلَقَه: نَحَّاهُ عَنْ مَكَانِهِ"[1]، وهو ما يتناسب مع زلة لسان صاحب الجنتين بقوله: ﴿أَنَا۠ أَكْثَرُ مِنكَ مَالًا وَأَعَزُّ نَفَرًا﴾ (الكهف:34)، وما وصل إليه من إزالة، وعدم ثبوت في المكان الذي كان فيه، وإلقائه في مكان معاكس تمامًا لما كان عليه، وانزلاق من قمة إلى قاع، ومن مقدمة إلى مؤخرة، ومن قدرة إلى عجز. أما **مادة (غور) فتحمل دلالة الخفض والإبعاد**، "فغَوْرُ كلِّ شَيْءٍ: قَعْرُه، وغَوْرُ كُلِّ شَيْءٍ: عُمْقه وبُعْده، وَغَارَ الماءُ غَوْرًا: ذَهَبَ فِي الأَرض وسَفَلَ فِيهَا، والغَوْر: الْمُنْخَفِضُ مِنَ الأَرض"[2]، فتتطابق مع حال صاحب الجنتين، من إقصاء من مكانه، إذ أُبعد عن جنتيه، وماله، وثمره، وتحول من حال الترف إلى الفاقة، ومن الترفع عن الناس إلى مسألة الناس واستكفاهم، وإقصاء من مكانته، من عز إلى ذل، ومن علو إلى دنو، فوصل أخفض الأحوال وأذلها.

**اهتم القرآن الكريم بالمستثمرين**، ووضع لهم ضوابط وقوانين، لتنموَ استثماراتهم، وليهدأ بالُهم، حتى لا يكون مصير استثمارهم الخسران، ولا يكون حالهم الندم والخذلان، ومنها قصة صاحب الجنتين، إذ جاءت تعقيبًا على أصحاب الموازين الخاطئة في تقييم الناس، وإنزالهم منازلهم، فبعد أن ذكر -سبحانه وتعالى- المشركين المستكبرين عن مجالسة الضعفاء والمساكين، وتفاخرهم عليهم بأموالهم

---

[1] ابن منظور: **لسان العرب**. مادة: (زلق).

[2] **المصدر السابق**. مادة: (غور).

وإحسانهم، ضرب لهم مثلًا، فهذا الرجل صاحب الجنتين واحد من هذه العينة، يسوق الله قصته مثلًا؛ ليتعظ الناس. فكان أول قانون لنمو الاستثمار هو عدم التباهي على الناس بكثرة المال، وعزة الأنفار، والأعوان. أما القانون الثاني، فهو عدم التوهم بأن النعم تدوم، فصاحب الجنتين اغتر وتصور أن جنته لا تفنى، فظلم نفسه بهذا التصور الفاسد، فوصفه –سبحانه– بقوله: ﴿**وَدَخَلَ جَنَّتَهُ وَهُوَ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ قَالَ مَا أَظُنُّ أَن تَبِيدَ هَٰذِهِ أَبَدًا**﴾ (الكهف:35)، فوجود هذا الفهم الخاطئ؛ يجعل صاحبه يستعلي على الناس ويستكبر؛ لأنه لا توجد في ذهنه مساحة تتخيل إمكانية أن تتبدل الأدوار، أما من يحمل الفهم الصحيح، وتوجد لديه تلك المساحة من تحقق زوال النعم وفق قدر الله المكنون ، فلن يتعالى ويتكبر، بل يتواضع ويلاطف؛ لأنه لا يستبعد أن يجد نفسه في مثل حالهم يومًا. أما القانون الثالث، فهو ألا يخطئ الإنسان ويظن بأن القيامة لن تقوم، فصاحب الجنتين تمادى في غيه، فأنكر قيام الساعة أيضًا.[1]

**قصة صاحب الجنتين قصة تمثيلية تؤكد ثنائية الثبات والتغير**، ضربها الله –تعالى–؛ ليقرب المعنى من الظاهر المحسوس، فسيقت للمقارنة بين الغني المغتر بماله والفقير المعتز بإيمانه، فهي صورة أخرى لمجاهدة النفس، والتضحية بالمال، وكل ما هو قيمة زائلة في سبيل العقيدة، فنجد في القصة صراعًا بين الكفر والإيمان من نوع آخر، وهو صراع بين القيم الإيمانية الصحيحة، والقيم المادية الزائفة، وهذا إنذار للناس فكل ما هو مادة مصيره إلى فناء، وأقرت قصة صاحب الجنتين بوحدانية الله تعالى وقدرته، وباليوم الآخر والبعث، والإقرار أن الجزاء من جنس العمل، والإقرار أن المال والبنون زينة لا قيمة جوهرية،[2] "فالمال يكشف زيف النفوس، وزغل القلوب، ومرض الضمائر، وانحلال الأخلاق"[3].

---

[1] العنزي، هدى عبد العزيز: **الإنفاق ونظائره في القرآن الكريم**. مجلة كلية دار العلوم، جامعة القاهرة، كلية دار العلوم، ع:130، 2020م، ص:1031–1033.

[2] ينظر: زغيشي، سعاد: **سورة الكهف: دراسة بنيوية من حيث الشكل**. مجلة دراسات وأبحاث، جامعة الجلفة، ع:22، 2016م، ص:174.

[3] السباعي، مصطفى: **هكذا علمتني الحياة**. ط:4، المكتب الإسلامي، بيروت، لبنان، 1997م، ص:231.

**وختامًا لما تقدم**، فإن المال وسيلة للخير، وللعيش بين الناس باحترام وكرامة، لكن البخلاء ينظرون للمال على أنه غاية لذاته، ثم لا يبالون بمهانتهم، واحتقار الناس لهم، ومثل هؤلاء يموتون قبل أن يموتوا، ويدفنون أنفسهم قبل أن يدفنهم الناس، والغني البخيل أفقر من الفقير الكريم، فالبخيل يعبد المال أكثر من عبادته لله، ويحب المال أكثر مما يحب نفسه، ويكره الخير أكثر مما يكره المرض والأذى، والبخيل يذكر نفسه وينسى ربه، ويضع الفقر بين عينيه أكثر مما يضع الموت نصب ناظريه، ويخاف من الفقر أكثر مما يخاف من عقاب الله وحسابه، فهو إنسان أحمق، مشوه التفكير، ولو كان من أحكم الحكماء.[1] ومن الحكمة والتبصر ألا ينسى الإنسان القوة المطلقة التي تسيطر على حظوظ الناس في الحياة، ومهما بلغ من سعة الرزق، والقوة، والسلطان، فليس بخارج عن مشيئة الله وملكوته؛ لأن قوته إذا لم تساندها قوة الله لتحطمت وانهارت.[2]

[1] ينظر: السباعي: **هكذا علمتني الحياة**. ص:270-271.

[2] التهامي: **سيكولوجية القصة في القرآن**. ص:256.

# الفصل الثالث: الثبات والتغير في صورتي الحياة الدنيا والآخرة.

## المبحث الأول: الآفاق الدلالية لصـــورة الحياة الدنيا.

## المبحث الثاني: الثبات والتغير في صورة البعث والحشر.

## المبحث الثالث: مشـــاهد تصـــويرية في الجنـة.

## المبحث الأول: الآفاق الدلالية لصورة الحياة الدنيا.

**المطلب الأول: البعد التربوي للثبات والتغير في صورة الزرع الحصيد في الحياة الدنيا.**

**المطلب الثاني: البعد التربوي للثبات والتغير في صورة الزرع الهشيم في الحياة الدنيا.**

## المبحث الأول: الآفاق الدلالية لصورة الحياة الدنيا.

تتجسد ثنائية الثبات والتغير في الصورة التشبيهيّة للحياة الدنيا، في قوله تعالى: ﴿**إِنَّما مَثَلُ الحَياةِ الدُّنيا كَماءٍ أَنزَلْناهُ مِنَ السَّماءِ فاختَلَطَ بِهِ نَباتُ الأَرضِ مِمّا يَأكُلُ النّاسُ والأَنعامُ حَتّى إِذا أَخَذَتِ الأَرضُ زُخرُفَها وازَّيَّنَتْ وظَنَّ أَهلُها أَنَّهُم قادِرُونَ عَلَيها أَتاها أَمرُنا لَيلًا أَوْ نَهارًا فَجَعَلْناها حَصِيدًا كَأَنْ لَمْ تَغْنَ بِالأَمسِ كَذلِكَ نُفَصِّلُ الآياتِ لِقَومٍ يَتَفَكَّرُونَ**﴾ (**يونس**:24)، وقوله: ﴿**واضرِبْ لَهُم مَثَلَ الحَياةِ الدُّنيا كَماءٍ أَنزَلْناهُ مِنَ السَّماءِ فاختَلَطَ بِهِ نَباتُ الأَرضِ فَأَصبَحَ هَشِيمًا تَذرُوهُ الرِّياحُ وكانَ اللَّهُ عَلى كُلِّ شَيءٍ مُقتَدِرًا**﴾ (**الكهف**:45)، ويمثل المشبه الثبات، وتمثل الصورة التركيبية للمشبه به التغير.

### المطلب الأول: البعد التربوي للثبات والتغير في صورة الزرع الحصيد في الحياة الدنيا.

تتجلى ثنائية الثبات والتغير في قوله تعالى: ﴿**إِنَّما مَثَلُ الحَياةِ الدُّنيا كَماءٍ أَنزَلْناهُ مِنَ السَّماءِ فاختَلَطَ بِهِ نَباتُ الأَرضِ مِمّا يَأكُلُ النّاسُ والأَنعامُ حَتّى إِذا أَخَذَتِ الأَرضُ زُخرُفَها وازَّيَّنَتْ وظَنَّ أَهلُها أَنَّهُم قادِرُونَ عَلَيها أَتاها أَمرُنا لَيلًا أَوْ نَهارًا فَجَعَلْناها حَصِيدًا كَأَنْ لَمْ تَغْنَ بِالأَمسِ كَذلِكَ نُفَصِّلُ الآياتِ لِقَومٍ يَتَفَكَّرُونَ**﴾ (**يونس**:24)، فتمثل الحياة الدنيا الثبات، ويتمثل التغير بالصورة التركيبية للزرع المتحول إلى حصيد.

أتت الآية الكريمة توضيحًا لمتاع الحياة الدنيا الذي ورد في الآية التي سبقتها في قوله تعالى: ﴿**يا أَيُّها النّاسُ إِنَّما بَغْيُكُم عَلى أَنفُسِكُم مَتاعَ الحَياةِ الدُّنيا**﴾ (**يونس**:23)، فلكي يبين للناس حقيقة هذا المتاع، مثّل صورة الحياة الدنيا كلها بمثال بسيط معروف تدركه العقول، وتراه العيون، "فتَمَتُّعهم بِالدُّنْيا ما هو

إلّا لِمُدَّةٍ قَصِيرَةٍ، فَبَيَّنَتْ هَذِهِ الآيَةُ أنَّ التَّمَتُّعَ صائِرٌ إلى زَوالٍ، وأطْنَبَتْ فَشَبَّهَتْ هَيْئَةَ التَّمَتُّعِ بِالدُّنْيا لِأصْحابِها بِهَيْئَةِ الزَّرْعِ في نَضارَتِهِ ثُمَّ في مَصِيرِهِ إلى الحَصْدِ"[1].

يضرب الله مثل الحياة الدنيا بماء أُنزل من السماء، فاختلط بنبات الأرض، ثم يصير حصيدًا، **وتقتضي الصورة المائية في القرآن الكريم البحث في دلالات الماء ومقاصده الكامنة في البنية العميقة للنسيج اللغوي**، إذ ورد (الماء) بمعانٍ كثيرة، وجاءت مواضع الماء بثلاثة أبعاد، حمل الأول منها معنى العذاب والأذى، وحمل الثاني معنى الغيث والفرج والمعونة، أما الثالث فحمل معاني تتعلق بماهية الماء وتكوينه، وأنَّه بداية، وهو منشأ الحياة، وأصل الخلق.[2]

ويأتي البعد المائي الثالث في قوله: ﴿**إِنَّما مَثَلُ الحَياةِ الدُّنْيا كَماءٍ أنْزَلْناهُ مِنَ السَّماءِ فاخْتَلَطَ بِهِ نَباتُ الأرْضِ**﴾ (**يونس**:24)، وقوله: ﴿**واضْرِبْ لَهم مَثَلَ الحَياةِ الدُّنْيا كَماءٍ أنْزَلْناهُ مِنَ السَّماءِ فاخْتَلَطَ بِهِ نَباتُ الأرْضِ**﴾ (**الكهف**:45)، يظهر بعد الوقوف عند المشبه به مع صفاته (الماء النازل من السماء المختلط بنبات الأرض)، دور ثنائية الثبات والتغير في القرآن الكريم، ودور القرينة في السياق، فبعد أن نعرف ما آلت إليه حالة الماء الذي اختلط بنبات الأرض، ونعلم حالة الأرض ونباتها، نصل إلى أن الماء هنا لا يمكن أن يكون ذا بعد واحد، بل بعدين، أو وجهين متقابلين، فيكون في سياق الحصيد (سورة يونس) عامل نماء وحياة بدليل قوله: ﴿**فاخْتَلَطَ بِهِ نَباتُ الأرْضِ مِمّا يَأْكُلُ النّاسُ والأنْعامُ حَتّى إذا أخَذَتِ الأرْضُ زُخْرُفَها وازَّيَّنَتْ**﴾، ويكون في سياق الهشيم (سورة الكهف) عامل جفاف وموت بدليل قوله: ﴿**فاخْتَلَطَ بِهِ نَباتُ الأرْضِ فَأصْبَحَ هَشِيمًا تَذْرُوهُ الرِّياحُ**﴾، وتعزز ثنائية الثبات والتغير هذا الفهم، فحين نعلم النتيجة المتغيرة التي آلت إليها صورة الزرع ندرك دور الماء ودلالته.

---

[1] ابن عاشور: **التحرير والتنوير**. ج:11، ص:141.

[2] ينظر: أبو علوش، إبراهيم، والحراحشة، أحمد: **المقاصد الدلالية المستخفية لآيات الماء في القرآن الكريم**. المجلة الأردنية في الدراسات الإسلامية، مج:11، ع:2، 1436هـ، 2015م، ص:57-58.

**تضمر الآية الكريمة متغيرات فرعية، كتغير حالة الأرض وتحولها من أرض جافة إلى أرض مخضرة مزخرفة بألوان النبات، ﴿إِذَا أَخَذَتِ الْأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَازَّيَّنَتْ﴾ إذ حملت الأرض ونباتها دلالة إيجابية**، بعد أن اختلطتا بالماء النازل من السماء، فنبات الأرض نما، واخضرَّ، وأثمر، فصار مما يأكل الناس والأنعام، والأرض أخذت زخرفها وازينت، فكأنها وصلت إلى قمة في الجمال، بل تعدت الجمال إلى الزخرفة، بتلون نباتاتها وأزهارها، فتعدت درجة الكمال إلى درجة الفائض والزيادة عن حد الحاجة، فهي ليست للطعام والشراب فقط، بل إنها تضيف صورة بصرية جمالية ماتعة، فيتضح سياق الخير والجمال والنماء في الآية الكريمة.

**وتخفي الآية الكريمة متغيرًا فرعيًّا آخر، هو تحول الزرع من أخضر يانع إلى حصيد ﴿فَجَعَلْنَاهَا حَصِيدًا﴾**، إذ تتحول الأرض ونباتها في نهاية المطاف إلى حصيد، وهو الأمر المعتاد دائمًا لأي أرض اكتمل نموها وأثمرت، فبعد أن يوقن المزارع أن أرضه لن تصل إلى مستوى أعلى من الإثمار، وأن ثماره لن تكبر أكثر من الحجم الذي وصلت إليه، فإنه سيدرك أن أمر الحصاد قد حان، وبعد أن ينتهي من حصادها، تعود إلى ما كانت عليه قبل نموها. وينطبق مشهد وصول النبات إلى مرحلة الحصد، على الإنسان الذي يصل إلى مرحلة الهرم، وعلى الحياة الدنيا التي يغلب عليها فناء الأشياء وزوالها وخرابها، وهو البعد التربوي المستفاد من الصورة، فلا ينبغي أن نعلق الآمال على حياة يغلب عليها الهرم والفناء.

**تجلى في الآية الكريمة معنى محدودية الدنيا وعطائها، وإمكانية انتهاء ما فيها**، إذ ليس هناك ما يدوم سوى الدائم الباقي الحي الذي لا يموت –جل في علاه–، فمهما بلغت درجة العطاء في الدنيا، فستبقى محدودة حتى يأتي الأمر بفنائها، وتنتهي مدة وجودها. فإذا كانت الدنيا بأكملها محدودة، كصورة أرض نضجت ثمارها وحصدت، فما بالك –أيها الإنسان– بمتاعها الذي تسعى لأجله بغير الحق؟!! **وتؤكد دلالة مادة (حصد) فكرة الانقطاع والانتهاء بعد الإحكام، إذ تدل على الجزاز والجداد والقطف والقطع**، فنقول: "حَصَدَ الزَّرْعَ وَغَيْرَهُ مِنَ النَّبَاتِ: قَطَعَهُ بالمِنْجَلِ، والحَصْدُ: جَزُّكَ الْبُرَّ وَنَحْوَهُ مِنَ

النَّبَاتِ، وَحَبْلٌ مُحْصَدٌ، أَي: مُحْكَمٌ مَفْتُولٌ"[1]. فيدرك الإنسان عدم ديمومة الحياة الدنيا وانقطاعها ونهايتها؛ لتشابهها مع صورة الثمرة التي تصل الحد الأعلى من النضج والقوة، ثم تُقطع، أو تبدأ بالتلف والضعف، إلى أن تسقط ذابلة على الأرض، أو تجف في مكانها.

**يظهر الثبات والتغير في الآية الكريمة في الصورة النفسية الذهنية التي ترسمها للناس، إذ يتوهمون أنهم يملكون القدرة والقوة، ثم تتحول حالهم إلى ضعف وهزيمة**، إذ تتشابه مع صورة الزرع الذي يصل إلى مرحلة الاكتمال في النمو والنضج والتزين، ثم يبدأ بالانحدار، إلى أن يُقطف، أو أن يبدأ بالتلف، ويظهر البعد التربوي لهذا التغير، بنهي الناس عن الثقة بهذه الحياة الدنيا، فهي دورة زمنية غادرة لا تدوم، آخرها إلى تلف ودمار وزوال، فينبغي لهم ألا يعلقوا آمالهم عليها.

يظهر من ثنائيات الثبات والتغير السابقة، أن المقصد الرباني لا يهدف إلى تصوير الحياة الدنيا بزرع أخضر تحول إلى حصيد، وإنما قصد الدعوة إلى التدبر والتفكر، وصولًا للعبرة والموعظة؛ لكي يفهم الإنسان معنى الحياة الدنيا فكرًا وسلوكًا من خلال تأمل التغيرات التي تحدث في الظواهر الكونية.

## المطلب الثاني: البعد التربوي للثبات والتغير في صورة الزرع الهشيم في الحياة الدنيا.

تتجلى ثنائية الثبات والتغير في قوله تعالى: ﴿**واضْرِبْ لَهم مَّثَلَ الحَياةِ الدُّنْيا كَماءٍ أَنْزَلْناهُ مِنَ السَّماءِ فاخْتَلَطَ بِهِ نَباتُ الأَرْضِ فَأَصْبَحَ هَشِيمًا تَذْرُوهُ الرِّياحُ وكانَ اللَّهُ عَلى كُلِّ شَيْءٍ مُّقْتَدِرًا**﴾ **(الكهف:**45)، فتمثل الحياة الدنيا الثبات، ويتمثل التغير بالصورة التركيبية للزرع المتحول إلى هشيم.

[1] ابن منظور: **لسان العرب**. مادة: (حصد).

جاءت الآية الكريمة في سياق العذاب، إذ شبه الحياة الدنيا بماء أنزل من السماء، واختلط بنبات الأرض، فصار النبات هشيمًا جافًّا يابسًا؛ نتيجة تأثير الماء فيه، فيكون الماء ضارًّا، يدل على العذاب والهلاك.

**تضمر الآية الكريمة متغيرات فرعية، كتغير نبات الأرض الأخضر اليانع إلى هشيم ﴿فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الْأَرْضِ فَأَصْبَحَ هَشِيمًا تَذْرُوهُ الرِّيَاحُ﴾، إذ حملت الأرض ونباتها دلالة سلبية**، بعد أن اختلطتا بالماء النازل من السماء وصارت ناضجة ذات لون أخضر يانع، فإنها –لسبب ما– ستصل إلى حالة الجفاف واليبوسة والقحط، فبعد نزول المطر واختلاطه مع نبات الأرض مباشرة، بعد مدة زمنية قصيرة لا تتعدى الانتقال إلى اليوم الآتي تظهر في قوله: **(فأصبح)**، فإن النبات سيجف ويتحول إلى هشيم يكسر ويفتت بسهولة وبساطة، كحال ورقة جافة تداس بالقدم، فتصير فتاتًا، فتأتي الرياح فتذروها وتفرقها بكل خفة وبساطة وسهولة.

**يضفي مشهد تحول الزرع إلى هشيم صورةً بصرية متخيلة**، إذ يتخيل المتلقي صورة نباتات تنمو وتخضر وتنضج ثم تتحول إلى هشيم جافٍّ يابس متكسر، فيدرك أن الحياة الدنيا لا تفيد شيئًا، **وتفيد مادة (هشم) معنى اليبوسة، والجفاف، والانكسار، والخور، والضعف، والهزال**، "فالهَشْم: كَسْر الشَّيْء الأَجْوَف وَالْيَابِس، والهَشيم: النَّبْتُ الْيَابِسُ المُتكسِّر، والهَشِيمَةُ: الشَّجَرَةُ الْيَابِسَةُ الْبَالِيَةُ، والهَشِيمةُ: الأَرضُ الَّتِي يَبِسَ شجرُها حَتَّى اسوَدَّ، انْهَشَمَتِ الإِبلُ: خارتْ وضعُفت، والهَشْمُ: الأَرضُ المُجْدِبة، وأَصلُ الهَشِيم النبتُ إِذا وَلّى وجفَّ فأَذْرَتْه الريحُ، وناقةٌ مِهْشَامٌ: سريعةُ الهُزالِ"[1]. فيتضح البعد التربوي من مادة (هشم)، إذ يدرك المتلقي والمتأمل لدلالاتها أن نهاية الحياة الدنيا هو الضعف والهزال والفناء.

[1] ابن منظور: **لسان العرب**. مادة: (هشم).

**تتجلى الصورة الحركية في الآية الكريمة**، إذ يتحول الهشيم الراكد على الأرض إلى هشيم تذروه الرياح، فالأشجار والأوراق بعد أن تجف وتيبس وتتكسر، تصبح خفيفة لا وزن لها، تطير وتتفرق مع نسمات الرياح، ويتناسب تحول الزرع إلى الهشيم المتطاير مع الحياة الدنيا، فالزرع الذي أخذت الفائدة منه، وأدى دوره، ثم انتهت صلاحيته، ولم يعد له أي وزن أو دور أو قيمة، لا يفاد منه، وكذلك الحياة الدنيا لن يكون لها أي دور أو وزن أو قيمة، ولن تفيد شيئًا، فتشبيهها بفتات الأوراق الطائر دليل على انعدام قيمتها، وقلة وزنها وشأنها، فالمعنى التربوي الذي نصل إليه من الآية الكريمة، ومن تشبيه الحياة الدنيا بالهشيم، أنها لا تساوي شيئًا، ولا فائدة منها بعد انقضاء دورها وواجبها. فالمقصد الرباني يدعو إلى التدبر والتعمق والتفكر لإدراك العبرة والهدف؛ حتى يتسنى للإنسان أن يفهم دوره في هذه الحياة، ويعرف كيف يفكر؟ وما الطرق والسبل التي ينبغي أن يسلكها فيها؟

ترتبط الآية الكريمة مع سياق قصة الرجلين التي سبقتها، إذ تحول ماء جنة أحدهما غورًا، في ليلة وضحاها، فهذا الكافر المتكبر المشرك المعتقد بالثبات، أنكر قيام الساعة، وادعى استحالة إبادة جنته التي أنفق فيها أموالًا طائلةً في سبيل حمايتها من الزوال، وكفر بقانون التغير الرباني الكوني، أي إن صاحب الجنتين نفى محور الصيرورة عن جنته،[1] فتتشابه صورة الحياة الدنيا الممثلة بصورة الزرع، مع قصة صاحب الجنتين المنكر لمحور الصيرورة، إذ تؤكد على فكرة الكينونة والسيرورة والصيرورة، فالماء النازل من السماء يمثل كينونة الزرع، واختلاطه بنبات الأرض وتفاعله معه ثم نموه في زمنه المقدر يمثل سيرورة الزرع، ثم المشهد الأخير الذي يصير إليه الزرع في النهاية، وهو مشهد الهشيم أو اليبوسة والجفاف الذي يؤول إليه الزرع، يمثل الصيرورة والفناء والموت، فنصل من الصورة التركيبية الواضحة للزرع إلى فكرة يراد إيصالها، وهي أن الحياة الدنيا كينونة وسيرورة وصيرورة، وهو تأكيد على

[1] شحرور، محمد: **نحو أصول جديدة للفقه الإسلامي فقه المرأة (الوصية – الإرث – القوامة – التعددية – اللباس)**. ط:1، الأهالي للطباعة والنشر والتوزيع، سورية، دمشق، 2000م، ص:31.

زوالها وانتهائها؛ كي لا تتعلق عليها الآمال، وحتى لا يُغتر بها، أو بنعيمها وجناتها وأنهارها وثمارها وزرعها، فكل إلى صيرورته وفنائه.

كشفت ثنائية الثبات والتغير في القرآن الكريم حقيقة مثل الحياة الدنيا، إذ اتضح أنها خيرٌ لأهل الخير، تعطيهم كل ما فيها، فيحصدون ثمارها، ويأكلون منها ومن خيراتها التي وهبها الله –عز وجل–، إلى أن يأتي موعد وفاتها وزوالها، وأنها شر لأهل الشر، من المتكبرين والمنكرين، أصحاب العناد المطلق، المتجبرين بغيرهم، والمنكرين لقانون التغير الكوني، إذ تكون وسيلة للانتقام منهم، وللرد السريع عليهم وعلى طغيانهم وتغطرسهم وإنكارهم وتكبرهم، فيحق عليهم أن تكون الدنيا مكانًا أوليًّا لتعذيبهم.

## المبحث الثاني: الثبات والتغير في صورة البعث والحشر.

**المشهد الأول: تشبيه كثرة الخارجين من الأجداث بالجراد المنتشر (سورة القمر).**

**المشهد الثاني: تشبيه حركة الخارجين من الأجداث بالفراش المبثوث (سورة الواقعة).**

**المشهد الثالث: تصوير سرعة الخارجين من الأجداث يوم القيامة (سورة يسن).**

**المشهد الرابع: الصورة النفسية للخارجين من الأجداث يوم القيامة (سورة المعارج).**

## المبحث الثاني: الثبات والتغير في صورة البعث والحشر.

تتجلى **ثنائية الثبات والتغير** في صورة البعث والحشر في القرآن الكريم في صورة الأجداث، فيكون الثبوت في خروج الناس من الأجداث، والتغير في هيئة خروج الناس من الأجداث يوم القيامة.

تكلم العلماء في **أسباب اختيار لفظة (الأجداث) بدلًا من (القبور)**، في القرآن الكريم، وتلخصت آراؤهم في أن لفظة (القبور) تأتي في سياق مضجع الموتى، قبل البعث والنشور، بينما قصرت (الأجداث) على المخرج إلى الحشر يوم القيامة،[1] "فالقَبْرُ: مَدْفَنُ الإِنسان، والمَقْبرَة: مَوْضِعُ القُبُور، وقَبَره: دَفَنَهُ"[2]، فالمراد بالقبر استقرار الميت في قبره، إذ إن شواهد القبور في القرآن الكريم تدل على الأماكن التي دفن فيها الموتى، خلافًا للأجداث التي توحي بالإحياء، والسير السريع، وتدل على الأماكن التي يبعث منها الأموات، فهي تتحدث عن أحياء كانوا موتى، فلم تستخدم إلا في حال بعث الأموات من قبورهم.[3] فعند الاستقرار: قبر، وعند البعث والخروج: أجداث.

وخص استعمال (الأجداث) بحال الخروج من القبور مسرعين إلى المحشر، فلم تستعمل في حال السكون، أما لفظة (القبور) فاستعملت في حال السكون والهمود، وعلى الرغم من بعثرة القبور وما فيها فإنها لا تدل إلا على البعثرة دون أن تدل على السير والحركة، وإن كان المقصود من بعثرة القبور تحريكها، خلافًا لما ورد في استعمال الأجداث؛ فإنها تدل على حركة الخارجين منها، والإسراع في السير، وليس في لفظ القبور مثل ذلك المعنى.[4]

---

[1] ينظر: عبد الرحمن، عائشة: **الإعجاز البياني للقرآن ومسائل ابن الأزرق**. ط:3، دار المعارف، مصر، (د.ت)، ج:1، ص:531-532.

[2] ابن منظور: **لسان العرب**. مادة: (قبر).

[3] زيدان: **الفروق اللغوية في القرآن الكريم**. ص:82-83.

[4] السامرائي: **أسئلة بيانية في القرآن الكريم**. ص:154-155.

تواءم تغير المفردات بما يتناسب مع سياق الآيات، فتجلت مفردة الأجداث في سياق الإحياء، أما مفردة القبور فجاءت في سياق الموت والسكون، وتعليقًا على ما سبق، تتعدد أسباب الموت، فمن الناس من يموت ويدفن طبيعيًّا في القبور، ومنهم من يموت غرقًا، فتأكله الحيتان في البحر، ومنهم من يموت حرقًا فيكون رمادًا متطايرًا، ومنهم من يموت إثر صيحة الصعق فلا يجد من يدفنه، وغير ذلك، فهل يكون الناس جميعًا يوم القيامة في القبور؟!

يُفهم من الكلام السابق أن لفظة الأجداث أعم من لفظة القبور، إذ إن **القبور** تطلق على مكان الدفن، بينما **الأجداث** تطلق على مكان الدفن الذي تدل عليه القبور، وتطلق على شيءٍ آخر، غير معروف، وأقربه بالمكان الذي يكون فيه كل من ينتهي أجله في الحياة الدنيا بأي طريقة كانت، سواءً أكان موتًا طبيعيًّا ينتهي بالدفن تحت التراب، أم حرقًا، أم غرقًا وتمزيقًا، أم أي طريقة أخرى تؤدي إلى الفناء، فهل تعني الأجداث المكانَ الذي يكون فيه (عجب الذنب) الذي نُسب إلى رسولنا الكريم ﷺ أنه تحدث عنه؟!

تقترب الدلالة المعجمية للفظة (الجدث) مما نُسِب إلى سيد الخلق ﷺ حول (عجب الذنب)*

فالجدث من (جدثة): وهي مضغ اللحم، فكأنهم يخرجون بعدما أكلتهم الأرض ومضغت لحومهم،[1] أو إنهم يخرجون من أجداثهم التي هي عجوب أذنابهم، التي تكون بحجم مضغة اللحم.

تتجلى **ثنائية الثبات والتغير** في ثبوت خروج الناس من الأجداث عند البعث يوم القيامة، في قوله تعالى: ﴿**خُشَّعًا أَبْصَارُهُمْ يَخْرُجُونَ مِنَ الْأَجْدَاثِ كَأَنَّهُمْ جَرَادٌ مُنْتَشِرٌ**﴾ **(القمر:7)**، وقوله: ﴿**يَوْمَ يَكُونُ النَّاسُ كَالْفَرَاشِ الْمَبْثُوثِ**﴾ **(القارعة:4)**، وقوله: ﴿**وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَإِذَا هُمْ مِنَ الْأَجْدَاثِ إِلَى رَبِّهِمْ يَنْسِلُونَ**﴾ **(يس:51)**، وقوله: ﴿**يَوْمَ يَخْرُجُونَ مِنَ الْأَجْدَاثِ سِرَاعًا كَأَنَّهُمْ إِلَى نُصُبٍ يُوفِضُونَ**﴾ **(المعارج:43)**، ونلحظ تغير هيئة خروج الناس من الأجداث يوم القيامة. ويقتضي فهمُ الآيات والمشاهد القرآنية الكريمة تأملَ السياق، فعند تدبر الآيات الكريمة، نلحظ تركزها وفق أربعة مشاهد، هي:

---

* نسبت إلى الرسول الأكرم الأقوال الآتية حول (عجب الذنب): "**كُلُّ ابْنِ آدَمَ يَأْكُلُهُ التُّرابُ، إلّا عَجْبَ الذَّنَبِ منه خُلِقَ وفيهِ يُرَكَّبُ**". مسلم، إبن الحجاج أبو الحسن: **المسند الصحيح المختصر (صحيح مسلم)**. تح: محمد الفاريابي. ط:1، دار طيبة للنشر والتوزيع، الرياض، 2006م، 2955.

وقول آخر: "**أكثِروا عليَّ من الصَّلاةِ في اللَّيلةِ الغرّاءِ واليومِ الأزهرِ فإنَّهما يُؤدّيان عنكم، وإنَّ الأرضَ لا تأكلُ أجسادَ الأنبياءِ، وكلُّ ابنِ آدمَ يأكلُه التُّرابُ إلّا عجَبَ الذَّنبِ**". عبد الهادي، محمد: **الصارم المنكي في الرد على السبكي**. ط:2، مؤسسة الريان للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، لبنان، 2003م، ص:345.

وقول آخر: "**يأكلُ التُّرابُ كلَّ شيءٍ من الإنسانِ إلّا عجَبَ ذنبِه، قيل: وما هو يا رسولَ اللهِ؟ قال: مثلُ حبَّةِ خرْدلٍ منه تَنشَئون**". المنذري، زكي الدين: **الترغيب والترهيب من الحديث الشريف**. تح: مشهور آل سلمان. ط:1، مكتبة المعارف للنشر والتوزيع، الرياض، المملكة العربية السعودية، 1424هـ، ج:4، ص:289.

والسيوطي، جلال الدين: **البدور السافرة في أحوال الآخرة**. تح: محمد الشافعي. ط:1، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، 1996م، ص:34.

[1] السامرائي: **أسئلة بيانية في القرآن الكريم**. ص:154-155.

**المشهد الأول: تشبيه كثرة الخارجين من الأجداث بالجراد المنتشر (سورة القمر).**

تتجلى ثنائية الثبات والتغير في صورة الأجداث، في قوله تعالى: ﴿**خُشَّعًا أَبْصَارُهُمْ يَخْرُجُونَ مِنَ الْأَجْدَاثِ كَأَنَّهُمْ جَرَادٌ مُنْتَشِرٌ**﴾ (**القمر**:7)، فتثبت المشبه (خروج الناس من الأجداث)، وتغير المشبه به وفق السياق اللغوي، إذ تصور خروجهم بالجراد المنتشر.

يركز القرآن الكريم على فكرة البعث والإحياء، ويبدع في تصوير مشهد البعث وإحياء الناس بعد موتهم، فيقرب الصورة إلى المشهد، حتى تتضح لكل من يتدبر، فتمر المشاهد أمام عينيه، كأنه يراها على حقيقتها.

وتأتي الآية الكريمة في سياق البعث وإحياء الموتى، عند الصيحة الثانية، فتثبت فكرة خروج الناس من أجداثهم، وتؤكد عليها، وتتغير الحالة التي سيكونون عليها عند خروجهم، إذ يكونون في هذا المشهد كالجراد المنتشر، في حين أن صورة المشبه به في آية أخرى مختلفة؛ بسبب تغير السياق اللغوي الجزئي والكلي للآية.

وينبغي البحث عن **سبب اختيار الجراد مشبهًا به للخارجين من الأجداث، فلمَ اختار الجراد؟ وهل تتناسب صفات الجراد الطبيعية مع حال الناس عند البعث؟ ولماذا لم يصفهم بالفراش المبثوث كما ورد في قوله تعالى: ﴿يَوْمَ يَكُونُ النَّاسُ كَالْفَرَاشِ الْمَبْثُوثِ﴾ (القارعة:4)، إذ إن سياقها –أيضًا– نفخٌ في الصور؟ وما سبب ضيق الصورة الفنية وحصرها بانتشار الجراد بلا توسع؟**

يشكلُ اختيارُ القرآنِ الكريمِ الجرادَ مشبهًا به في سياق يوم القيامة العظيم، وتشبيه الناس بمخلوقات صغيرة ضعيفة كالجراد، مفارقةً لافتةً تدعو الإنسان إلى التفكر والتدبر؛ ليبين لهم أن الحياة الدنيا لا قيمة لها، ولا وزن لها، فهي لا تساوي جناح بعوضة، فالأمر الجلل هو ما ينجم عن البعث

والنشور من حساب رباني.[1] ويعود **سبب اختيار الجراد** مشبهًا به؛ لكونه محسوسًا مستمدًّا من مظاهر الطبيعة، يعرفه كل الناس ويرونه، فهو من أكثر عناصر الطبيعة التصاقًا بحياة الإنسان، فاختيار الجراد مشبَّهًا به يمثلُ دعوةً للإنسانِ؛ كيْ يُبصرَ أقربَ الأشياءِ لعينيْهِ؛ ليأخذَ العبرةَ والموعظةَ، لتقريب المشهد الغيبي بوساطة المشاهد الواقعية، فيسهل تخيل المشهد لكل من يقرأ الآية الكريمة أو يسمعها.

**تتضح ثنائية الثبات والتغير في الآية الكريمة، في تشابه خروج الناس من الأجداث أحياءً بعد أن كانوا أمواتًا مع حال خروج الجراد من التراب بعد أن ينضج ويفقس**، إذ إن الجراد يضع بيضه تحت التراب، فيلتقي الخروج من التراب مع الخروج من الأجداث. فالجراد يضع البيض في التراب ويخرج عندما تهيأ الأرض والحرارة اللازمة لخروجه، فيشبه حال الميت الذي وضع في التراب وعندما ينفخ في الصور يحيا ويسمح له بالخروج.

**يتصف الجراد بالكثرة والانتشار**، إذ ينحدر من الجنادب، وهي مجموعة كبيرة من الحشرات، ويستطيع تغيير سلوكه وعاداته، ويمكن أن يهاجر على مسافات طويلة، **فيشكل أسرابًا كثيفةً تتحرك بسرعة**، فيطير بسرعة تبلغ 150كم في اليوم، ويتراوح انتشار أسراب الجراد من أقل من 1كم$^2$ إلى أكثر من 1000كم$^2$، فيشمل كل 1كم$^2$ من السرب ما بين (40–80) مليون من الجراد البالغ.[2] ويتبع الجراد رتبة الحشرات مستقيمة الأجنحة، ويقع بين أفراد فصيلة الجراد والنطاط ذي القرون القصيرة، ويمتاز بزوجٍ من الأرجل (الخلفية) المعدة للقفز بصورة واضحة، وهي حشرات ذات حجم كبير، تتكاثر في مجموعات كثيفة، وتهاجر من مناطق التكاثر إلى مناطق أخرى.[3] وتقارب **صورة الجراد** مشهد **الجموع المحشورة، بكثرتها، وانتشارها**، وهي تحث خطاها، نحو الداعي الذي يدعوها إلى شيء لا تعرف عنه

---

[1] ينظر: خمايسة: **نعت المشبه به في القرآن الكريم في ضوء نظرية السياق**. ص:11.

[2] دسوقي، عبد العليم: **الجراد الصحراوي**. قسم وقاية النبات، كلية الزراعة، جامعة سوهاج، 2020م، ص:4.

[3] ينظر: الصوفي: **الموسوعة الكونية الكبرى**. ج:12، ص:273–274.

شيئًا، ولكن الأهوال في المحشر، ترتسم على محيّا الوجوه، فتبدو **الأبصار خاشعةً** من شدة الهول، والكرْب، والفزع، وتجسّم **معاناة الناس** في قوله تعالى على لسانهم: ﴿**هذا يَوْمٌ عَسِرٌ**﴾ (القمر:8)،[1] "فتَشْبِيهُهُمْ بِالْجَرَادِ الْمُنْتَشِرِ فِي الِاكْتِظَاظِ وَاسْتِتَارِ بَعْضِهِمْ بِبَعْضٍ مِنْ شِدَّةِ الْخَوْفِ زِيَادَةٌ عَلَى مَا يُفِيدُهُ التَّشْبِيهُ مِنَ الْكَثْرَةِ وَالتَّحَرُّكِ"[2]، وقيل: الجراد في الكثرة والتموّج، وفي الجيش الكثير المائج بعضه في بعض، فيقال: جاءوا كالجراد منتشرًا في كل مكان؛ لكثرته، مُهْطِعِينَ إِلَى الدَّاعِ مسرعين مادي أعناقهم إليه، أو ناظرين إليه لا يقلعون بأبصارهم.[3]

**تبرز الصورة الصوتية في** الوقع السمعي لصوت الراء في أواخر كلمات الآيات، مثل: (منتشر، عسر، ازدجر، انتصر، منهمر، المحتظر، وغيرها...)، والأصوات الصاخبة ذات التردد المرتفع، مثل: صيحة البعث، وصوت الداعي، وصوت الجراد، وصوت انهمار المطر، وصوت الريح الشديدة، والصيحة التي أرسلت إلى ثمود، في سياق قوله: ﴿**فَتَوَلَّ عَنْهُمْ يَوْمَ يَدْعُ ٱلدَّاعِ إِلَىٰ شَيْءٍ نُّكُرٍ * خُشَّعًا أَبْصارُهم يَخْرُجُونَ مِنَ الأَجْداثِ كَأَنَّهم جَرادٌ مُنْتَشِرٌ * مُهْطِعِينَ إِلى الدّاعِ يَقُولُ الكافِرُونَ هَذا يَوْمٌ عَسِرٌ * كَذَّبَتْ قَبْلَهم قَوْمُ نُوحٍ فَكَذَّبُوا عَبْدَنا وقالُوا مَجْنُونٌ وازْدُجِرَ * فَدَعا رَبَّهُ أَنِّي مَغْلُوبٌ فانْتَصِرْ * فَفَتَحْنا أَبْوابَ السَّماءِ بِماءٍ مُنْهَمِرٍ * وَفَجَّرْنا الأَرْضَ عُيُونًا فالْتَقَى الماءُ عَلى أَمْرٍ قَدْ قُدِرَ * وحَمَلْناهُ عَلى ذاتِ أَلْواحٍ ودُسُرٍ * تَجْرِي بِأَعْيُنِنا جَزاءً لِمَن كانَ كُفِرَ * وَلَقَدْ تَرَكْناها آيَةً فَهَلْ مِن مُدَّكِرٍ * فَكَيْفَ كانَ عَذابِي ونُذُرِ * وَلَقَدْ يَسَّرْنا القُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُدَّكِرٍ * كَذَّبَتْ عادٌ فَكَيْفَ كانَ عَذابِي ونُذُرِ * إِنّا أَرْسَلْنا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا في يَوْمِ نَحْسٍ مُسْتَمِرّ * تَنْزِعُ النّاسَ كَأَنَّهم أَعْجازُ نَخْلٍ مُنْقَعِرٍ * فَكَيْفَ كانَ عَذابِي ونُذُرِ * وَلَقَدْ يَسَّرْنا القُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُدَّكِرٍ * كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِالنُّذُرِ * فَقالُوا أَبَشَرًا مِنّا واحِدًا نَتَّبِعُهُ إِنّا إِذًا لَفي**

---

[1] خمايسة: **نعت المشبه به في القرآن الكريم في ضوء نظرية السياق**. ص:66.

[2] ابن عاشور: **التحرير والتنوير**. ج:27، ص:177.

[3] خمايسة: **نعت المشبه به في القرآن الكريم في ضوء نظرية السياق**. ص:65.

ضَلَالٍ وسُعُرٍ * أَؤُلْقِيَ الذِّكْرُ عَلَيْهِ مِن بَيْنِنا بِلْ هو كَذَّابٌ أشِرٌ * سَيَعْلَمُونَ غَدًا مَنِ الكَذَّابُ الأشِرُ * إنّا مُرْسِلُو النّاقَةِ فِتْنَةً لَهم فارْتَقِبْهم واصْطَبِرْ * ونَبِّئْهم أنَّ الماءَ قِسْمَةٌ بَيْنَهم كُلُّ شِرْبٍ مُحْتَضَرٌ * فَنادَوْا صاحِبَهم فَتَعاطى فَعَقَرَ * فَكَيْفَ كانَ عَذابِي ونُذُرِ * إنّا أرْسَلْنا عَلَيْهِمْ صَيْحَةً واحِدَةً فَكانُوا كَهَشِيمِ المُحْتَظِرِ * ولَقَدْ يَسَّرْنا القُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُدَّكِرٍ * كَذَّبَتْ قَوْمُ لُوطٍ بِالنُّذُرِ * إنّا أرْسَلْنا عَلَيْهِمْ حاصِبًا إلّا آلَ لُوطٍ نَجَّيْناهم بِسَحَرٍ * نِعْمَةً مِن عِنْدِنا كَذَلِكَ نَجْزِي مَن شَكَرَ * ولَقَدْ أنْذَرَهم بَطْشَتَنا فَتَمارَوْا بِالنُّذُرِ * ولَقَدْ راوَدُوهُ عَنْ ضَيْفِهِ فَطَمَسْنا أعْيُنَهم فَذُوقُوا عَذابِي ونُذُرِ * ولَقَدْ صَبَّحَهم بُكْرَةً عَذابٌ مُسْتَقِرٌّ * فَذُوقُوا عَذابِي ونُذُرِ * ولَقَدْ يَسَّرْنا القُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُدَّكِرٍ * ولَقَدْ جاءَ آلَ فِرْعَوْنَ النُّذُرُ * كَذَّبُوا بِآياتِنا كُلِّها فَأخَذْناهم أخْذَ عَزِيزٍ مُقْتَدِرٍ﴾ **(القمر:6-42).**

وتتجلى **الدلالة الصوتية الإيقاعية** في مشهد خروج الناس من الأجداث، **بصوت الجراد** وصريره، فيقارب **صوتُ الجراد** في سرعته وشدته **الصوتَ الناجمَ عن خروج الناس** من الأجداث، وتحفل الآيات **بأصوات** مناظرة ناجمة عن مشهد قيام الساعة حينما تسرع جموع الناس في سيرها نحو الداعي، الذي يدعوها لأمر غريب نكير شديد لا تعرفه ولا تطمئن إليه، فيشعر الكافرون في أثناء هذا التجمع، والخشوع، والإسراع، بهول المشهد وعسره،[1] **وأزعم أنها تناظر صوت الصيحة، وصوت الداعي المستمر في زجر من يرتدع عن المسير. وتتجلى الصورة السمعية الحركية** في مشهد خروج الناس من الأجداث، فالناس بمجرد سماع صيحة البعث، تُبَثُّ الروح فيهم، فيتحركون ويخرجون من أجداثهم فجأة، والجراد يُسمع صريره في أثناء حركته وانطلاقه، والريح الصرصر تتحرك مصحوبة بصوت الرعد، فيظهر مشهد ترتبط فيه الحركة مع الصوت، فيدل على السرعة، والرعب.

---

[1] ينظر: قطب: **في ظلال القران الكريم**. ج6، ص 3428

وينظر: خمايسة: **نعت المشبه به في القرآن الكريم في ضوء نظرية السياق**. ص:66.

**تتناسب حركة الناس الخارجين من الأجداث مع حركة الجراد** الذي يكون **أسرابًا منظمة** يسيرها قائدها كيف وأين يشاء، إذ تكون حركتهم منظمة، **وتكون الجهة المقصودة لسيرهم محددة حسبما يريد الداعي**، حتى لو لم يكن معلومًا بالنسبة إليهم أين هم ذاهبون، فيسيرون إلى شيء محدد نكر بالنسبة لهم، في قوله: ﴿**إِلَىٰ شَيْءٍ نُّكُرٍ**﴾ (**القمر**:6)، ويناظر سير الناس عند النفخ في الصور حيث يأمرهم الداعي، في قوله: ﴿**مُّهْطِعِينَ إِلَى الدَّاعِ**﴾ (**القمر**:8)، انطلاقَ الجراد أسرابًا وراء قائدهم نحو الجهة التي يسير إليها، وحال الريح الصرصر التي أرسلت إلى قوم عاد، المنطلقة إلى جهة واحدة، وهو ما نعرفه عند التفريق بين الريح والرياح، إذ حددت الريح في القرآن الكريم بأنها التي تكون لجهة مقصودة بينما الرياح فهي التي تكون في جهات متعددة،[1] "والمهطع: هو الذي يقبل ببصره على الشيء دون أن يرفعه عنه"[2]، وهذا تأكيد على الاتجاه المحدد، والاستجابة المؤكدة للداعي بلا اختيار ودون أي رفض، ووضع للفظة في مكانها الصحيح.

ولعل توجيه المسار المكاني المقصود يدل على الحالة الهستيرية التي تصيب الخارجين من الأجداث؛ نتيجة الهول والرعب والفزع الذي أصابهم، فهم فاقدوا الوعي، يجهلون الطريق، فيحتاجون لمن يقودهم ويسيرهم ويرشدهم إلى الاتجاه الصحيح. ولما كان السياق **سياق اتباع وانقياد**، وراء قائد صارم، **ناسبَ** اختيار الجراد وصفًا للناس في مشهد الخروج من الأجداث، دلالة على الكثرة، وبرزت **ثنائية القائد والتابع** في المشهد دلالة على النظام والطاعة، فظهر القائد في قوله تعالى: ﴿**يَوْمَ يَدْعُ الدَّاعِ**﴾ (**القمر**:6)، والتابع في قوله تعالى: ﴿**مُّهْطِعِينَ إِلَى الدَّاعِ**﴾ (**القمر**:8)، **فتقابل مشهد استجابة الناس على كثرتهم واتباعهم داعٍ واحد، بصفة اتباع الجراد لقائد واحد، فأفواج الناس كلها تسير بنظام وانقياد تام وراء الداعي**، فالجراد ينقاد إلى رئيس يجتمع إليه كالعسكر، إن طار أوله تتابع كله طائعًا، وإذا نزل

---

[1] عتيق: **ظواهر أسلوبية في القرآن الكريم التركيب والرسم والإيقاع**. ص:145.

[2] ابن منظور: **لسان العرب**. مادة: (هطع).

أوله نزل جميعه، فالجراد صنفان: الفارس والراجل.[1] وتظهر **الدلالة الحركية التتابعية** في قوله: ﴿**خُشَّعًا أَبْصَارُهُمْ يَخْرُجُونَ مِنَ الْأَجْدَاثِ كَأَنَّهُمْ جَرَادٌ مُنْتَشِرٌ**﴾ (**القمر**:7)، إذ تشتمل على حركات متتابعة وسريعة للجراد والأجداث، وتؤيد ذلك حركة انشقاق الأرض وتفجر الينابيع الدالة على الكثرة والانتشار والتتابع في التفجير، في قوله: ﴿**وَفَجَّرْنَا الْأَرْضَ عُيُونًا**﴾ (**القمر**:12)، وحركة السفن في قوله: ﴿**تَجْرِي بِأَعْيُنِنَا جَزَاءً لِمَنْ كَانَ كُفِرَ**﴾ (**القمر**:14)، وانتشار الرياح القوية في قوله: ﴿**إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِي يَوْمِ نَحْسٍ مُسْتَمِرٍّ**﴾ (**القمر**:19)، وقوله: ﴿**إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ حَاصِبًا**﴾ (**القمر**:34)، وغيرها، ويدعم ذلك صوت الراء الذي يشتمل على حركات متتابعة وسريعة ناجمة عن آلية نطقه التكراري.[2]

**وتوضح الدلالةُ المعجمية للجدث لحظةَ انطلاق الناس وبعثهم**، "فتقترب لفظة (الجدث) من لفظ (جدثة)، فالجدثة: صوت الحافر والخف، فيشبه صوتُ خروج الموتى من الأجداث مسرعين صوتَ الحافر والخف عند السير والعدو"[3]، فكأنها تدل على بداية الحركة، إذ إن صوت الحافر يُسمع عند الخطوة الأولى، بمجرد البدء بالمشي والحركة، وتتقابل مع حال الناس المهطعين إلى الداعي، فنقول: "أهطع الرَّجلُ: انطلق إلى مَنْ دعاه بسرعة، وهطَع الرَّجلُ: مشى مسرعًا وهو خائف، أو أقبل ببصره على الشَّيء فلم يرفعه عنه"[4]، و**نجد تضادًّا بين مادتيْ (جرد) و(نشر) والسياقَ**، فالجرد: "**أخذ الشيء عن الشيء عسفًا وجرفًا**، ومنه سمي الجارود وهي السنة الشديدة المحل كأنها تهلك الناس، وأرض جراد: قحط"[5]، بينما "النَّشْر: الْحَيَاةُ، وأَنشر اللهُ الريحَ: أَحياها بَعْدَ مَوْتٍ، ونَشَرتِ الأَرض: أَصابها الربيعُ فأَنبتتْ، وَمَا أَحْسَنَ نَشْرها أَي: بَدْءَ نباتِها، ونَشْر الأَرض: مَا خَرَجَ مِنْ نَبَاتِهَا، ونَشَر اللَّهُ الْمَيِّتَ: أَحياه؛

---

[1] ينظر: دسوقي: **الجراد الصحراوي**. ص:8-9.

[2] ينظر: عتيق: **ظواهر أسلوبية في القرآن الكريم التركيب والرسم والإيقاع**. ص:407.

[3] السامرائي: **أسئلة بيانية في القرآن الكريم**. ص:154-155.

[4] ابن منظور: **لسان العرب**. مادة: (هطع).

[5] **المصدر السابق**. مادة: (جرد).

ونَشَر الميتُ إذا عَاشَ بَعْدَ الْمَوْتِ"[1]، فكأن **الجرد يعني الأخذ والسلب والفناء، بينما النشر يعني البدء والبعث والحياة والخروج**، وكأن تركيب (الجراد المنتشر) يدل على الموت والحياة بعده، فيرتبط مع سياق البعث. أما لو كانتا مختلفتين، أو كل منهما على حدة، فكانت الآية مثلًا: (يخرجون من الأجداث كالجراد)، أو (يخرجون من الأجداث منتشرين) لما تناسقت مع السياق، فالسياق بعث وحياة بعد موت، ولو كانت (كالجراد) فقط، لما اتضح المراد، فهم كالجراد بماذا؟ ولو كانت (منتشرين) لحملت معنى الافتراق بلا ترتيب ولا نظام، إذ "النَّشَر: الْقَوْمُ المتفرّقون الَّذِينَ لَا يَجْمَعُهُمْ رَئِيسٌ"[2]، فعند اتصاف الجراد بالمنتشر، تجتمع الدلالات **ويكون المراد الترتيب بنظام كصفوف الجراد التي لا تصطف إلا بأمر من قائدها**، فيتناسب السياق مع سياق الداعي، وتلتقي الدلالات.

**تتصف الصورة الحسية لنعت المشبه به المفرد (منتشر) بالضيق**، إذ إنها كلمة واحدة، نحو قوله تعالى: ﴿**خُشَّعًا أَبْصَارُهُمْ يَخْرُجُونَ مِنَ الْأَجْدَاثِ كَأَنَّهُمْ جَرَادٌ مُنْتَشِرٌ**﴾ (**القمر**:7)، فالنعت (منتشر) صورة حسية بصرية مفردة ضيقة لا تتجاوز تخيل الناس يوم القيامة وهم يخرجون من القبور ينتشرون في كل مكان كالجراد، فالجراد لا يأتي بأعداد قليلة، وإنما يأتي **أسرابًا**.[3] وأزعم أن سبب ضيق الصورة الفنية وانحصارها بانتشار الجراد، أن المشهد لا يحتمل الاتساع، فهو مشهد سريع مليء بالهول، والذعر، والرعب، ورغبة في اتعاظ الناس بسرعة، إذ إن كثيرًا من الناس لا يتعظون إلا عند الضيق، فالناس في المشهد خائفون مرعوبون إثر صوت الصيحة العظيم، الذي أيقظهم من موتهم، كحال من يوقظ من نومه فجأة على صوت مرعب، فيفيق مرعوبًا مختنقًا، ويرتبط الخوف بدقات قلب الإنسان، التي تزداد وتتناسب سرعتها طرديًّا مع درجة الخوف والرعب، والتي تتشابه مع حال المتسابقين في سباق ركض، فتكون

---

[1] ابن منظور: **لسان العرب**. مادة: (نشر).

[2] **المصدر السابق**. مادة: (نشر).

[3] خمايسة: **نعت المشبه به في القرآن الكريم في ضوء نظرية السياق**. ص:39.

حركتهم سريعةً جدًّا، ودقات قلبهم تزداد إثر الجهد الذي يقومون به، والضيق النفسي، والتنفسي، والجسدي، الذي يشعرون به أثناء السباق وقبله؛ خوفًا من النتيجة والخسارة المرعبة.

**يرتبط الجراد بسياقات العذاب التي ذكرت في السورة**، والتي وقعت على قوم نوح وعاد وثمود وقوم لوط وفرعون، **إذ يرمز الجراد إلى الجبابرة***، ولا بد من الإشارة إلى أن الجراد وحده، على الرغم من تجبره وقوته وإيذائه للمزارعين وغيرهم، إلا أنه إذا لم يكن كثيرًا كالجيش، ومهيئًا ومتدربًا ومستعدًّا للحرب، ومتماسكًا ومتعاونًا ومنقادًا وراء قائد واحد، فإن قتله والتخلص منه سيكون سهلًا، ولن يفوز في معركته، ولن يرمز للعذاب العام، بينما عند وصفه بالانتشار، فإنه **يرمز للعذاب العام**، أو لجيشٍ جبارٍ مستعدٍّ لمعركة تكاد تكون منتصرة. وكأن الآية القرآنية، عند التقاء الجراد مع صفة الانتشار، تفيد العموم، أو عموم العذاب، فالجراد يرمز للجبابرة، ولكن رحمة الله الواسعة وعدله الإلهي بأن يأخذ كل إنسان حقه ومهلته –عله يتوب ويرجع– رغم الإنذارات الكثيرة، إن لم يكونوا منتشرين، وإن لم يعمّ ظلمهم وتجبرهم في الأرض، فلن يقع العذاب، ولو تأملنا سياقات العذاب، فجميعهم أنذروا مرارًا، وأمهلوا حتى عمَّ ظلمهم الأرض، فحُقَّ العذاب عليهم جميعًا، فتبرز العلاقة الوثيقة بين الجراد ونعته (منتشر)، وتؤدي إلى معنى العذاب المعمم.

وتعزيزًا **لثنائية الاختيار والإجبار**، فإن المكذبين أخذوا حقهم، ووقتهم، وحريتهم في الاختيار في الحياة الدنيا، وأنذروا مرارًا، حتى حق عليهم القول بالعذاب، ولكن في هذا اليوم، يوم النفخ الثاني في الصور، يوم البعث والخروج من الأجداث، فلن يخيروا، بل سيجبروا، وسينقادوا رغمًا عن أنوفهم، فلم يعد القرار قرارهم، ولم يعد الأمر باختيارهم، فمن لم يستجب لنذر كثيرة، سيستجيب لداع واحد، وأزعم أن ثنائية الثبات والتغير تتقابل مع فكرة **(الشيء الواحد والأشياء المتعددة)** فالناس يبعثون بصيحة واحدة،

* قيل في الجراد: "فيه شبه عشر جبابرة، وهي: وجه فرس، وعينا فيل، وعنق ثور، وصدر أسد، وبطن عقرب، وجناحا نسر، وفخذا جمل، ورجلا نعامة، وذنب حية". دسوقي: **الجراد الصحراوي**. ص:8–9.

بل سيساقون وراء داعٍ واحد، والجراد يسير وراء قائد واحد، وقوم نوح أنذروا مرارًا، وتحولوا إلى الهلاك بطوفان واحد، وعاد لم تغنِ معهم النذر، فتحول حالهم بالإهلاك بنوع ريح واحد، وثمود أرسلت إليهم ناقة واحدة، فقتلوها، فتحولوا بصيحة واحدة إلى هشيم المحتظر، وقوم لوط أرسل إليهم حاصبٌ مرة واحدة، فأصبحوا متحولًا حالهم من الحياة إلى الممات، وفرعون الذي طغى على الرغم من النذر التي جاءته، فتغير حاله إلى غريق مرة واحدة، وأخذ أخذ عزيز مقتدر، بل إن سفينة نوح، تكونت من ألواح ودسر كثيرة وأنتجت سفينة واحدة تغيرت حالها من الركود إلى الجريان، ومن الهلاك إلى النجاة، ويؤكد هذه الفكرة قوله تعالى: ﴿**وَمَا أَمْرُنَا إِلَّا وَاحِدَةٌ كَلَمْحٍ بِالْبَصَرِ**﴾ (**القمر**:50)، فهي نذر كثيرة وعقاب واحد، ودليل ذلك قوله: ﴿**فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ**﴾ (**القمر**:16)، فهي نذر كثيرة متعددة تتحول إلى عذاب واحد. ولعلها تكون رسالة لكل قائد ورئيس ووزير ومسؤول أخذ حقه ووقته في منصبه وعلى كرسيه، فأُمهل كي يُرى ما سيفعل، إلى أن يأتي اليوم الذي يكون فيه مرؤوسًا لا رئيسًا، تابعًا لا متبوعًا، مجبرًا لا مخيَّرًا.

**يتعلق الجراد بالفزع والرعب والذعر والموت والفناء**، إذ تعدُّ حشراتٍ تصيب الشعوب بالهلع والفزع والذعر لرؤية أسرابها؛ لأنها تقضي على الأخضر واليابس وتضر المزروعات، فالجراد يلتهم كميات كبيرة من النباتات والمحاصيل، ويؤثر غزو الجراد على الأمن الغذائي في المناطق المتضررة. فيستلزم عدة سنوات ومئات الملايين من الدولارات للسيطرة عليه.[1] **فيرمز الجراد للفناء**، "والجَرَد من الأرض: ما لا ينبت"[2]، فتتناسب دلالة القحط الناتج عن الجراد، مع سياقات العذاب الموجودة التي مسحت شعوبًا عن بكرة أبيها، فتلتقي مثلًا مع سياق قوم ثمود الذين أرسلت عليهم صيحة واحدة، فحولتهم من أجساد لينة إلى هشيم المحتظر، دلالة على الجفاف والقحط واليبوسة التي أصابت أجسادهم. فالجراد

---

[1] دسوقي: **الجراد الصحراوي**. ص:4.

[2] ابن منظور: **لسان العرب**. مادة: (جرد).

يقضي على مئات الأفدنة المزروعة في ساعات، ويحيل الأرض الخضراء إلى أرض جدباء في ساعات، عندما تغزو بلدًا أو أرضًا مزروعة.[1] فيظهر أداء الجراد السريع في قلب الموازين، ودوره في تحويل الأخضر إلى يابس، في وقت قصير لا يتجاوز الساعات، فيتشابه مع أنواع العذاب المختلفة التي وقعت على شعوب وأقوام ونقلتهم من حال إلى حال وقضت عليهم بلمح البصر، وأرى إبداعًا في تصوير المشاهد وتقريبها إلى أذهان الناس، إذ يضرب المثل من الواقع، فربما لا يستطيع الإنسان أن يتخيل عمق المشهد الماضي، أو لا يصدق الحدث لكونه سمع عنه فقط ولم يره، فيقرب الخالق الصورة لعباده بضرب أمثلة واقعية، في كل زمان ومكان، ليصور مشاهد في الزمن الماضي أو في المستقبل كمشهد خروج الناس من الأجداث عند النفخ في الصور، فينتقلون من حال إلى حال.

وتناظر **هجرةُ** الجراد **أسرابًا** وجماعات من مكان إلى آخر هجرةَ الإنسان من حياة إلى أخرى ومن مكان إلى آخر، من الدنيا إلى الآخرة أفواجًا وجماعات، ويقابل هجرة الجراد هجرة فرعون وتنقله وراء موسى –عليه السلام–؛ لقتله، ويتقابل استمرار الكافرين بالتكذيب وإنكار النذر المستمرة باستمرار وقوع العذاب، فالماء في سياق قوم نوح كان منهمرًا، دلالة على الاستمرارية، وتفجير الأرض عيونًا، بقوله: ﴿**وفجّرنا**﴾ دلالة على الكثرة والمبالغة والاستمرار، ولا تخفى العلاقة بين الجراد والرياح التي تساعد على تكاثرها.

وتلخيصًا لما تقدم، نلحظ تناسبًا ملحوظًا بين المشبه (الناس الخارجين من الأجداث) والمشبه به (الجراد المنتشر) وانسجامًا مع السياق، وتناغمًا فنيًّا بين الطرفين، وتأثيرًا على المتلقي، فينجم عن ذلك جمالٌ فنيٌّ في الصورة التشبيهيّة، وثراءً في المشهد القرآني.

---

[1] الصوفي: **الموسوعة الكونية الكبرى**. ج:12، ص:276.

**المشهد الثاني: تشبيه حركة الخارجين من الأجداث بالفراش المبثوث (سورة الواقعة).**

تظهر ثنائية الثبات والتغير في خروج الناس من الأجداث يوم القيامة في قوله تعالى: ﴿**يَوْمَ يَكُونُ النَّاسُ كَالْفَرَاشِ الْمَبْثُوثِ**﴾ (**القارعة:4**)، فجاء المشبه (خروج الناس من الأجداث) ثابتًا، وجاء المشبه به (تصوير الناس بالفراش المبثوث) متغيرًا وفق السياق اللغوي.

شُبِّهَ الناسُ الخارجون من الأجداث في قوله تعالى: ﴿**يَوْمَ يَكُونُ النَّاسُ كَالْفَرَاشِ الْمَبْثُوثِ**﴾ (**القارعة:4**)، بالفراش المبثوث، **فكيف يكون ذلك؟ ولم هذا التغيير؟ وهل لسياق النفخ في الصور دور في التغيير أم لا؟**

يرتبط تغير الصورة الفنية لمشهد يوم الحشر في اختيار الفراش المبثوث في سورة القارعة، **بتغير السياق والتجانس بين المشبه والمشبه به**، فعند تدبر قوله تعالى: ﴿**الْقَارِعَةُ * مَا الْقَارِعَةُ * وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْقَارِعَةُ * يَوْمَ يَكُونُ النَّاسُ كَالْفَرَاشِ الْمَبْثُوثِ**﴾ (**القارعة:1-4**)، نجدها تدل على سياق الصيحة، التي تفتت كل شيء، وتفكك الروابط الكونية، والنفسية، والاجتماعية، وغيرها، فتسيطر حالة الذعر، والهول، والاضطراب، والتشتت، والتفكك على المشهد، فالروابط الاجتماعية والأسرية ستُفتت وتُدمر، فيفترق الناس عن بعضهم بعشوائية، كل منهم يلوذ بالفرار، باحثًا عن النجاة، فيبحث عن الجهة التي تناسبه، والمكان الذي يحميه في ظنه، فتتشابه صورتهم مع صورة الفراش المبثوث، في الحركة العشوائية، غير المنظمة، إذ إن كل فراشة تذهب إلى جهة تريدها.

**يعد الفراش من الحشرات الحرشفية الأجنحة**، التي تتميز بأربعة أجنحة مغطاة بحراشيف مفلطحة، تعيش في علب تصنعها يرقاتها تشبه القبور، ثم تبدأ اليرقة بالتشرنق، فتربط نفسها برباط من حرير إلى النبات الذي تتغذى عليه، لتمر بمرحلة الاستتار، فيعاد خلق الحشرة بأكملها، وكأنها عملية بعث لها، إذ تذاب اليرقة ذوبانًا كاملًا، ثم يعاد بعثها على هيئة حشرة كاملة (فراشة) تختلف تمامًا عن

اليرقة التي جاءت منها، فكأنه البعث الجديد، وبعد تمام تخلقها، تستعد للظهور والخروج من مكانها، كاستعداد الميت الذي بعث للخروج من قبره، فيتحول جلدها، ثم ينشق كما تنشق القبور عن أصحابها، فتخرج الفراشات بالملايين من شرنقاتها ضعيفة هزيلة زاحفة ببطء في اضطراب وحيرة، كما سيخرج الناس من قبورهم وأجداثهم في ذهول واستغراب واضطراب وحيرة.[1]

**تتجلى ثنائية الثبات والتغير في تشبيه الناس بالفراش في الكثرة، والانتشار، والضعف، والذلة، والاِضْطِرابِ، والمَجِيءِ والذَّهابِ عَلى غَيْرِ نِظامٍ**، والتطاير إلى الداعي من كل جانب، حِينِ يَدْعُوهم إلى المَحْشَرِ، فشبهوا بِالفَراشِ المُتَفَرّقِ المُتَطايِرِ كما يتطاير الفراش إلى النار.[2] فالناس يتحولون من مرحلة إلى مرحلة كالفراش، ويتغير حالهم من قوة إلى ضعف، ومن ثقل إلى خفة، ومن انتظام إلى اضطراب، ومن عزة إلى ذلة، ومن أمن إلى رعب وفزع، ومن تجمع إلى تفرق وانتشار، فكأن الله – سبحانه وتعالى– شبه الناس يوم القيامة بالفراش المبثوث؛ لخفة الناس وكأنها تطير مثل الفراش،[3] فيموج الناس كالفَراشِ فَزِعِينَ لا يَهْتَدُونَ أيْنَ يَتَوَجَّهُونَ؛ لِأنَّ الفَراشَ لا جِهَةَ لَها تَقْصِدُها،[4] وقيل: إنما شبههم بالفراش؛ لأن الفراش إذا ثار لم يأخذ جهة واحدة، بل يدخل بعضه في بعض، فشبه الناس، إذا بعثوا، وفزعوا، واختلفت مقاصدهم من الحيرة، بالفراش، فإذا سمعوا الدّاعي استقاموا نحوه، فهم في تلك

---

[1] ينظر: النجار، زغلول: **من آيات الإعجاز العلمي الحيوان في القرآن الكريم**. ط:1، دار المعرفة، بيروت، لبنان، 2006م، ص:208–209.

وينظر: النجار: **تفسير الآيات الكونية في القرآن الكريم**. ج:4، ص:561–562.

[2] ينظر: الزمخشري: **تفسير الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل**. ج:4، ص:789.

وينظر: القاسمي، محمد جمال الدين: **تفسير القاسمي محاسن التأويل**. تح: محمد باسل عيون السود. ط:1، دار الكتب العلمية، بيروت، 1418هـ، ج:9، ص:531.

وينظر: الألوسي: **روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني**. ج:15، ص:448.

وينظر: البقاعي: **نظم الدرر في تناسب الآيات والسور**. ج:22، ص:222.

وينظر: خمايسة: **نعت المشبه به في القرآن الكريم في ضوء نظرية السياق**. ص:61.

[3] الصوفي: **الموسوعة الكونية الكبرى**. ج:12، ص:294.

[4] الألوسي: **روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني**. ج:14، ص:80.

الحال مُشبّهون بالجراد التي تقصد إلى ناحية في طيرانها، فهما صفتان للخلق يوم القيامة في موطنيْن: إحداهما عند البعث، والأخرى عند سماع النداء.[1]

**يكشف المعنى المعجمي للفظي (الفراش)، و(المبثوث) عن التناسب الدلالي المعجمي بينهما، فتدل مادة (فرش) على معنى البث، والبسط، والصرع، والتهيؤ، فنقول:** "فَرَشَها اللَّهُ فَرْشاً، أَي: بَثَّها بَثّاً، وفَرَشَ الشَّيْءَ: بسَطَه، ولَقِيَ فُلَانٌ فُلَانًا فافْتَرَشَه إِذا صرَعَه، والفَرْشُ: الفضاءُ الْوَاسِعُ مِنَ الأَرض، وافْتَرَشَ القومُ الطريقَ: سَلَكُوهُ، وَفَرَشَ عَنْهُ: أَرادَه وتهيّأَ لَهُ"[2]، **أما مادة (بثث) فتدل على التفرق والانتشار والاستثارة والكشف والتكثير، وتدل على الحال والحزن، فنقول:** "بَثَّ الشيءَ والخَبَرَ فانْبَثَّ: فَرَّقه فتَفَرَّقَ، ونَشَره، وبَثْبَثَ الترابَ: اسْتَثاره وكَشَفَه عَمَّا تَحْتَه، وأَبْثَثْتُ فُلَانًا سِرِّي، أَي أَطْلَعْتُه عَلَيْهِ وأَظْهَرْته لَهُ، والبَثُّ: الحالُ والحُزْنُ"[3]، "وأصل البث: كثرة التفريق"[4]، فتبين دلالات المادتين صورة الناس الخارجين من الأجداث، وهيئتهم، وكيفية حركتهم، والحالة التي يكونون عليها.

يُظهر السياق العام للآيات العلاقة الدلالية بين المشبه به (الفراش) والنعت (المبثوث) في قوله تعالى: ﴿**الْقَارِعَةُ * مَا الْقَارِعَةُ * وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْقَارِعَةُ * يَوْمَ يَكُونُ النَّاسُ كَالْفَرَاشِ الْمَبْثُوثِ * وَتَكُونُ الْجِبَالُ كَالْعِهْنِ الْمَنْفُوشِ * فَأَمَّا مَنْ ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ * فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَاضِيَةٍ * وَأَمَّا مَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ * فَأُمُّهُ هَاوِيَةٌ * وَمَا أَدْرَاكَ مَا هِيَهْ * نَارٌ حَامِيَةٌ**﴾ (القارعة:1-11)، على النحو الآتي:

1- التحول من حالة إلى حالة: يتحول الناس من حالة سكون إلى حالة ذعر، وتشتت، وانتشار، في قوله تعالى: ﴿**يَوْمَ يَكُونُ النَّاسُ كَالْفَرَاشِ الْمَبْثُوثِ**﴾ (القارعة:4).

---

[1] ينظر: ابن أبي طالب، مكي: **الهداية في بلوغ النهاية**. تح: مجموعة من الباحثين. ط:1، كلية الدراسات العليا والبحث العلمي، جامعة الشارقة، الشارقة، الإمارات العربية المتحدة، 2008م، ج:12، ص:8410-8411.

[2] ابن منظور: **لسان العرب**. مادة: (فرش).

[3] **المصدر السابق**. مادة: (بثث).

[4] العسكري: **الفروق اللغوية**. ص:184.

2- النسق الصوتي: تدل البنية الصوتية للنعت (المبثوث) على جزء من معنى الآية، إذ يتفق معنى الانتشار والتطاير والتفرش مع الخصائص الصوتية لفاصلة الثاء، فهي صوت أسناني، يتم إنتاجه حينما يوضع طرف اللسان بين الأسنان فيخرج الهواء منتشرًا متطايرًا من الأسنان إلى الخارج، فالثاء من حروف النفث التي تماثل الأحداث الطبيعية التي تتضمن البعثرة والتخليط. ويتفق المعنى المعجمي للبث مع الخصائص الصوتية للثاء؛ ففي المعنى المعجمي للتفرق والانتشار تناغم مع تفرق الهواء وانتشاره في أثناء نطق صوت الثاء.

3- التأثير النفسي: ينجم التأثير النفسي من مشهد يوم القيامة حينما يتحول الناس إلى فراش مبثوث فالصورة كلها أهوال مرعبة، من مطلعها إلى خاتمتها، فالقارعة، بجرسها الشديد، وختام السورة بالنار الحامية، يتناسق مع مطلع القارعة المخيف. وتتفاعل صورة الناس، وصورة الجبال، مع الأعمال الموزونة، فالناس بأحجامهم وأثقالهم، كالفراش انتشارًا وخفة، والجبال الراسية الثقيلة، منفوشة كالصوف، فليس في هذا المشهد المرسوم قيمة إلا للأعمال الموزونة، التي تحدّد مصائر البشر، فهي التي تبرز في المشهد، وتركّز عليها أضواء التصوير.[1]

## المشهد الثالث: تصوير سرعة الخارجين من الأجداث يوم القيامة (سورة يسن).

تأتي **ثنائية الثبات والتغير** في سياق خروج الناس عند البعث يوم القيامة في الآية الكريمة في قوله تعالى: ﴿**وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَإِذَا هُم مِّنَ الْأَجْدَاثِ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يَنسِلُونَ**﴾ **(يس:51)**، فيثبت خروج الناس عند البعث من الأجداث، ويكون التغير في مشهد سرعة الخارجين من الأجداث الذي تركز عليه الصورة.

بعد تأمل الآية الكريمة السابقة نلحظ ذكر النفخ في الصور، ونلحظ ذكر لفظة (ينسلون) فيها، خلافًا عن آيتين أخريين، هما: قوله تعالى: ﴿**يَوْمَ يَخْرُجُونَ مِنَ الْأَجْدَاثِ سِرَاعًا كَأَنَّهُمْ إِلَىٰ نُصُبٍ**

[1] ينظر: خمايسة: **نعت المشبه به في القرآن الكريم في ضوء نظرية السياق**. ص:62-64.

**يُوفِضُونَ﴾** (**المعارج**:43)، وقوله تعالى: ﴿**خُشَّعًا أَبْصَارُهُمْ يَخْرُجُونَ مِنَ الْأَجْدَاثِ كَأَنَّهُمْ جَرَادٌ مُنْتَشِرٌ﴾** (**القمر**:7)، أما قوله تعالى: ﴿**وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَإِذَا هُمْ مِنَ الْأَجْدَاثِ إِلَى رَبِّهِمْ يَنْسِلُونَ﴾** (**يس**:51)، فيذكر فيهما لفظة (يخرجون) فلم هذا التغيير؟ ولم ذكرُ النفخِ في الصّور؟

ولمعرفة سبب اختيار (ينسلون) في الآية الكريمة بدلًا من (يخرجون)، ينبغي العودة للمعجم، ويظهر أن "النَّسْل يعني: الخلْق، والْوَلَدُ والذرّية، ونَسَلَ الْمَاشِي، ونَسَلَ فِي العدْوِ: أَسرع، ويَنْسِلُونَ: يَخْرُجُونَ بِسُرْعَةٍ، وأَنْسَلْتُ القومَ إِذا تقدَّمتهم،[1] فيتضح احتواء مادة (نسل) على **معنى الخلق وإعادة الحياة للميت**، فيرتبط مع **سياق الخلق** البارز في السورة، ويفيد السياق اللغوي الكلي في الكشف عن دلالات الصورة، والأدلة كثيرة، منها: قوله: ﴿**إِنَّا نَحْنُ نُحْيِي الْمَوْتَى﴾** (**يس**:12)، وقوله: ﴿**وَمَا لِيَ لَا أَعْبُدُ الَّذِي فَطَرَنِي﴾** (**يس**:22)، وقوله: ﴿**وَآيَةٌ لَهُمُ الْأَرْضُ الْمَيْتَةُ أَحْيَيْنَاهَا﴾** (**يس**:33)، وقوله: ﴿**سُبْحَانَ الَّذِي خَلَقَ الْأَزْوَاجَ كُلَّهَا﴾** (**يس**:36)، وقوله: ﴿**أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا خَلَقْنَا لَهُمْ مِمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَا أَنْعَامًا فَهُمْ لَهَا مَالِكُونَ﴾** (**يس**:71)، وقوله: ﴿**أَوَلَمْ يَرَ الْإِنْسَانُ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِنْ نُطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُبِينٌ﴾** (**يس**:77)، وقوله: ﴿**وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُ قَالَ مَنْ يُحْيِي الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ * قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنْشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ﴾** (**يس**:78–79)، وقوله: ﴿**أَوَلَيْسَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِقَادِرٍ عَلَى أَنْ يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ بَلَى وَهُوَ الْخَلَّاقُ الْعَلِيمُ﴾** (**يس**:81)، فلمّا اختص السياق بقضية الخلق ناسب اختيار مادة (نسل) التي تحتوي على معنى الخلق، ولمّا ذُكرت الذرية في قوله: ﴿**وَآيَةٌ لَهُمْ أَنَّا حَمَلْنَا ذُرِّيَّتَهُمْ فِي الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ﴾** (**يس**:41)، اختار مادة النسل التي تحتوي على معنى الولد والذرية.

وتتجلى الثنائيات الضدية بكثافة في **السياق التتابعي** في الآيات الكريمة، المتناسبة مع ثنائية الثبات والتغير في قوله: ﴿**وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَإِذَا هُمْ مِنَ الْأَجْدَاثِ إِلَى رَبِّهِمْ يَنْسِلُونَ﴾** (**يس**:51)، فنلحظ

[1] ابن منظور: **لسان العرب**. مادة: (نسل).

**ثنائية الليل والنهار** الدورية التتابعية في قوله: ﴿**وَآيَةٌ لَهُمُ اللَّيْلُ نَسْلَخُ مِنْهُ النَّهَارَ فَإِذَا هُمْ مُظْلِمُونَ**﴾ (**يس**:37)، فالسباق مستمر بينهما، فيأتي الليل ويتبعه النهار، فالدورة مستمرة دائمة، ونلحظ **ثنائية الشمس والقمر** الدورية التتابعية، في سياق قوله: ﴿**وَالشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَهَا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ * وَالْقَمَرَ قَدَّرْنَاهُ مَنَازِلَ حَتَّى عَادَ كَالْعُرْجُونِ الْقَدِيمِ**﴾ (**يس**:38-39)، فهما يتسابقان دون أن يدرك أحدهما الآخر، أو أن يصدمه، أو أن يدخل في فلكه، إذ إن لكلٍّ فلكه وخط سباقه وحده، بدليل قوله: ﴿**لَا الشَّمْسُ يَنْبَغِي لَهَا أَنْ تُدْرِكَ الْقَمَرَ وَلَا اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ**﴾ (**يس**:40)، وتظهر **ثنائية الأرض الميتة والحية**، في قوله: ﴿**وَآيَةٌ لَهُمُ الْأَرْضُ الْمَيْتَةُ أَحْيَيْنَاهَا وَأَخْرَجْنَا مِنْهَا حَبًّا فَمِنْهُ يَأْكُلُونَ**﴾ (**يس**:33)، وثنائية **الحمل فوق الماء والغرق**، في قوله: ﴿**وَآيَةٌ لَهُمْ أَنَّا حَمَلْنَا ذُرِّيَّتَهُمْ فِي الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ * وَخَلَقْنَا لَهُمْ مِنْ مِثْلِهِ مَا يَرْكَبُونَ * وَإِنْ نَشَأْ نُغْرِقْهُمْ فَلَا صَرِيخَ لَهُمْ وَلَا هُمْ يُنْقَذُونَ**﴾ (**يس**:41-43)، فليس بعد الحياة إلا الموت، وليس بعد الموت إلا الحياة.

يتضح سبب ذكر النفخ في الصور في سياق قوله: ﴿**وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَإِذَا هُمْ مِنَ الْأَجْدَاثِ إِلَى رَبِّهِمْ يَنْسِلُونَ**﴾ (**يس**:51)؛ لأنه ذكر صيحة الصعق في قوله: ﴿**مَا يَنْظُرُونَ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً تَأْخُذُهُمْ وَهُمْ يَخِصِّمُونَ**﴾ (**يس**:49)، فلما ذكر الموت كان لا بد من ذكر الحياة والبعث بعد الموت؛ ليكتمل مشهد الثنائيات في السورة، فيتناسب مع الثنائيات الموجودة في السورة، كثنائية الشمس والقمر، وثنائية الليل والنهار، وغيرها.

**يتضح المشهد الحركي** في الآيات الكريمة مؤكدًا بقوله تعالى: ﴿**أَحْيَيْنَاهَا وَأَخْرَجْنَا مِنْهَا حَبًّا**﴾ **يس**:33، فلم يكتفِ بإحيائها فقط، وإنما ذكر المرحلة التالية للإحياء، وهي مرحلة إخراج الثمار، فالثمار في سباق للوصول إلى مرحلة النضج، فنفهم من المشهد القرآني تركيزه على وصف سرعة الناس، وليس على لحظة الخروج مثلًا، فالمشهد يبدأ بعد النفخ في الصور، ويصور حركة الخارجين، وتؤيد المعاني

المعجمية لمادة (نسل) دلالة السرعة، فنقول: "يَنْسِلُونَ: يَخْرُجُونَ بِسُرْعَةٍ، والنسل: الإسراع في المشي، وأَنْسَلْتُ القومَ إذا تقدَّمتهم"[1]، فيتضح سبب آخر لاستخدام لفظة (ينسلون) لا (يخرجون)، إذ ليس التركيز على الخروج، وإنما على **السرعة في الخروج**، والتتابع في التقدم. ويؤيد السياق اللغوي فكرة السرعة في الخروج من الأجداث، فمن الآيات الدالة على السرعة في الحدث وليس الحدث نفسه: قوله تعالى: ﴿**إِنْ كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً فَإِذَا هُمْ خَامِدُونَ**﴾ (يس:29)، وقوله: ﴿**مَا يَنْظُرُونَ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً تَأْخُذُهُمْ وَهُمْ يَخِصِّمُونَ**﴾ (يس:49)، وقوله: ﴿**فَلَا يَسْتَطِيعُونَ تَوْصِيَةً وَلَا إِلَى أَهْلِهِمْ يَرْجِعُونَ**﴾ (يس:50)، وقوله: ﴿**إِنْ كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً فَإِذَا هُمْ جَمِيعٌ لَدَيْنَا مُحْضَرُونَ**﴾ (يس:53).

## المشهد الرابع: الصورة النفسية للخارجين من الأجداث يوم القيامة (سورة المعارج).

ترتبط الآية الكريمة ﴿**يَوْمَ يَخْرُجُونَ مِنَ الْأَجْدَاثِ سِرَاعًا كَأَنَّهُمْ إِلَى نُصُبٍ يُوفِضُونَ**﴾ (**المعارج**:43)، بثنائية **الثبات والتغير** في القرآن الكريم، إذ تكرر الخروج من الأجداث، فجاء ثابتًا في الآية الكريمة، وجاء التغير في الصورة النفسية للخارجين من الأجداث.

تصور الآية الكريمة الحال النفسية للخارجين من الأجداث، وتركز على الهدف من الخروج، فتشبّه الخارجين من الأجداث بمن يسرع إلى النُّصب والأوثان التي كانوا يعبدونها، فتكون هدفهم وأملهم المرجو، والملجأ الوحيد، الذي اعتادوا عليه، وقت الحاجة. وسواء فسرت النصب بالأصنام أو الأعلام أو غيرها، **فهي تدل على الهدف والغاية**، "فالنَّصِيبةُ والنُّصُبُ: كلُّ مَا نُصِبَ فجُعِلَ عَلَمًا، والنَّصِيبة: عَلَامَةٌ تُنْصَبُ لِلْقَوْمِ، والنَّصْبُ والنُّصُبُ: العَلَم المَنْصُوب، والنَّصْبُ: الْغَايَةُ"[2]، **ونجد أن مادة نصب تدل على معنى الإعياء، والبلاء، والتعب**، "فالنَّصَب: الإعْياءُ مِنَ العَناءِ، ونَصَب، أي: أَعْيا وتَعِبَ،

---

[1] ابن منظور: **لسان العرب**. مادة: (نسل).

[2] **المصدر السابق**. مادة: (نصب).

والنُّصُبُ، تعني: الداءُ، والبَلاءُ، والشرّ، والنَّصِبُ: المريضُ الوَجِعُ"[1]، فترسم لنا الدلالات السابقة الموقف النفسي الذي يعيشونه، إذ ينتابهم التعب والمرض والإعياء الشديد؛ نتيجة شعورهم بالخوف والرعب والفزع الذي أصابهم عند بعثهم من أجداثهم، وإخراجهم من سباتهم العميق، وأنهكوا في البحث عن آلهتهم وأوثانهم لتدفع عنهم مصابهم، إلا أنهم وصلوا حد الإعياء واليأس؛ لعدم مقدرتهم على إيجادهم. فالمجرمون الذين لم يجهزوا أنفسهم لهذا اليوم، كانت خاتمتهم، بعد طريقهم العسرة، أن وصلوا حد الإعياء من التعب، بل إن وصولهم المتأخر يشبه وصولهم إلى البلاء والمرض، فكأنهم عندما يعرفون نتيجتهم، سيوقنون مدى البلاء الذي سيصيبهم، فتكون حالهم كحال المريض المتألم، أو إنهم بعد عنائهم في بحثهم سيصلون منهكين، متعبين، متألمين، كحال المريض الهزل الذي أنهكه المرض وآلمه.

**وتلتقي ثنائية الثبات والتغير بمشهد الخروج من الأجداث مع العلاقة الضدية بين مادتي (نصب) و(نسل)، فتفيد تحول المشهد من الحركة إلى الوقوف، إذ تدل مادة (نصب) على الرفع والخفض، و الوقوف، أو السير اللين،** "فالنَّصْبُ: وَضْعُ الشيءِ ورَفْعُه، والنَّصْبُ: أَن يسيرَ القومُ يَوْمَهُم، وَهُوَ سَيْرٌ لَيِّنٌ، والنَّصْبُ: إِقامةُ الشيءِ ورَفْعُه، ولَا يَكُونُ النَّصْبُ إِلا بِالْقِيَامِ، ويقال: نُصْبُ عَيْني فِي الشيءِ الْقَائِمِ، أي: الشيءَ الظاهرَ"[2]، **أما مادة (نسل) فتدل على الإسراع في المشي وتدل على السقوط،** "فالنسل: الإسراع فِي الْمَشْيِ، ونَسَلَ الثوبُ عَنِ الرَّجُلِ: سقَط"[3]. فالناجي ترتفع قيمته ويعلو شأنه، ويجازى خيرًا، أما المجرم الهالك، فتنخفض قيمته، ويخزى، ويقف ذليلًا.

وتدل مادة (نصب) على معنى **الجزاء والحظ والقسمة،** المتشابه مع حال الخارجين من الأجداث، الذين سينالون جزاءهم، إما جنة أو نارًا، "فالنَّصِيبُ: الحَظُّ مِنْ كلِّ شيءٍ، ويَتَناصَبُونَ، أَي:

---

[1] ابن منظور: **لسان العرب**. مادة: (نصب).

[2] **المصدر السابق**. مادة: (نصب).

[3] **المصدر السابق**. مادة: (نسل).

يَقْتَسمون"[1]، أي إن النَّصِيب: مَا أَخْبَرَ اللهُ به مِنْ جَزاء المؤمنين والكافرين، فكأنهم يتقاسمون نصابهم، وكل يأخذ حقه ونصيبه وجزاءه.

**تأتي دلالة مادة (وفض) مؤكدةً فكرة الوصول** في الآية الكريمة: ﴿**يَوْمَ يَخْرُجُونَ مِنَ الْأَجْدَاثِ سِرَاعًا كَأَنَّهُمْ إِلَىٰ نُصُبٍ يُوفِضُونَ**﴾ **(المعارج:43)**، "فالمُسْتَوْفِضُ: هو النافِزُ مِنَ الذُّعْرِ"[2]، ونقول: يُوفِضُونَ، "إذا أسْرَعَ وعَدا في سَيْرِهِ"[3]، فخروج الناس من الأجداث، كان نتيجة صيحة البعث، التي أقامتهم أحياءً، ولا يخفى الرعب المنبعث منها، وتتشابه صورة إسراعهم للوصول إلى أهدافهم وغاياتهم ونصبهم، مع صورة الكافرين المهطعين طمعًا في الوصول إلى جنة نعيم، في قوله: ﴿**فَمَالِ الَّذِينَ كَفَرُوا قِبَلَكَ مُهْطِعِينَ * عَنِ الْيَمِينِ وَعَنِ الشِّمَالِ عِزِينَ * أَيَطْمَعُ كُلُّ امْرِئٍ مِنْهُمْ أَنْ يُدْخَلَ جَنَّةَ نَعِيمٍ**﴾ **(المعارج:36-38)**، وتدل المادة المعجمية لـ (وفض) على شكل الوصول، إذ يكون على شكل أفواج أو جماعات، "فالأَوْفاضُ: هُمُ الفِرَقُ مِنَ النَّاسِ والأَخْلاط"[4]، ويؤكد ذلك قوله تعالى: ﴿**يَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ فَتَأْتُونَ أَفْوَاجًا**﴾ **(النبأ:18)**، فيظهر أن مادة (وفض) لا تعني الوصول بسرعة فقط، وإنما **أزعم** أنها تعني سرعةً مصحوبةً بشكلٍ معين، ويتناسب ذلك مع ما تدل عليه لفظة (عزين) في قوله: ﴿**عَنِ الْيَمِينِ وَعَنِ الشِّمَالِ عِزِينَ**﴾ **(المعارج:37)**، فهي تعني: "حِلَقًا حِلَقًا وجَماعةً جَمَاعَةً، وهي جَمْع عِزَةٍ، والعِزَةُ عُصْبَة مِنَ النَّاسِ فَوْقَ الحَلْقَة، أو هِيَ الحَلْقَة المُجْتَمِعَة مِنَ النَّاسِ كأَنَّ كلَّ جماعةٍ اعْتِزَاؤها أَي انْتِسابُها واحِدٌ"[5]، فكل سيصل مع عزوته وجماعته التي يتناسب حاله مع حالها. **وتلتقي مادة (وفض) مع دلالة**

---

[1] ابن منظور: **لسان العرب**. مادة: (نصب).

[2] **المصدر السابق**. مادة: (وفض).

[3] ابن عاشور: **التحرير والتنوير**. ج:29، ص:183.

[4] ابن منظور: **لسان العرب**. مادة: (وفض).

[5] **المصدر السابق**. مادة: (عزا).

**مادة (نسل) في معنى السرعة،** "فأَوْفَضَ واسْتَوْفَضَ: أَسرَع، والوَفْضُ: العجَلة"[1]، "ويُوفِضُونَ أيْ يُسْرِعُونَ، واسْتُعْمِلَ الإيفاضِ في الإسْراعِ، وقِيلَ هو مُطْلَقُ الِانْطِلاقِ"[2].

ونلحظ في السورة الكريمة، ما يؤكد فكرة النهايات والحدود، في قوله: ﴿**فَذَرْهُمْ يَخُوضُوا وَيَلْعَبُوا حَتَّىٰ يُلَاقُوا يَوْمَهُمُ الَّذِي يُوعَدُونَ**﴾ (**المعارج**:42)، فخوضهم ولعبهم محدود، ونهايته أن يلاقوا يومهم الموعود، وقوله في الآية الكريمة: ﴿**يَوْمَ يَخْرُجُونَ مِنَ الْأَجْدَاثِ سِرَاعًا كَأَنَّهُمْ إِلَىٰ نُصُبٍ يُوفِضُونَ**﴾ (**المعارج**:43)، التي وضحت نهاية مشهد الخروج من الأجداث، إذ لا بد لخروجهم من نهاية، فنهاية خروجهم هي وصولهم إلى النصب، ولقاء مصيرهم المحتوم، وتبرز دلالة نهاية القدرة الإنسانية على الفداء، إذ مهما كان ملكه وقدرته، فإنها ستظل محدودة أمام العظمة الإلهية، ففي قوله: ﴿**يُبَصَّرُونَهُمْ يَوَدُّ الْمُجْرِمُ لَوْ يَفْتَدِي مِنْ عَذَابِ يَوْمِئِذٍ بِبَنِيهِ * وَصَاحِبَتِهِ وَأَخِيهِ * وَفَصِيلَتِهِ الَّتِي تُؤْوِيهِ * وَمَنْ فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ يُنْجِيهِ**﴾ (**المعارج**:11-14)، ما يدل على محاولة الإنسان الوصول إلى مطلق الأشياء، وفي الوقت ذاته، يبرز ضعفه ومحدودية إمكاناته، وظهر في السورة الكريمة حال المؤمنين، إذ ستكون نهاية أعمالهم الجنة بما عملوا في الحياة الدنيا، ثم سيرون مطلق الكرم الإلهي معهم فيها.

ويختم مشهد الخروج من الأجداث، بصورة ذليلة لكل الكافرين والمجرمين، ولكل من خاض ولعب وسخر من آيات الله ومن رسولنا الكريم ﷺ فتكون أبصارهم خاشعة، ذليلة، "وخُشُوعُ الأبْصارِ اسْتِعارَةٌ لِلنَّظَرِ إلى أسْفَلَ مِنَ الذُّلِّ، وأصْلُ الخُشُوعِ: ظُهُورُ الطّاعَةِ أوِ المَخافَةِ عَلى الإنْسانِ، والرَّهَقُ: الغَشَيانُ، أيْ: التَّغْطِيَةُ بِساتِرٍ، وهو اسْتِعارَةٌ هُنا؛ لِأنَّ الذِّلَّةَ لا تَغْشى"[3]، فيدل خشوع أبصارهم، ونظرهم إلى أسفل، على الذل، والخذلان، والندم، فهم غير قادرين على رفعها، فتدل على نهاية أمرهم.

---

[1] ابن منظور: **لسان العرب**. مادة: (وفض).

[2] ينظر: الألوسي: **روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني**. ج:15، ص:74.

[3] ابن عاشور: **التحرير والتنوير**. ج:29، ص:184.

وبناءً على ما تقدم، وموعظةً لكل من يقرأ، إن القرآن الكريم لم يدع أي حجة أو برهان لأي إنسان، فكل منا يعلم حاله وجزاءه يوم القيامة بتأمل المشاهد والصور القرآنية، وتدبرها، بحثًا عن الأجر، والثواب، والحسنات، ودعوة لكل أصحاب القرار، وللظالمين والمجرمين وآكلي الحقوق، لأصحاب الكراسي والمسؤولين، لكل من ظن أنه ملك الأرض بمن فيها، لمجرد جلوسه على كرسي وإصدار قرارات، فلتتدبروا مشهد البعث والخروج من الأجداث، ولنرى كيف سيكون حالنا؟ وأين نحن من هذا المشهد؟ وإلى أين سنصل؟ وهل ستكون أبصارنا خاشعة ترهقها ذلة؟ وهل ستحاولون الافتداء بأتباعكم وعبيدكم؟ هل ستفتدون بمن حكمتموهم؟ وهل فداؤكم بمن في الأرض جميعًا سينجيكم؟! أم سيكون الرد الحاسم بـ: "كلا"؟!!! فلنعد حساباتنا، ولنراجع أنفسنا، قبل أن يأتي هذا اليوم الذي وعدنا به.

## المبحث الثالث: مشاهد تصويرية في الجنة.

### المطلب الأول: مشهد ثواب أهل الجنة.

### المطلب الثاني: المشهد التأملي الجمالي للجنة والراحة الجسدية والنفسية لأصحابها.

## المبحث الثالث: مشاهد تصويرية في الجنة.

### المطلب الأول: مشهد ثواب أهل الجنة.

تتجلى ثنائية الثبات والتغير في مشاهد تصوير الجنة، في قوله تعالى: ﴿**والَّذِينَ آمَنُوا وعَمِلُوا الصّالِحاتِ لَنُبَوِّئَنَّهم مِنَ الجَنَّةِ غُرَفًا تَجرِي مِن تَحتِها الأنهارُ خالِدِينَ فِيها نِعمَ أجرُ العامِلِينَ**﴾ **العنكبوت:58**، وقوله: ﴿**والَّذِينَ آمَنُوا وعَمِلُوا الصّالِحاتِ فِي رَوضاتِ الجَنّاتِ لَهم ما يَشاءُونَ عِندَ رَبِّهِمْ ذَلِكَ هو الفَضْلُ الكَبِيرُ**﴾ (الشورى:22)، فيكون ثواب المؤمنين ثابتًا بين الآيتين، بينما تتغير صفات الثواب في الجنة.

تضمنت الآيتان الكريمتان **مدحًا وثناءً للمؤمنين** الذين يعملون الصالحات، فيخبرهم الله – تعالى– بما يتمنونه وينتظرونه من الله، ولكن ليس القصد الإخبار، وإنما لمعنى مستلزم آخر، ومقصد حقيقي هو المدح والثناء، فتحول الفعل الكلامي من كونه متضمنًا معنى الإخباريات إلى اندراجه ضمن التعبيريات، فالمعنى الحرفي الصريح هو إخبار عن مكانة المؤمنين وجزاؤهم في الجنة. أما **المعنى المستلزم الحواري** فهو المدح والثناء لأهل الجنة، والترغيب للناس ليعملوا الصالحات فينالوا الجنة في الآخرة.[1]

عند تأمل الآية الكريمة: ﴿**والَّذِينَ آمَنُوا وعَمِلُوا الصّالِحاتِ لَنُبَوِّئَنَّهم مِنَ الجَنَّةِ غُرَفًا تَجرِي مِن تَحتِها الأنهارُ خالِدِينَ فِيها نِعمَ أجرُ العامِلِينَ**﴾ **(العنكبوت:58)**، نلحظ انفرادها عن الآية الأخرى، بلفظة (لنبوئنهم)، ويشد الانتباه اتصال الفعل (نبوئ) بلام القسم، ونون التوكيد، أي إن المراد من هذه الكلمة ليس التأكيد فقط، وإنما الزيادة في التأكيد، فلم هذه الزيادة؟ وما دلالة الفعل (نبوئ) في الآية الكريمة؟

[1] ينظر: قاسم، أمجد عابد، والفقي، صبحي إبراهيم: **الاستلزام الحواري في آيات الجنة والنار في القرآن الكريم**. المجلة العلمية بكلية الآداب، جامعة طنطا، كلية الآداب، ع:44، 2021م، ص:4.

**تدل مادة (بوأ) على معنى الإنزال والإسكان والتمليك والتوزيع العادل،** "فالبَواء: اللزومُ، والبَواء: التَّكافُؤ، ويُقَالُ: الْقَوْمُ بُواءٌ: أَي سَواءٌ، وقُسِمَ الْمَالُ بَيْنَهُمْ عَلَى بَواءٍ: أَي عَلَى سواءٍ، وَيُقَالُ: هُمْ بَواءٌ فِي هَذَا الأَمر: أَي أَكْفاءٌ نُظَراء، وأَبَأْتُ بالمَكان: أَقَمْتُ بِهِ، وبَوَّأْتُكَ بَيتًا: اتَّخَذْتُ لَكَ بَيْتًا، وبَوَّأَه إِيَّاهُ وبَوَّأَه له وبَوَّأَهُ فِيهِ، بِمَعْنَى هَيَّأَه لَهُ وأَنْزَلَه ومَكَّنَ لَهُ فِيهِ"[1]، تدل المعاني المعجمية على أن الجنة تقسم بالعدل بين أصحابها، وتهيأ لهم، ثم يُمَكّن كل منهم من حصته، أو قسمه، أو مكانه الذي سيخلد فيه، أو غرفته التي ستكون منزلًا وبيتًا وسكنًا له.

وأزعم أن ذكر الموت في الآية السابقة لها في قوله: ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ ثُمَّ إِلَيْنَا تُرْجَعُونَ﴾ (العنكبوت:57)، يُراد منه اطمئنان قلوب المؤمنين، وتهدئة نفوسهم وتسكينها، فاختار ما يدل على السكن والراحة، فاختار لفظة (لنبوئنّ)، وزاد في تأكيدها، ثم اختار لفظة (غرفًا)؛ لاحتوائها على معنى السكن، ولدلالتها على المكان المرتفع، الدال على الراحة والهدوء والانسجام.

**يظهر التحول بين الآيتين الكريمتين في اختلاف التعبير عن الجنة، ففي آية تكون (غرفًا) وفي أخرى (روضات).**

يبين الله –عز وجل– ما للمؤمنين العاملين من غرف في الجنات، فالذين صدقوا الله –جل في علاه– وصدقوا الرسول ﷺ وعملوا بما أمرهم به الشارع الحكيم، فأطاعوه وانتهوا عما نهاهم عنه، يسكنهم الله –تعالى– الغرف العالية من الجنة، يمكثون فيها إلى غير نهاية،[2] ومن صفاتها أن الأنهار تجري من تحتها، ويستمتع أهلها بالنظر إلى الأنهار من شرفات الغرف العالية الرفيعة البناء، المختلفة فيما

---

[1] ابن منظور: **لسان العرب**. مادة: (بوأ).

[2] السلفي، عبد الحليم بن محمد: **صفة الجنة في القرآن الكريم (دراسة وتحليل)**. ط:1، دار العلوم والحِكم، دمشق، سوريا، 2005م، ص:161–162.

بينها من حيث العلو والرفعة بحسب تفاوت أعمال أصحابها، وسميت الجنة غرفةً؛ لارتفاعها.[1]، "فالغرفة ما كانت مبنية مرتفعة عن الأرض حتى إنه لتجري من تحتها الأنهار"[2]، **وتلتقي مادة (غرف) مع متعلقات الماء والجنة**، فنقول: "غَرَفَ الماءَ واغْتَرَفَ مِنْهُ، والغَرْف غَرْفُك الْمَاءَ بِالْيَدِ، وَنَهْرٌ غَرَّافٌ: كَثِيرُ الْمَاءِ. وَغَيْثٌ غَرَّاف: غَزِيرٌ، والغُرْفَة: السَّمَاءُ السَّابِعَةُ، والغَرِيف: الجماعةُ مِنَ الشَّجَرِ المُلْتفّ مِنْ أَي شَجَرٍ كَانَ"[3]، فالنهر والغيث يتعلقان بالماء، والسماء والشجر تتعلقان بالجنة، والغرفة مأخوذة من غرفَ الشيء، أي: رفعه، واستخدم القرآن الكريم لفظة (الغرفة)؛ **لدلالتها على المكان، أي لوصف مساكن الجنة، وإشارة إلى السعة، والارتفاع، والعزة، والأمن.**[4]

وذكرت **تأويلات عدة لمعنى الغرفة**، منها أن الغرفة من أسماء الجنة، وقيل: السماء السابعة، وقيل: أعلى منازل الجنة، وقيل: العلو في الدرجات. ولعل أرجح الوجوه أن الغرفة: درجة عالية في الجنة، بناءً على اشتقاقها في اللغة، فالغرفة في كلام العرب تعني: العُلِّيَّة، فهي درجة عالية في الجنة، ثم شاع استعمالها بمعنى الجنة نفسها من باب تعميم الدلالة، وفيها إشارة إلى رفعتها وعلو مقام أهلها.[5]

يرى الباحث أن **مادة (غرف) تتناسب مع مشهد الثواب والتمليك والسكن** لأصحاب الجنة، فغرف الشيء يوحي بامتلاكه والاستحواذ عليه، فأعتقد بذلك أن مادة (غرف) هي الأنسب في هذا المقام، وكلمة (غرفة) تدل على المكان المرتفع، أو العلية، فتتوافق مع القيمة العليا التي يحصل عليها أصحاب الجنة في أثناء دخولهم الجنة، وعند تقسيم الجنة إلى أماكن مخصصة لأصحابها، فكأن كلًّا منهم غرف

---

[1] ينظر: رطروط، سليمان حسن: **الجنة في القرآن الكريم: أوصافها، أهلها، نعيمها**. ط:1، مكتبة المنار، الزرقاء، الأردن، 1989م، ص:56-58.

[2] زيدان: **الفروق اللغوية في القرآن الكريم**. ص:461.

[3] ابن منظور: **لسان العرب**. مادة: (غرف).

[4] ينظر: داود: **معجم الفروق الدلالية في القرآن الكريم لبيان الملامح الفارقة بين الألفاظ متقاربة المعنى، والصيغ والأساليب المتشابهة**. ص:197.

[5] **المرجع السابق**. ص:399-400.

غرفة بيده من الجنة، أو تملك مكانًا من الجنة، أو يسكن بيتًا خاصًّا به، فيصل إلى حالة السكون والهدوء النفسي، فلأن المشهد مشهد رفع وتمليك وتسكين وتقسيم ناسب أن يذكر لفظة (غرفة) في هذا السياق.

ولعل في الإشارة إلى (الغرف) في هذا السياق **دلالة نفسية** تؤثر في المتلقي، ففي صورة الغرف دلالة للأمان والطمأنينة، أكثر من دلالتها على الثراء والغنى والسكن في القصور، فالسكن في الغرف يعني حصول الإنسان على الشعور بالهدوء والحماية من العواصف والأخطار وعوادي الدهر التي اعتاد عليها في الحياة. ولعل هذا التنوع في النعم باختلاف أنواع المساكن وأشكالها وحجومها جاء لتلبية رغبات الناس، كل حسبما يتوق إليه ويرغب بالحصول عليه، فقصد النص المقدس تلبية رغبات البشر جميعهم على اختلاف مشاربهم، ورغباتهم، وأحوالهم، وما ذلك إلا لأنه كتاب أنزله الله للناس جميعًا، رحمة للعالمين، بل إن لكل إنسان لحظاته التي يحلم فيها بالكوخ وأخرى يحلم فيها بالقصر، فتارة نحب أن نهبط قريبًا من الأرض، وتارة نحب أن نسيطر على الأفق بكامله.[1]

**أما اختيار لفظة (روضات) في قوله تعالى: ﴿والَّذِينَ آمَنُوا وعَمِلُوا الصّالِحاتِ فِي رَوْضاتِ الجَنّاتِ لَهم ما يَشاءُونَ عِنْدَ رَبِّهِمْ ذَلِكَ هو الفَضْلُ الكَبِيرُ﴾** (الشورى:22)؛ فلدلالة **مادة (روض) على الحسن والاخضرار الكثير والاتساع،** "فالرَّوْضةُ: الأَرض ذَاتُ الخُضْرةِ، والرَّوْضةُ: البُسْتانُ الحَسَنُ، والرَّوْضةُ: الموضِع يَجْتَمِعُ إليه الْمَاءُ يَكْثُر نَبْتُه، وَلَا يُقَالُ فِي مَوْضِعِ الشَّجَرِ رَوْضَةٌ، وَقِيلَ: الرَّوْضَةُ عُشْب وَمَاءٌ وَلَا تَكُونُ رَوْضةً إلا بِمَاءٍ مَعَهَا أَو إلى جَنْبِهَا، وأَرْوَضَتِ الأَرضُ وأَراضَتْ: أُلبِسَها النباتُ، وكأَنّ الرَّوْضَةَ سُمِّيَتْ رَوْضَةً لاسْتِراضةِ الْمَاءِ فِيهَا، واسْتَراضَ المكانُ: فَسُحَ واتَّسَعَ"[2]، والروضة: كل أرض ذات نبات

---

[1] ينظر: السلامي، عمار عبد الأمير: **دلالة المكان في صور الجنة والنار في القرآن الكريم**. مجلة كلية التربية للبنات للعلوم الإنسانية، جامعة الكوفة، كلية التربية للبنات، مج:10، ع:19، 2016م، ص:222-224.

[2] ابن منظور: **لسان العرب**. مادة: (روض).

وماء وأزهار، وهي تشير إلى ما في دار الثواب من حسن وجمال وبهجة ظاهرة.[1] والروضات جمع روضة، وهي أطيب البقاع وأشرفها وأنزهها، وإضافة الروضات للجنات؛ تدل على تميزها بالتشريف والطيب.[2] "والرَّوْضَةُ: الْمَوْضِعُ النَّزِهُ الْكَثِيرُ الْخُضْرَةِ"[3]، فيفهم المتلقي من إجمال القول بلفظة (روضات) صفات متنوعة للجنة، فهي جنة حسنة المنظر، ذات مساحات واسعة غير محدودة، تمتلئ بالماء والأشجار المخضرة الكثيفة.

**يبرز ملمح الإفراد والجمع في الآيتين الكريمتين**، فيقترب من ثنائية الثبات والتغير، إذ يتحول ذكر الجنة فيهما من مفرد (الجنة) في آية ﴿**لَنُبَوِّئَنَّهُم مِنَ الْجَنَّةِ**﴾، إلى جمع (الجنات) في آية أخرى ﴿**فِي رَوْضَاتِ الْجَنَّاتِ**﴾، فحينما يستخدم لفظ (الجنة) مفردًا فهو يطلق على اسم دار الثواب كلها، أما الجمع فيستخدم؛ لاشتمال دار الثواب الأخروية على جنان كثيرة مرتبة حسب استحقاقات العاملين، فلكل طبقة منهم جنات من تلك الجنان. والسر في تسمية الجنة بهذا الاسم؛ أن أجمل البساتين وأكرمها منظرًا ما كانت أشجاره مظللة متكاثفة الظلال، وهذا يجري على ما أودعه الله في النفوس من حب المناظر الجميلة، وفي الشجر الملتف المتكاثف جمال الشكل واللون، وفيه أنسٌ للنفوس لما فيه من حياة وبهجة، وهو وسيلة من وسائل التنعم والترفه عند الناس.[4]

تختلف الآيتان في التركيب في قوله: ﴿**تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ**﴾ في آية، وقوله: ﴿**لَهُم مَّا يَشَاءُونَ عِندَ رَبِّهِمْ**﴾ في الأخرى، فنجده يصف موقع مكان سكن المؤمنين بدقة، فيستخدم الغرف لدلالتها على المكان المرتفع، إي إنه يصف الجنة بشيء من التفصيل، فيقتضي ذلك تحديد موقع الأنهار فيها، فناسب استخدام تركيب ﴿**تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ**﴾ في الآية الكريمة، فكأنه يرسم ثنائية العلو والخفض، أو ثنائية

---

[1] داود: **معجم الفروق الدلالية في القرآن الكريم لبيان الملامح الفارقة بين الألفاظ متقاربة المعنى، والصيغ والأساليب المتشابهة**. ص:397.

[2] الفيفي، عيسى: **صفة الجنة مختصر من كتاب صفة الجنة في القرآن الكريم (دراسة وتحليل)**. (د.ط)، (د.د)، (د.م)، (د.ت)، ص:26.

[3] القرطبي: **الجامع لأحكام القرآن والمبين لما تضمنه من السنة وآي الفرقان**. ج:16، ص:20.

[4] داود: **معجم الفروق الدلالية في القرآن الكريم لبيان الملامح الفارقة بين الألفاظ متقاربة المعنى، والصيغ والأساليب المتشابهة**. ص:392.

المكان المرتفع والمكان المنخفض. بينما نجده في سياق الروضات يجمل الحديث، ويعمم النعم، فكل ما يشاؤون ويرغبون ويشتهون يجدونه حاضرًا لديهم، ولم يحدد شيئًا؛ لأن السياق يفيد التعميم والإجمال، ولعله لم يذكر الأنهار؛ لاحتواء الروضات عليها، فالروضات يتضح فيها العنصر المائي.

## المطلب الثاني: المشهد التأملي الجمالي للجنة والراحة الجسدية والنفسية لأصحابها.

تتجلى ثنائية الثبات والتغير في الآيتين الكريمتين: ﴿**مَّثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ أُكُلُهَا دَائِمٌ وَظِلُّهَا**﴾ **(الرعد:35)**، وقوله تعالى: ﴿**مَّثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ فِيهَا أَنْهَارٌ مِّن مَّاءٍ غَيْرِ آسِنٍ وَأَنْهَارٌ مِّن لَّبَنٍ لَّمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُ وَأَنْهَارٌ مِّنْ خَمْرٍ لَّذَّةٍ لِّلشَّارِبِينَ وَأَنْهَارٌ مِّنْ عَسَلٍ مُّصَفًّى وَلَهُمْ فِيهَا مِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ وَمَغْفِرَةٌ مِّن رَّبِّهِمْ**﴾ **(محمد:15)**، ويتضح أن الجنة وقعت ثابتة فيهما، وأن المتغير تركز في صفات الجنة وأحوالها، فمرة كان مشهدًا إجماليًّا، ومرة تفصيليًّا.

بعد أن يتملك أصحاب الجنة، ويسكنون أماكنهم المخصصة لهم، يبدأ كل منهم بتأمل الجنة ونعيمها، وأنهارها وثمارها وظلالها، وكل ما فيها من نعم وزينة، وقد يتساءلون عن ديمومة هذا الجمال، وتلك النعم، وتثبيتًا لهم، وإزالةً لخوفهم وشكهم، يأتي قوله تعالى: ﴿**مَّثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ أُكُلُهَا دَائِمٌ وَظِلُّهَا**﴾ **(الرعد:35)**، فيصف الجنة بمشهد تأملي جمالي، يريح السامع بصريًّا، ونفسيًّا، وجسديًّا. وذَكَرَ سُبْحانَهُ وتعالى في الآية الكريمة ما أعَدَّهُ لِلْمُؤْمِنِينَ، فصفة الجنة العَجِيبَةُ الشَّأْنِ الَّتِي هي في الغَرابَةِ كالمَثَلِ، فَأرادَ بِمَثَلِ الجَنَّةِ صُورَتَها وصِفَتَها، ثُمَّ ذَكَرَها، فَقال: ﴿**تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ**﴾ ومَعْناهُ: مَثَلُها جَنَّةٌ تَجْرِي مِن تَحْتِها الأنْهارُ،[1] فصفة الجنة التي وعد الله بها الذين يخشونه، أنها تجري من تحت أشجارها وقصورها الأنهار،[2] ونلحظ أن الجنة في الآية الكريمة وصفت بتركيب:

---

[1] ينظر: الشوكاني: **فتح القدير (الجامع بين فني الرواية والدراية من علم التفسير)**. ج:3، ص:102.

[2] ينظر: عباس، وجدان صالح: **دلالة الفصل والوصل في آيات طعام أصحاب الجنة والنار وشرابهم.** مجلة اللغة العربية وآدابها، جامعة الكوفة، كلية الآداب، ع:17، 2013م، ص:505.

﴿**تجرى من تحتها الأنهار**﴾، ويكشف التأمل في البنى المعجمية لمفردات التركيب عن علائق دلالية تتناغم مع صورة الجنة، إذ إنّ ثمة تناغمًا دلاليًّا بين الفعل (تجري) وحال الجنة، وتجاذبًا دلاليًّا بين الجذر اللغوي (جرى) والجذر اللغوي (نهر)، وتوافقًا معجميًّا بين الظرف (تحتها) والأنهار.

أسند الفعل (تجري) إلى الأنهار في سياق الجنة، في الآية الكريمة، وتكشف معاني مادة (جرى) عن علائق دلالية بين دلالات (جرى) ونعم الجنة، وهي دلالات مجملة ومفصلة؛ فالدلالة المجملة أنَّ الجارية هي النعمة من الله على عباده، والدلالات المفصلة ثمار الجنة، والحور، والطمأنينة، والسكينة من الدلالات التي تفيدها مادة (جرى)، وهي دلالات تتناسب مع حال الجنة. ففي ثمار الجنة، الجِروة تعني: الثمرة أَوَّلَ ما تَنْبُت غَضَّةً. وفي حور الجنة، الجارِيَةُ تعني: الفَتِيَّة من النساء. وفي جزاء الصابرين واطمئنان النفس، نقول: أَلقى فلان جِرْوته إذا صَبَر على الأمر، وضربت عن ذلك الأَمر جِرْوَتي، أَي: اطْمأَنَّت نفسي. ويربط السياق بين الدلالة الجزئية لـ (الجريان) بالدلالة الكلية لـ (سياق الجنة) ودور الجزء في الكشف عن الكل، وتتفق بعض دلالات مادة (جرى) مع معاني مادة نهر (الأنهار) في بعض صفات الجنة، فتدل مادتا (جرى ونهر) على ثمار الجنة، فالنَّاهِرُ والنَّهِرُ: العِنَبُ الأَبْيضُ، وهو من ثمار الجنة. وتدلان أيضًا على الحركة والسرعة والجريان. وتفيد البنية المعجمية أن الجري هو المر السريع، وأصله لمر الماء وما يجري جريه، واستَنْهَرَ النَّهرُ إذا أَخذَ لِمَجراهُ مَوضِعًا مَكينًا، وكلُّ كثير جَرَى فقد نَهَرَ واستنْهَرَ. **وتتناسب دلالة مادتي (جرى ونهر) مع متعلقات الجنة**، فالنَّهار فَرْخُ القَطا والجمع أَنْهِرَةٌ وقيل: هو ولد الكَرَوانِ، وقيل: هو ذكر الحُبَارَى، ولا يخفى أن الطيور من متعلقات الجنة، وتوحي مادة نهر بالمشهد البصري للجنة، فالنَّهَرُ: السَّعَةُ والضِّياءُ، فالجَنَّة ليس فيها ليلٌ وإنَّما نورٌ يتلألأُ. **ويتناسب الظرف (تحتها) دلاليًّا مع الأنهار، إذ** جاءت شبه الجملة الظرفية (من تحتها) في المواضع التي صورت جريان

الأنهار في الجنة، ولم يقل سبحانه (من أسفلها)؛ لأن مادة (سفل) لا تنسجم مع أحوال الجنة وصفات أهلها.[1]

وتغير التركيب في وصف الجنة في قوله: ﴿**مَثَلُ الجَنَّةِ الَّتِي وُعِدَ المُتَّقُونَ فِيها أنهارٌ مِن ماءٍ غَيرِ آسِنٍ وأنهارٌ مِن لَبَنٍ لَمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُ وأنهارٌ مِن خَمْرٍ لَذَّةٍ لِلشّارِبِينَ وأنهارٌ مِن عَسَلٍ مُصَفًّى ولَهم فِيها مِن كُلِّ الثَّمَراتِ ومَغْفِرَةٌ مِن رَبِّهِمْ**﴾ **(محمد:15)**، فوصفت بأن ﴿**فيها أنهار**﴾، فنلحظ اختلاف التركيب من **(من تحتها)** إلى **(فيها)**، وهي دلالة مكانية داخلية، لا مكانية خارجية، فهو لا يريد أن يصف المكان من الخارج، وإنما يظهر أن الوصف سيكون لما يوجد داخل الجنة، ونلمح الاختلاف بالتعريف والتنكير في التركيبين، فالأنهار في الآية الكريمة جاءت نكرة (أنهار)، لا معرفة كسابقتها (الأنهار)، وهو ما يؤدي إلى معنى الإجمال والتفصيل، ففي قوله: ﴿**تجرى من تحتها الأنهار**﴾ عمم الدلالة، فكان الوصف عامًّا سريعًا، فهو من الخارج، ولم تتضح ماهية تلك الأنهار ولا أنواعها، إذ أجمل ذكر أنواعها وتفصيلها، بينما في قوله: ﴿**فيها أنهار**﴾ فهو يخصص الدلالة، ويحددها، ويبدأ بالتفصيل والتوضيح، فهي غير معروفة للمتلقي، فيبدأ ببيان أنواعها، فنفهم بذلك التحول من الإجمال إلى التفصيل، ومن الخارج إلى الداخل، ومن التعريف إلى التنكير، فتربط مع ثنائية الثبات والتغير بين الآيتين.

**يبرز التحول بين الآيتين الكريمتين في اختلاف التعبير عن الثمر**، إذ جاء ﴿**أُكُلُها دائِمٌ**﴾ في آية، و﴿**ولَهم فِيها مِن كُلِّ الثَّمَراتِ**﴾ في أخرى، فيتضح الفرق في اختيار لفظة (أُكُل) مرة، و(الثمرات) مرة. "والفرق بين الأكل والثمر أن الأول أعم من الثاني؛ لأنه يعني كل ما يؤكل، فيشمل الثمر وغيره"[2]، أي إن سياق التعميم في قوله تعالى: ﴿**مَّثَلُ الجَنَّةِ الَّتِي وُعِدَ المُتَّقُونَ تَجْرِي مِن تَحْتِها الأنْهارُ أُكُلُها دائِمٌ**

---

[1] ينظر: عتيق، عمر، وكتانة، حسين: **لمسات من الإعجاز اللغوي في القرآن الكريم (الصورة المائية نموذجًا)**. المجلة الأردنية في الدراسات الإسلامية، مج:11، ع:3، 2015م، ص:199-201.

[2] زيدان: **الفروق اللغوية في القرآن الكريم**. ص:170.

**وِظِلُّها﴾ الرعد:35**، اقتضى اختيار لفظة عامة، وهي (أُكُل)، بينما في سياق التخصيص، في قوله تعالى: ﴿**مَثَلُ الجَنَّةِ الَّتِي وُعِدَ المُتَّقُونَ فِيها أنهارٌ مِن ماءٍ غَيرِ آسِنٍ وأنهارٌ مِن لَبَنٍ لَمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُ وأنهارٌ مِن خَمْرٍ لَذَّةٍ لِلشّارِبِينَ وأنهارٌ مِن عَسَلٍ مُصَفًّى ولَهم فِيها مِن كُلِّ الثَّمَراتِ ومَغْفِرَةٌ مِن رَبِّهِمْ﴾ (محمد:15)**، فناسب اختيار لفظة دالة على الخصوص، فاختار (الثمرات). ويؤيد فكرةَ التعميم إضافة لفظة (كل) الدالة على العموم إلى (الثمرات)، فتضيف صفة التنوع للجنة، وهو ما يتقابل مع أنهار الجنة المتنوعة.

وقِيلَ في قوله تعالى: ﴿**مَّثَلُ الجَنَّةِ الَّتِي وُعِدَ المُتَّقُونَ تَجْرِي مِن تَحْتِها الأنهارُ أُكُلُها دايِمٌ وِظِلُّها﴾ (الرعد:35)**، إنَّ فائِدَةَ الخَبَرِ تَرْجِعُ إلى ﴿**أُكُلُها دايِمٌ**﴾ أيْ لا يَنْقَطِعُ، أي إن الجَنَّة الَّتِي وُعِدَ المُتَّقُونَ تَجْرِي مِن تَحْتِها الأنْهارُ، وظِلُّها أيْ كَذَلِكَ دائِمٌ لا يَتَقَلَّصُ ولا تَنْسَخُهُ الشَّمْسُ،[1] فثمرها لا ينقطع، وظلها لا يزول ولا ينقص، فهي ثواب الذين اجتنبوا المعاصي وأدوا الفرائض، فالأكل دائم لا ينقطع بسبب اختلاف الفصول، وذكر الظل مع الأكل يشير إلى أن الثمر لا يتأثر بالشمس فيتلف، فدوام الظل سبيل إلى دوام الثمار واستمرارها، فأدى الوصل بين الأكل الدائم والظل إلى تركيز المعنى وإلقائه إلى الذهن لتبدو الصورة واضحة عند القارئ والمتلقي.[2] ويَجُوزُ أنْ يُرادَ بِالظِّلِّ العِزَّةُ أوِ الرَّفاهَةُ أو أنْ يُجْعَلَ الكَلامُ كِنايَةً عَنْ دَوامِ الرّاحَةِ.[3] ويكتمل النعيم الحسي في الآية الكريمة: ﴿**مَثَلُ الجَنَّةِ الَّتِي وُعِدَ المُتَّقُونَ فِيها أنهارٌ مِن ماءٍ غَيرِ آسِنٍ وأنهارٌ مِن لَبَنٍ لَمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُ وأنهارٌ مِن خَمْرٍ لَذَّةٍ لِلشّارِبِينَ وأنهارٌ مِن عَسَلٍ مُصَفًّى ولَهم فِيها مِن كُلِّ الثَّمَراتِ ومَغْفِرَةٌ مِن رَبِّهِمْ﴾ (محمد:15)**، بإضافة مشهد أنواع الثمرات، لتُترك مجملة بلا تفصيل،

---

[1] ينظر: الشوكاني: **فتح القدير (الجامع بين فني الرواية والدراية من علم التفسير)**. ج:3، ص:102-103.

[2] ينظر: عباس، وجدان صالح: **دلالة الفصل والوصل في آيات طعام أصحاب الجنة والنار وشرابهم**. مجلة اللغة العربية وآدابها، جامعة الكوفة، كلية الآداب، ع:17، 2013م، ص:505.

[3] ينظر: الألوسي: **روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني**. ج:7، ص:155.

فتثير الخيال؛ ليحاول أن يستحضر أنواعها، وطعومها، وألوانها، وأشكالها، أما النعيم المعنوي فتمثل بالمغفرة من الله.[1]

**يلتقي في قوله: ﴿تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ أُكُلُهَا دَائِمٌ وَظِلُّهَا﴾ نعت لفظة (أكل) مع مادة (جرى) ومادة (دوم) ومادة (ظلل) في معنى الديمومة والاستمرارية،** إذ "يُقَالُ: جَرَى لَهُ ذَلِكَ الشيءُ ودَرَّ لَهُ بِمَعْنَى دَامَ لَهُ، وَمِنْهُ قَوْلُكَ: أَجْرَيْتُ عَلَيْهِ كَذَا أَي أَدَمْتُ لَهُ"[2]، "وَكُلُّ شَيْءٍ سَكَنَ فَقَدْ دامَ؛ وَمِنْهُ قِيلَ لِلْمَاءِ الَّذِي يَسْكن فَلَا يَجْرِي: دائِمٌ، وَدامَ يَدُومُ إِذا طَالَ زَمَانُهُ، ويُقَالُ لِلسَّاكِنِ دَائِمٌ، وللمتحرّك دَائِمٌ، وَالظِّلُّ الدَّوْمُ: الدَّائِمُ"[3]، "وظلّ الشَّيْء ظلاله: دَامَ ظله، وظل فلَان يفعل كَذَا دَامَ على فعله، وأظل: امْتَدَّ ظله، وَصَارَ ذَا ظلّ"[4]. واشتراك المواد المعجمية في دلالاتها يزيد التأكيد على معنى الدوام والاستمرار، فيبعث في نفس المتلقي طمأنينة وسكينة وراحة نفسية، فتهدأ نفسه وشكوكه وقلقه بزوال النعيم يومًا ما. ويؤيد المشهدُ البصري لجريان الأنهار والوقوف عندها وتأملها والاستمتاع بحركة مياهها وسماع صوتها، فكرةَ الراحة النفسية الجسدية التي يضفيها جمالُ الجنة على أصحابها.

تعرض الآية الكريمة: **﴿مَثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ فِيهَا أَنْهَارٌ مِن مَاءٍ غَيْرِ آسِنٍ وَأَنْهَارٌ مِن لَبَنٍ لَمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُ وَأَنْهَارٌ مِن خَمْرٍ لَذَّةٍ لِلشَّارِبِينَ وَأَنْهَارٌ مِن عَسَلٍ مُصَفًّى وَلَهُمْ فِيهَا مِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ وَمَغْفِرَةٌ مِن رَبِّهِمْ﴾ (محمد:15)**، صورة حسية عظيمة، وتبين ألوانًا من النعيم، وأصنافًا من المتاع، فتصف الجنة من الداخل، وتختص بوصف أنهارها، وتفصيل أنواعها، فتتضمن شرحًا مفصّلًا لأنهار الجنة وما أعده الله –عز وجل– لعباده المتقين، فتركز العدسة على أنواع أنهارها، وتبين ما يميز كل جنس من الأنهار

---

[1] ينظر: الراغب: **وظيفة الصورة الفنية في القرآن الكريم**. ص:365.

[2] ابن منظور: **لسان العرب**. مادة: (جرى).

[3] **المصدر السابق**. مادة: (دوم).

[4] مجمع اللغة العربية: **المعجم الوسيط**. مادة: (ظلل).

عن غيرها. فيذكر الله –عز وجل– الجنات وجريان الأنهار من تحتها، وتطلعَ النفوس البشرية إلى هذه الجنات المضروبة مثلًا، وقد حاول السابقون تقسيم أنهار الجنة من الآية الكريمة وتوضيح أنواعها*.

يلحظ المتأمل لأنواع أنهار الجنة الأربعة، أن الله –عز وجل– صوّرها بأنواع معروفة للناس في حياتهم الدنيا، وكانت مما يستلذ ويستطاب، ثم جرد الله –عز وجل– كل نوع من صفات النقص والعيب التي تعرض له في الحياة الدنيا، فالماء إذا بقي مدة طويلة بلا حركة يأسن، أما اللبن فآفته أن يتغير طعمه إلى الحموضة أو القارص، أما الخمر فآفته كراهة مذاقه والشرور والبلايا المصاحبة له، أما العسل فكثرة شوائبه وعدم صفائه التام. وسبب اختلاف أنواع أنهار الجنة ليس الشرب والطهور، أو القوت والغذاء، أو اللذة المزعومة، أو الشفاء والمنفعة، وإنما الزيادة في النعيم والتلذذ الخالص.[1] وهناك من يرى أن سبب اختيار هذه الأصناف من الأنهار في الجنة إما أن يعود للطعم، كالعسل واللبن، وإما أن يعود لغير الطعم، كالماء والخمر.[2]

---

* حاول السابقون أن يبينوا أنواع أنهار الجنة في الآية الكريمة، فوضحوها حسب الآتي:

**النوع الأول:** أنهار من ماء غير آسن، أي من ماء غير متغير لا لونًا ولا طعمًا ولا رائحةً، فهو باقٍ على خلقته الأصلية التي خلقه الله عليه لأهل الجنة، ولم يتغير بطول مكث، فهي أنهار طيبة الطعم صافية اللون لا كدرة فيها ولا نتانة ريح.

**النوع الثاني:** أنهار من لبن لم يتغير طعمه، خلقه الله ابتداءً في أنهار الجنة، فهو على هيئته الأصلية لا يتغير كما تتغير ألبان الحياة الدنيا المستخرجة من الضروع، فمهما طال مكثه يبقى على حالته، لا حامضًا ولا قارصًا، ولا طعما كريهًا، وإنما في غاية البياض والحلاوة ولذة الطعم.

**النوع الثالث:** أنهار من خمر لذة للشاربين، حسنة المنظر، لذيذة الطعم، طيبة الرائحة، لذتها خالصة، بلا سكر، ولا ذهاب عقل، ولا نتانة ريح، ولا آفة من الآفات.

**النوع الرابع:** أنهار من عسل مصفى، من الشوائب والرواسب جميعها، وما يكون في عسل الدنيا، خلقه الله سائلًا جاريًا كالماء، بلا عكر أو كدر، في غاية الصفاء، وحسن اللون، وطيب الطعم، والرائحة. ينظر: السلفي: **صفة الجنة في القرآن الكريم (دراسة وتحليل)**. ص:324–327.

[1] ينظر: **المرجع السابق**. ص:328–329.

[2] ينظر: شعبان، مروان وحيد: **الأنهار في القرآن الكريم: دراسة موضوعية**. مجلة جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية، جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية، ع:33، 2014م، ص:53.

وجاء التنوع في أنهار الجنة الجارية؛ ليلبي رغبات الإنسان، ويستثير فيه شوقه إلى الجنة، فالشراب يناسب الأذواق كلها، والله أعلم بما يفضله الناس من أنواع النعيم الحسي، والمشهد كله أنهار وأشربة توحي بالكثرة، والوفرة، والديمومة، وعدم الانقطاع، لكنها وإن كانت معروفة، فكل ما فيها مختلف، سواءً مذاقها، أو رائحتها، أو تأثيرها، أو سلامتها.[1] ويؤدي الوصل بين الجمل دورًا مهمًّا في مجال سوق الأخبار وملاحقة الدلالة، إذ إن غرض الآية أن تجمع بين الجمل، في سبيل تصوير الجنة ونعيمها وما يرزق العبد آنذاك، فتتابعت (الواو) كي تسند المعنى وتوصله إلى المتلقي مشحونًا مكتنزًا زاخرًا بأنواع الشراب الذي يفضله الإنسان في حياته غير أنه شراب راقٍ مهيّأ مستمر في العذوبة، واللذة، والنقاوة مما يشوب أشربة الدنيا.[2] وذكر الله –عز وجل– اللذات الحسية والبصرية والنعيم الدائم لأهل الجنة في صورة معبرة، وقصد بالتقوى العطاء والتناول، فالتقوى صفة إيجابية تلازم المؤمن في ميادين الحياة ومضامير الكون بشيء من الحذر، واليقظة، والحفاظ المتوازن خشية الانزلاق، ولا تعني الهرب من الواقع ومشكلاته، خوفًا وترددًا وجبنًا، وهذا المعنى الإيجابي حقق المنح الفياض والعطاء المتواصل والتنوع لأهل الجنة، مقابل عطائهم المتنوع في الحياة الدنيا.[3]

---

[1] ينظر: الراغب: **وظيفة الصورة الفنية في القرآن الكريم**. ص:365.

[2] عباس: **دلالة الفصل والوصل في آيات طعام أصحاب الجنة والنار وشرابهم**. ص:500.

[3] ينظر: الصغير: **الصورة الفنية في المثل القرآني (دراسة نقدية وبلاغية)**. ص:331.

# خاتمة

جاءت الدراسة بعنوان: **الثبات والتغير في الصورة الفنية في القرآن الكريم**، وقسمت على ثلاثة فصول، درس الفصل الأول ظاهرة الثبات والتغير في صورة الظواهر الكونية في القرآن الكريم، الذي توزع على ثلاثة مباحث، كشف الأول منها عن الثنائية الدلالية في الظواهر المناخية، بينما أظهر الفصل الثاني الفضاءات المتغيرة لصورتي الماء والبحر في القرآن الكريم، وأبان الثالث الثنائيات الدلالية في صورة الأرض والجبال.

وتحدث الفصل الثاني عن الثبات والتغير في صورة الإنسان، وجاء في ثلاثة مباحث، درس الأول منها الصورة السيكولوجية للإنسان، أما الثاني فكشف عن الثنائية الدلالية للإنفاق عند المؤمنين والكافرين، بينما حاول الثالث أن يدرس البعد النفسي للبخل.

وتجلت ثنائية الثبات والتغير في الفصل الثالث في صورتي الحياة الدنيا والآخرة، وقسم إلى ثلاثة مباحث، أظهر المبحث الأول الآفاق الدلالية لصورة الحياة الدنيا، واقتضى الثاني بحث الثبات والتغير في صورة البعث والحشر، أما الثالث فكشف عن مشاهد تصويرية في الجنة.

**ووصلت الدراسة إلى نتائج متعددة، منها:**

1- الكشف عن ظاهرة أسلوبية جديدة في القرآن الكريم بربطها بنظرية السياق، وبالجانب الثقافي في آن واحد، فحاولت الاندماج مع علوم ثقافية متنوعة خارج إطار اللغة العربية، كعلم المناخ والجغرافيا، وعلم الأمواج البحرية، وعلم الأرض والجبال، وعلم التربة، والسيكولوجيا والعلوم النفسية، ومحاولة الربط بالجانب الاقتصادي، ولم تقتصر على الأمور الدنيوية، وإنما انطلقت لتدرس الأحداث الأخروية من بعث وحشر وجزاء.

2- حرصت الدراسة على عرض أسباب التغير بين الآيات القرآنية المشتركة بالثبات، بالاتكاء على السياق وعلم الدلالة، والمحورين الرأسي والأفقي، لتعليل اختيار لفظة دون غيرها من الألفاظ المناظرة.

3- شملت الدراسة جوانب مختلفة في اللغة العربية، كالجانب اللغوي، كثبوت صاحب الحال، وتغير الحال، والجانب البلاغي، كثبوت المشبه وتغير المشبه به، ثم تسويغ أسباب التغير.

4- دمجت الدراسة بين الثنائية المركزية والثنائيات المساندة الأخرى في السياق الواحد.

5- تجلت ثنائية الثبات والتغير في مواقع متنوعة، فنجدها في الأفق محلقة بين السحاب، ونجدها في أعماق البحار، تركب السفن والأمواج، أو نجدها ترتقي لأعالي الجبال؛ فتجعلها كالسراب، أو نشاهدها تهطل مع قطرات المطر، فوق الأرض والنبت والحجر، فإما أن يورق به الشجر، أو يجف ويصير كالهشيم المحتظر، ثم نجدها تنبع من أعماق النفس، لتُنفق في سبيل الخير، أو تُمنع في سبيل الشر، أو أن يُكشف حالها عند الجمع والحشر، فإما أن يكون مآلها إلى نار، أو إلى غرفٍ وأنهارٍ وثمر.

6- تناغمت ثنائية الثبات والتغير بين تغير صورة السحاب وتغير أحوال الإنسان.

7- استعانت ثنائية الثبات والتغير بالعلوم النفسية، فعرضت الصورة السيكولوجية للإنسان محاولةً التفريق بين صفات النفس الإنسانية عند إصابتها بالضر.

8- اهتمت الدراسة بالجانب الاقتصادي، فعرضت صورة الإنفاق عند المؤمنين والكافرين بشكل جديد، وبإضافة الخرائط المفاهيمية الموضحة والمعززة لثنائية الثبات والتغير في القرآن الكريم.

9- تميزت ثنائية الثبات والتغير بقدرتها على الولوج في الأبعاد النفسية للبخيل.

10- أدت معرفة أسباب التغير في الآيات المتسمة بالثبات إلى الكشف عن بعض الأبعاد التربوية المكنوزة في داخل الآيات الكريمة.

11- صورت ثنائية الثبات والتغير بدقة مشهد تفتت الجبال يوم القيامة على مراحل، وامتازت بقدرتها على التصوير الدقيق لحال الخارجين من الأجداث يوم القيامة، مع عرض الحالة النفسية لهم.

# التوصيات

1- ينبغي التوسع في تطبيق ثنائية الثبات والتغير في القرآن الكريم، وربطها مع علوم أخرى؛ فلا تزال الآيات القرآنية المتسمة بهذه الثنائية بحاجة إلى دراسة وتطبيق.

2- أرجو أن تُكثف الدراسات العلمية القرآنية، إذ شكل عدم التوسع فيها، وعدم تطويرها عائقًا أمام البحث، كالتفسير العلمي للحصيد والهشيم والصر.

3- دعوة مؤلفي المناهج المدرسية لمحاولة عرض نماذج من هذه الدراسات الحديثة للطلبة.

4- دعوة إدارات الجامعات العربية عامة، والفلسطينية خاصة، بتأسيس مركز للدراسات القرآنية؛ بهدف تعزيز الفكر التنويري الديني، اعتمادًا على رؤًى مبتكرة في الأسلوبية في القرآن الكريم.

# قائمة المصادر والمراجع


**القرآن الكريم.**

1- أبي طالب، مكي: **الهداية في بلوغ النهاية**. تح: مجموعة من الباحثين. ط:1، كلية الدراسات العليا والبحث العلمي، جامعة الشارقة، الشارقة، الإمارات العربية المتحدة، 2008م.

2- الألوسي، شهاب الدين: **روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني**. تصحيح: علي عطية. ط:1، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، 1994م.

3-الأندلسي، ابن عطية: **المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز (تفسير ابن عطية)**. تح: عبد السلام محمد. ط:1، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، 1993م.

4- الأندلسي، أبو حيان: **البحر المحيط في التفسير**. تح: صدقي جميل. (د.ط)، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، لبنان، 2010م.

5- البغوي، أبو محمد عبد الله الزيد: **مختصر تفسير البغوي المسمى بمعالم التنزيل**. ط:1، دار السلام للنشر والتوزيع، الرياض، 1416هـ.

6- البيضاوي، ناصر الدين: **أنوار التنزيل وأسرار التأويل (تفسير البيضاوي)**. تح: محمد المرعشلي. (د.ط)، دار إحياء التراث العربي، مؤسسة التاريخ العربي، بيروت، لبنان، (د.ت).

7- الترمذي، محمد بن عيسى: **الجامع الصحيح (سنن الترمذي)**. تح: إبراهيم عوض. ط:1، مطبعة مصطفى البابي الحلبي، مصر، 1962م.

8- التهامي، نقرة: **سيكولوجية القصة في القرآن**. ط:1، الشركة التونسية للتوزيع، تونس، 1974م.

9- الثعلبي، أبو إسحاق: **الكشف والبيان في تفسير القرآن (تفسير الثعلبي)**. تح: ابن عاشور. ط:1، دار إحياء التراث العربي، بيروت، لبنان، 2002م.

10- جابر، صلاح مهدي: **معجم ألفاظ المطر**. كلية الإدارة والاقتصاد، جامعة كربلاء.

11- الجرجاني، الشريف: **كتاب التعريفات**. (د.ط)، مكتبة لبنان، بيروت، لبنان، 1985م.

12- جماعة من علماء التفسير: **المختصر في تفسير القرآن الكريم**. ط:3، مركز تفسير للدراسات القرآنية، الرياض، المملكة العربية السعودية، 1436هـ.

13- الجوزي، أبو الفرج: **تفسير ابن الجوزي (زاد المسير في علم التفسير)**. تح: عبد الرزاق المهدي. ط:1، دار الكتاب العربي، بيروت، لبنان، 1422هـ.

14- الجيوسي، عبد الله محمد: **التعبير القرآني والدلالة النفسية**. ط:1، دار الغوثاني للدراسات القرآنية، دمشق، 2006م.

15- الحاج أحمد، يوسف: **موسوعة الإعجاز العلمي في القرآن والسنة المطهرة**. ط:2، مكتبة ابن حجر، دمشق، سورية، 2003م.

16- حجر، آمنة: **المعجم الجغرافي**. ط:1، دار أسامة للنشر والتوزيع، الأردن، عمان، 2009م.

17- حسين، الغزالي محمد: **الفروق الدلالية عند الإمام أبي زهرة في تفسير زهرة التفاسير**. (د.ط)، كلية اللغة العربية، جامعة الأزهر، إيتاي البارود، مصر، (د.ت).

18- حسين، عبد القادر: **القرآن والصورة البيانية**. ط:2، عالم الكتب، بيروت، لبنان، 1985م.

19- الحمد، محمد بن إبراهيم: **سوء الخلق مظاهره- أسبابه- علاجه**. ط:3، دار ابن خزيمة، الرياض، المملكة العربية السعودية، 2012م.

20- داود، محمد محمد: **معجم الفروق الدلالية في القرآن الكريم لبيان الملامح الفارقة بين الألفاظ متقاربة المعنى، والصيغ والأساليب المتشابهة**. (د.ط)، دار غريب للطباعة والنشر والتوزيع، القاهرة، مصر، 2008م.

21- الدرويش، محي الدين: **إعراب القرآن الكريم وبيانه**. ط:7، دار ابن كثير للطباعة والنشر والتوزيع، دمشق، بيروت، 1999م.

22- دسوقي، عبد العليم: **الجراد الصحراوي**. قسم وقاية النبات، كلية الزراعة، جامعة سوهاج، 2020م.

23- الدعاس، أحمد، وزملاؤه: **كتاب إعراب القرآن**. ط:1، دار المنير للطباعة والنشر والتوزيع، دمشق، 2004م.

24- الذهبي، محمد: **المهذب في اختصار السنن الكبير**. تح: دار المشكاة للبحث العلمي. ط:1، دار الوطن للنشر، الرياض، المملكة العربية السعودية، 2001م.

25- الرازي، فخر الدين: **تفسير الفخر الرازي المشهور بالتفسير الكبير ومفاتيح الغيب**. ط:1، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، لبنان، 1981م.

26- الراغب، عبد السلام أحمد: **وظيفة الصورة الفنية في القرآن الكريم**. ط:1، فصلت للدراسات والترجمة والنشر، حلب، سورية، 2001م.

27- رضا، محمد رشيد: **تفسير القرآن الحكيم (تفسير المنار)**. ط:2، دار المنار، القاهرة، 1947م.

28- رطروط، سليمان حسن: **الجنة في القرآن الكريم: أوصافها، أهلها، نعيمها**. ط:1، مكتبة المنار، الزرقاء، الأردن، 1989م.

29- الزحيلي، وهبة: **التفسير المنير في العقيدة والشريعة والمنهج**. ط:10، دار الفكر، دمشق، سورية، 2009م.

30- الزمخشري، أبو القاسم: **أساس البلاغة**. تح: محمد باسل عيون السود. ط:1، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، 1998م.

31- الزمخشري، أبو القاسم: **تفسير الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل**. تعليق: خليل مأمون شيما. ط:3، دار المعرفة، بيروت، لبنان، 2009م.

32- الزوكه، محمد: **جغرافية المياه**. (د.ط)، دار المعرفة الجامعية، الإسكندرية، 1998م.

33- زيدان، عبد الجبار فتحي: **الفروق اللغوية في القرآن الكريم**. (د.ط)، (د.د)، الموصل، العراق، 2020م.

34- السامرائي، فاضل صالح: **أسئلة بيانية في القرآن الكريم**. ط:1، دار ابن كثير، بيروت، لبنان، 2011م.

35- السامرائي، فاضل صالح: **التعبير القرآني**. ط:4، دار عمار، عمان، 2006م.

36- السباعي، مصطفى: **هكذا علمتني الحياة**. ط:4، المكتب الإسلامي، بيروت، لبنان، 1997م.

37- السعدي، عبد الرحمن: **تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان**. تح: عبد الرحمن بن معلا اللويحق. ط:1، مؤسسة الرسالة، بيروت، لبنان، 2002م.

38- السلفي، عبد الحليم بن محمد: **صفة الجنة في القرآن الكريم (دراسة وتحليل)**. ط:1، دار العلوم والحِكم، دمشق، سوريا، 2005م.

39- السيوطي، جلال الدين: **البدور السافرة في أحوال الآخرة**. تح: محمد الشافعي. ط:1، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، 1996م.

40- السيوطي، جلال الدين: **الدر المنثور في التفسير المأثور**. (د.ط)، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، لبنان، 2011م.

41- السيوطي، جلال، والمحلي، جلال: **تفسير الجلالين الميسر**. تح: فخر الدين قباوة. ط:1، مكتبة لبنان ناشرون، بيروت، لبنان، 2003م.

42- شحرور، محمد: **دليل القراءة المعاصرة للتنزيل الحكيم، المنهج والمصطلحات**. ط:1، مكتبة الفكر الجديد، دار الساقي، لبنان، 2016م.

43- شحرور، محمد: **نحو أصول جديدة للفقه الإسلامي فقه المرأة (الوصية – الإرث – القوامة – التعددية – اللباس)**. ط:1، الأهالي للطباعة والنشر والتوزيع، سورية، دمشق، 2000م.

44- الشربيني، لطفي: **أسرار عالم المجانين أسباب وأنواع المرض العقلي**. ط:1، دار العلم والإيمان للنشر والتوزيع، دسوق، مصر، 2015م.

45- شرف، حفني محمد: **إعجاز القرآن البياني بين النظرية والتطبيق**. ط:4، اللجنة العامة للقرآن والسنة، المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية، الجمهورية العربية المتحدة، 1970م.

46- الشريف، محمود: **الأمثال في القرآن**. ط:2، دار عكاظ، جدة، (د.ت).

47- الشعراوي، محمد متولي: **أسماء الله الحسنى**. (د.ط)، مكتبة الشعراوي الإسلامية، دار أخبار اليوم، مصر، (د.ت).

48- الشوكاني، محمد بن علي: **فتح القدير (الجامع بين فني الرواية والدراية من علم التفسير)**. مراجعة: يوسف الغوش. ط:4، دار المعرفة، بيروت، لبنان، 2007م.

49- صافي، محمود: **الجدول في إعراب القرآن وصرفه وبيانه مع فوائد نحوية هامة**. ط:3، دار الرشيد، بيروت، لبنان، 1995م.

50- الصحاري، أبو محمد عبد الله الأزدي: **الماء أول معجم طبي لغوي في التاريخ**. ط:2، تح: هادي حمودي. وزارة التراث والثقافة، سطلنة عُمان، 2015م.

51- الصغير، محمد حسين: **الصورة الفنية في المثل القرآني (دراسة نقدية وبلاغية)**. (د.ط)، منشورات وزارة الثقافة والإعلام، دار الرشيد للنشر، الجمهورية العراقية، 1981م.

52- الصوفي، ماهر: **الموسوعة الكونية الكبرى**. ط:1، المكتبة العصرية، صيدا، بيروت، 2007م.

53- الطبري، ابن جرير: **جامع البيان عن تأويل آي القرآن (تفسير الطبري)**. تح: محمود شاكر. ط:2، مكتبة ابن تيمية، القاهرة، مصر، (د.ت).

54- الطيبي، الحسين بن عبد الله: **فتوح الغيب في الكشف عن قناع الريب**. ط:1، جائزة دبي الدولية للقرآن الكريم، دبي، الإمارات العربية المتحدة، 2013م.

55- ابن عاشور، محمد الطاهر: **التحرير والتنوير. (تحرير المعنى السديد وتنوير العقل الجديد من تفسير الكتاب المجيد)**. (د.ط)، الدار التونسية للنشر، تونس، 1984م.

56- عباس، فضل حسن: **البلاغة فنونها وأفنانها علم البيان والبديع**. ط:11، دار الفرقان، الأردن، 2007م.

57- عباس، فضل حسن: **لمسات ولطائف من الإعجاز البياني للقرآن الكريم**. ط:1، دار النفائس، الأردن، 2016م.

58- عبد التواب، صلاح الدين: **الصورة الأدبية في القرآن الكريم**. ط:1، الشركة المصرية العالمية للنشر، لونجمان، مصر، 1995م.

59- عبد الرحمن، عائشة: **الإعجاز البياني للقرآن ومسائل ابن الأزرق**. ط:3، دار المعارف، مصر، (د.ت).

60- عبد الهادي، محمد: **الصارم المنكي في الرد على السبكي**. ط:2، مؤسسة الريان للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، لبنان، 2003م.

61- عتيق، عمر: **ظواهر أسلوبية في القرآن الكريم التركيب والرسم والإيقاع**. ط:1، عالم الكتب الحديث، إربد، الأردن، 2009م.

62- عزيز، صالح ملا: **تصوير الانفعالات النفسية في القرآن الكريم دراسة فنية**. قسم اللغة العربية، كلية التربية، جامعة صلاح الدين.

63- العسكري، أبو هلال: **الفروق اللغوية**. تح: محمد إبراهيم سليم. (د.ط)، دار العلم والثقافة للنشر والتوزيع، القاهرة، مصر، (د.ت).

64- عطية، عطية محمد: **الظواهر الفلكية والجغرافية في القرآن الكريم**. ط:1، دار يافا العلمية للنشر والتوزيع، الأردن، عمان، 2012م.

65- أبو العينين، حسن: **جغرافية البحار والمحيطات (الأوقيانوغرافيا)**. (د.ط)، الدار الجامعية، بيروت، (د.ت).

66- الفيفي، عيسى: **صفة الجنة مختصر من كتاب صفة الجنة في القرآن الكريم (دراسة وتحليل)**. (د.ط)، (د.د)، (د.م)، (د.ت).

67- القاسمي، محمد جمال الدين: **تفسير القاسمي محاسن التأويل**. تح: محمد باسل عيون السود. ط:1، دار الكتب العلمية، بيروت، 1418هـ.

68- القرطبي، أبو عبد الله محمد بن أحمد: **الجامع لأحكام القرآن والمبين لما تضمنه من السنة وآي الفرقان**. تحقيق: عبد الله التركي. ط:1، مؤسسة الرسالة، بيروت، لبنان، 2006م.

69- القشاعلة، بديع: **المعاني مصطلحات في علم النفس**. (د.ط)، شركة السيكولوجي، مدينة رهط، فلسطين، 2019م.

70- قطب، سيد: **التصوير الفني في القرآن**. ط:17، دار الشروق، القاهرة، مصر، 2004م.

71- قطب، سيد: **في ظلال القران الكريم**. ط:9، دار الشروق، بيروت، لبنان، 1980م.

72- قلعة جي، محمد رواس، وقنيبي، حامد: **معجم لغة الفقهاء**. ط:2، دار النفائس، الأردن، 1988م.

73- ابن كثير، أبو الفداء: **تفسير القرآن العظيم**. تح: يوسف المرعشلي. ط:1، دار المعرفة للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، لبنان، 1992م.

74- اللاحم، سليمان: **تنوير العقول والأفهام في تفسير آيات الأحكام سورتي البقرة وآل عمران**. ط:1، دار العاصمة، الرياض، المملكة العربية السعودية، 2001م.

75- لجنة من العلماء: **التفسير الوسيط للقرآن الكريم**. ط:3، مجمع البحوث الإسلامية بالأزهر، مطبعة المصحف الشريف، 1992م.

76- أبو لقمة، الهادي، وزميله: **الجغرافيا البحرية**. ط:2، الدار الجماهيرية، ليبيا، 1999م.

77- أبو مايله، يوسف، وزميله: **محاضرات في علوم البحار والمحيطات (الأوقيانوغرافيا)**. (د.ط)، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، جامعة الأزهر، غزة، (د.ت).

78- محسوب، محمد صبري: **الجغرافيا الطبيعية أسس ومفاهيم حديثة**. (د.ط)، دار الفكر العربي، مصر، 1996م.

79- المراغي، أحمد مصطفى: **تفسير المراغي**. ط:1، مطبعة مصطفى البابي الحلبي، مصر، 1946م.

80- مركز الدراسات القرآنية: **الميسر في غريب القرآن الكريم**. ط:2، مجمع الملك فهد لطباعة المصحف الشريف، المدينة المنورة، المملكة العربية السعودية، 1430هـ، 2009م.

81- مسلم، إبن الحجاج أبو الحسن: **المسند الصحيح المختصر (صحيح مسلم)**. تح: محمد الفاريابي. ط:1، دار طيبة للنشر والتوزيع، الرياض، 2006م.

82- المناوي، محمد عبد الرؤوف: **التوقيف على مهمات التعاريف**. تح: محمد رضوان الداية. ط:1، دار الفكر، دمشق، 1990م.

83- المنذري، زكي الدين: **الترغيب والترهيب من الحديث الشريف**. تح: مشهور آل سلمان. ط:1، مكتبة المعارف للنشر والتوزيع، الرياض، المملكة العربية السعودية، 1424هـ.

84- الميداني، عبد الرحمن حسن حبنكة: **أمثال القرآن وصور من أدبه الرفيع**. ط:2، دار القلم للطباعة والنشر والتوزيع، دمشق، سورية، 1992م.

85- النجار، زغلول: **تفسير الآيات الكونية في القرآن الكريم**. ط:1، مكتبة الشروق الدولية، القاهرة، مصر، 2007م.

86- النوايسة، فاطمة عبد الرحيم: **أساسيات علم النفس**. (د.ط)، دار المناهج للنشر والتوزيع، عمان، 2013م.

## أ) الأبحاث المنشورة في المجلات.

1- الأسعد، عدنان عبد السلام، وفتحي، السيدة نور محمد: **بلاغة الخطاب القرآني في قصتي أصحاب الكهف وصاحب الجنتين: دراسة تحليلية**. مجلة جامعة كركوك للدراسات الإنسانية، جامعة كركوك، مج:8، ع:2، 2013م.

2- آل حامد، بنان سعد عبد الله: **المضامين التربوية في القصص القرآني: قصة أصحاب الجنة، قصة أصحاب الحجر وقصة أصحاب الأخدود**. جامعة طنطا، كلية التربية، مجلة كلية التربية، مج:74، ع:2، 2019م.

3- البياتي، انتصار زين العابدين شهباز: **دور القرآن الكريم في تربية النفس الإنسانية**. مجلة الآداب، كلية الآداب، جامعة بغداد، ع:92، 2010م.

4- جيني، عبد الحكيم أحمد: **التشبيه القرآني ودوره في تصوير حال الكافرين**. جامعة القرآن الكريم وتأصيل العلوم، ع:6، 2013م.

5- الحازمي، العباس بن حسين: **قواعد قرآنية في الإنفاق المشروع والممنوع**. حولية كلية أصول الدين والدعوة الإسلامية بطنطا، جامعة الأزهر، كلية أصول الدين والدعوة الإسلامية بطنطا، ع:6، 2015م.

6- خضري، محمد رضا: **سيكولوجية البخل عند الجاحظ**. ع:17، مجلة الممارسات اللغوية، جامعة مولود معمري تيزي وزو، مخبر الممارسات اللغوية، 2012م.

7- الخضيري، محمد بن عبد العزيز: **السراج في بيان غريب القرآن**. ط:1، مجلة البيان، الرياض، المملكة العربية السعودية، 2008م.

8- خليفات، عدنان عبد الكريم: **حديث القرآن الكريم عن الإنفاق**. مجلة الميزان للدراسات الإسلامية والقانونية، جامعة العلوم الإسلامية العالمية، عمادة البحث العلمي، ع:1، 2014م.

9- أبو دقة، موسى إبراهيم منصور: **جمالية بنية السرد ومستوياته في قصص سورة الكهف**. المجلة الأردنية في اللغة العربية وآدابها، عمادة البحث العلمي، جامعة مؤتة، مج:2، ع:3، 2006م.

10- دوب، رابح: **خصائص التشبيه في القرآن الكريم**. مجلة العلوم الإسلامية، جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية، الجزائر، ع:3، يناير/ 1992م.

11- زايد، إبراهيم عبد الله: **الإنفاق: مفهومه، مظاهره، ضوابطه، وثمراته**. مجلة البحوث والدراسات الشرعية، مج:8، ع:77، 2018م.

12- زغيشي، سعاد: **سورة الكهف: دراسة بنيوية من حيث الشكل**. مجلة دراسات وأبحاث، جامعة الجلفة، ع:22، 2016م.

13- زيدان، أكرم: **سيكولوجية المال هوس الثراء وأمراض الثروة**. عالم المعرفة، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت، ع:351، 2008م.

14- السلامي، عمار عبد الأمير: **دلالة المكان في صور الجنة والنار في القرآن الكريم**. مجلة كلية التربية للبنات للعلوم الإنسانية، جامعة الكوفة، كلية التربية للبنات، مج:10، ع:19، 2016م.

15- السلمي، عبد الرحمن الجامعي: **جماليات النظم القرآني في قصة أصحاب الجنة في سورة القلم**. معهد الإمام الشاطبي للدراسات القرآنية، مج:6، ع:12، 2012م.

16- السيد، أحمد بن عمر بن أحمد: **النفس وأثر القرآن الكريم في تحقيق الأمن النفسي**. أبحاث، كلية التربية، جامعة الحديدة، ع:13، مارس، 2019م.

17- شعبان، مروان وحيد: **الأنهار في القرآن الكريم: دراسة موضوعية**. مجلة جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية، جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية، ع:33، 2014م.

18- صديق، مازن موفق: **الخطاب البلاغي وسياقات الدلالة القرآنية دراسة في سورة النبأ**. مجلة التربية والعلم، كلية التربية للبنات، جامعة الموصل، مج:17، ع:4، 2010م.

19- عباس، صاحب منشد، ومحيسن، محمد جعفر: **ألفاظ المطر في القرآن الكريم الدلالة والإشارة**. مجلة أوروك للأبحاث الإنسانية، مج:3، ع:4، تشرين الثاني، 2010م.

20- عباس، وجدان صالح: **دلالة الفصل والوصل في آيات طعام أصحاب الجنة والنار وشرابهم**. مجلة اللغة العربية وآدابها، جامعة الكوفة، كلية الآداب، ع:17، 2013م.

21- عتيق، عمر: **الأسلوبية الصوتية في الفواصل القرآنية**. مجلة المنار، جامعة آل البيت، مج: 16، ع:3.

22- عتيق، عمر، وكتانة، حسين: **لمسات من الإعجاز اللغوي في القرآن الكريم (الصورة المائية نموذجًا)**. المجلة الأردنية في الدراسات الإسلامية، مج:11، ع:3، 2015م.

23- عجيل، سحر عادل: **الغيوم في القرآن الكريم دراسة في الفكر الجغرافي العربي الإسلامي**. مجلة آداب الفراهيدي، كلية الآداب، جامعة تكريت، العراق، ع:35، أيلول/2018م.

24- أبو علوش، إبراهيم، والحراحشة، أحمد: **المقاصد الدلالية المستخفية لآيات الماء في القرآن الكريم**. المجلة الأردنية في الدراسات الإسلامية، مج:11، ع:2، 1436هـ، 2015م.

25- العنزي، هدى عبد العزيز: **الإنفاق ونظائره في القرآن الكريم**. مجلة كلية دار العلوم، كلية دار العلوم، جامعة القاهرة، ع:130، 2020م.

26- العياصرة، وليد رفيق محمد: **مفهوم النفس في القرآن الكريم وانعكاساته على المنهاج التربوي في المجتمع المسلم**. المجلة الدولية للدراسات التربوية والنفسية، مركز رفاد للدراسات والأبحاث، مج:1، ع:3، يونيو، 2017م.

27- العيسى، إبراهيم بن محمد: **صفات الإنسان المذمومة في القرآن الكريم وسبل التزكية منها في ضوء مصادر التربية الإسلامية**. جامعة أسيوط، كلية التربية، المجلة العلمية، ع:1، يناير/ 2019م.

28- الغالبي، خلاف: **التربة والماء وأثرهما في إنبات الطعام**. الإعجاز العلمي، رابطة العالم الإسلامي، ع:12، 2002م.

29- غنيم، كمال أحمد، والعمري، سائدة حسين: **نوازع النفس الإنسانية في القرآن الكريم: مقاربة سيميائية**. مجلة اتحاد الجامعات العربية للآداب، مج:9، ع:2، 2012م.

30- قاسم، أحمد: **الإعجاز العلمي في تسجير البحار**. مجلة القلم، منشورات جامعة القلم للعلوم الإنسانية والتطبيقية، ع:9، 2018م.

31- قاسم، أمجد عابد، والفقي، صبحي إبراهيم: **الاستلزام الحواري في آيات الجنة والنار في القرآن الكريم**. المجلة العلمية بكلية الآداب، جامعة طنطا، كلية الآداب، ع:44، 2021م.

32- قحيف، أمان محمد عبد المؤمن: **منهج القرآن في الحض على الإنفاق**. مجلة الوعي الإسلامي، ع:595، 2015م.

33- قيلي، عفاف مكاوي، ودقيس، مريم سليمان: **آيات الإنفاق في سورة البقرة ودورها في معالجة القضايا الاجتماعية في المجتمع**. مجلة التأصيل، جامعة دنقلا، مركز تأصيل المعرفة والعلوم، ع:2، 2019م.

34- المالك، منال بنت عبد العزيز: **هدي القرآن الكريم في السمو بالنفس الإنسانية: سورة الحجرات أنموذجًا**. مجلة كلية الدراسات الإسلامية والعربية للبنين، كلية الدراسات الإسلامية والعربية للبنين، جامعة الأزهر، القاهرة، ع:39، ج:1، ديسمبر/ 2020م.

35- مخلوف، أمال أحمد: **تصوير بخل المرآة في الشعر الأموي**. جامعة الأزهر، حولية كلية اللغة العربية، بنين بجرجا، ع:21، 2017م.

36- المفلح، لولوة: **وصف حال الأرض يوم القيامة كما جاء في القرآن الكريم (دراسة تحليلية موضوعية)**. مجلة جامعة أم القرى لعلوم الشريعة والدراسات الإسلامية، ع:49، محرم/ 1431هـ.

37- مندور، مسعد سلامة: **مصطلحات الطقس والمناخ في القرآن الكريم**. المجلة العالمية لبحوث القرآن.

38- الهميسى، عماد: **سيكولوجية النفس الإنسانية والتهذيب القرآني**. مجلة مداد، إفريقية للدراسات والتوثيق والنشر، مج:3، ع:5، 2021م.

## ب) الرسائل والأطاريح الجامعية.

### 1) رسائل الدكتوراه:

1- الجبالي، محمد رجائي: **توجيه المتشابه اللفظي في القرآن الكريم بين القدامى والمحدثين أحمد الغرناطي وفاضل السامرائي: دراسة مقارنة**. (رسالة دكتوراه). قسم القرآن والحديث، أكاديمية الدراسات الإسلامية، جامعة ملايا، كوالالمبور، 2012م.

2- عامر، باسم أحمد: **نظرية الإنفاق في ضوء القرآن الكريم -رؤية اقتصادية-**. (رسالة دكتوراه). إشراف: كمال حطاب. قسم الاقتصاد والمصارف الإسلامية، كلية الشريعة والدراسات الإسلامية، جامعة اليرموك، إربد، الأردن، 2009م.

3- قاسم، محمد محمود صالح: **التشكيل البلاغي للصورة الفنية في القرآن الكريم**. (رسالة دكتوراة). إشراف: عبد القادر الرباعي. جامعة اليرموك، 2002م.

4- لقمة، محمد محمد: **الجوانب الأدبية والبلاغية في القصة القرآنية**. (رسالة دكتوراة). قسم الأدب والبلاغة، كلية اللغة العربية، جامعة الأزهر، 1968م.

**2) رسائل الماجستير:**

1- خمايسة، سكينة: **نعت المشبه به في القرآن الكريم في ضوء نظرية السياق**. (رسالة ماجستير). إشراف: عمر عتيق. كلية الدراسات العليا، منشورات جامعة القدس المفتوحة، فلسطين، 2019م.

2- ربايعة، أسامة: **لغة الجسد في القرآن الكريم**. (رسالة ماجستير). إشراف: عودة عبد الله. جامعة النجاح الوطنية، كلية الدراسات العليا، نابلس، فلسطين، 2010م.

3- سلمي، كفاح فخري: **التحول والصيرورة في الظواهر الكونية في القرآن الكريم "الفعل جاء ونظائره أنموذجًا"، دراسة بلاغية**. (رسالة ماجستير)، إشراف: عمر عتيق. كلية الدراسات العليا، منشورات جامعة القدس المفتوحة، فلسطين، 2022م.

4- ضمرة، معن: **الحوار في القرآن الكريم**. (رسالة ماجستير). إشراف: محمد الشريدة. كلية الدراسات العليا، جامعة النجاح الوطنية، نابلس، فلسطين، 2005م.

5- العبادسة، فتحي: **الماء في القرآن الكريم (دراسة موضوعية)**. (رسالة ماجستير). إشراف: مروان أبو راس. الجامعة الإسلامية، غزة، فلسطين، 2002م.

**ت) المعاجم اللغوية.**

1- الأزدي، ابن دريد: **جمهرة اللغة**. تح: رمزي منير. ط:1، دار العلم للملايين، بيروت، لبنان، 1987م.

2- الأصفهاني، الراغب: **المفردات في غريب القرآن**. (د.ط)، مكتبة نزار مصطفى الباز، مكة المكرمة، المملكة العربية السعودية، (د.ت).

3- الجوهري، إسماعيل: **الصحاح تاج اللغة وصحاح العربية**. تح: أحمد عطار. ط:4، دار العلم للملايين، بيروت، لبنان، 1990م.

4- الزبيدي، المرتضى: **تاج العروس من جواهر القاموس**. ط:1، دار الفكر، بيروت، لبنان، 1414هـ.

5- ابن عباد، الصاحب: **المحيط في اللغة**. تح: محمد آل ياسين. ط:1، عالم الكتب، الرياض، المملكة العربية السعودية، 1994م.

6- أبو العزم، عبد الغني: **معجم الغني الزاهر**. ط:1، مؤسسة الغني للنشر، الرباط، 2013م.

7- عمر، أحمد مختار: **معجم اللغة العربية المعاصرة**. ط:1، عالم الكتب، القاهرة، مصر، 2008م.

8- ابن فارس، أحمد: **معجم مقاييس اللغة**. تح: عبد السلام هارون. دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، سورية، 1979م.

9- الفيروز آبادي، مجد الدين: **القاموس المحيط**. تح: محمد العرقسوسي. ط:8، مؤسسة الرسالة، بيروت، لبنان، 2005م.

10- مجمع اللغة العربية: **المعجم الوسيط**. ط:4، مكتبة الشروق الدولية، جمهورية مصر العربية، 2008م.

11- ابن منظور، جمال الدين محمد بن مكرم: **لسان العرب**. ط:3، دار صادر، بيروت، 1414هـ.

## ث) المواقع الإلكترونية.

1- العنزان، نورة خالد: **العناد في علم النفس**. https://nouraalanzan.blogspot.com/

## ج) المؤتمرات العلمية.

1- باظه، ريم عبد المنعم: **الاقتصاد في الإنفاق في ظل النص القرآني**. المؤتمر الدولي القرآني الأول: توظيف الدراسات القرآنية في علاج المشكلات المعاصرة، جامعة الملك خالد، كلية الشريعة وأصول الدين، 2016م.

2- العرابيد، عبد السميع خميس: **مظاهر الفساد المالي وطرق علاجه كما يصوره القرآن الكريم**. المؤتمر الدولي القرآني الأول: توظيف الدراسات القرآنية في علاج المشكلات المعاصرة، جامعة الملك خالد، كلية الشريعة وأصول الدين، 2016م.

3- العمودي، عبد الله بن حسين: **ترشيد الإنفاق من منظور قرآني**. المؤتمر الدولي القرآني الأول: توظيف الدراسات القرآنية في علاج المشكلات المعاصرة، جامعة الملك خالد، كلية الشريعة وأصول الدين، 2016م.

4- القضاة، أحمد محمد مفلح: **التدبير بين التقتير والتبذير: دراسة في ضوء قوله تعالى: ﴿والَّذِينَ إذا أَنْفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا ولَمْ يُقْتِرُوا وكانَ بَيْنَ ذَلِكَ قَوامًا﴾ (الفرقان)**. المؤتمر الدولي القرآني الأول: توظيف الدراسات القرآنية في علاج المشكلات المعاصرة، جامعة الملك خالد، كلية الشريعة وأصول الدين، 2016م.

5- موكينا، مصطفى: **سيلان المياه وتكون المعادن في القشرة الخارجية للأرض انطلاقًا من قوله تعالى: (وأما ما ينفع الناس فيمكث في الأرض)**. مراجعة: ميمون باريش. المؤتمر العالمي الثامن للإعجاز العلمي في القرآن والسنة، المغرب.

## ح) المقابلات.

1- جبر، يحيى: **مقابلة شخصية**. الساعة: 8 مساءً، بتاريخ: 2022/9/16م.

# فهرس المحتويات


إِهْدَاء ..... أ
مُلَخَّص..... خ
Abstract ..... ذ
مُقَدِّمَةٌ..... 1
أَهَمِّيَّة اَلْبَحْثِ: ..... 1
سبب اختيار موضوع اَلْبَحْثِ:..... 1
الدِّرَاسَاتُ السَّابِقَةُ:..... 1
صعوبات إنجاز البحث: ..... 1
مَنْهَجُ اَلْبَحْثِ: ..... 2
أسئلة اَلْبَحْثِ: ..... 2
اَلْإِطَارُ اَلْعَامُّ لِلْبَحْثِ: ..... 3
الفصل الأوّل: الثّبات والتّغيّر في صورة الظّواهر الكونيّة. ..... 5
المبحث الأوّل: الثّنائيّة الدّلاليّة في الظّواهر المناخيّة..... 6
مدخل ..... 7
المرحلة الصفرية: السحاب الساكن. ..... 7
المرحلة الأولى: السحاب المتحرك بوساطة الرياح. ..... 8
المرحلة الثانية: السحاب المبسوط..... 11
المرحلة الثالثة: السحاب المتراكم (الكسف). ..... 12
المرحلة الرابعة: السحاب الممطر (الودق)..... 15
وظيفة الرياح في الصورة المتغيرة للسحاب..... 16
المسارات الحركية في تغير صورة السحاب. ..... 16
وظيفة السحاب الطبقي في تغير صورة السحاب..... 17
التناغم بين تغير صورة السحاب وتغير أحوال الإنسان..... 18
التغيير التقابلي بين صورة السحاب والمطر وصورة الأرض. ..... 18
التفسير العلمي للتغير صورة السحاب..... 19
المبحث الثاني: الفضاءات المتغيرة في صورتي الماء والبحر. ..... 22

المطلب الأول: الثبات والتغير في الصورة الكونية للبحار في القرآن الكريم..... 23
المطلب الثاني: الثبات والتغير في صورة الأمواج البحرية في القرآن الكريم. ..... 29
مدخل..... 29
الثبات والتغير في ظاهرة الموج في القرآن الكريم. ..... 30
المطلب الثالث: الثبات والتغير في صورة الجواري (السفن) في القرآن الكريم..... 37
دور السياق في تعليل نعت الجواري. ..... 38
المبحث الثالث: الثنائيات الدلالية (التغير والثبات) في صورة الأرض والجبال. ..... 42
المطلب الأول: الثنائيات الدلالية في صورة خشوع الأرض وهمودها. ..... 43
التقارب الدلالي بين صورة الأرض الهامدة وصورة الأرض الخاشعة. ..... 43
صورة الأرض الهامدة..... 44
صورة الأرض الخاشعة..... 48
الثنائيات الدلالية المساندة (النطفة والنبتة) للثنائية المركزية (همود الأرض وخشوعها). ..... 50
المطلب الثاني: ثنائية الثبات والتغير في صورة الجبال في مشاهد يوم القيامة..... 52
المرحلة الأولى (المتغير الأول): مرحلة رجف الجبال. ..... 53
التكامل الدلالي بين صورة رجف الجبال (المتغير الأول) والسياق الأكبر..... 54
المرحلة الثانية (المتغير الثاني): مرحلة نسف الجبال..... 58
التكامل الدلالي بين صورة نسف الجبال (المتغير الثاني) والسياق الأكبر. ..... 62
ثنائية المألوف والخوف..... 62
ثنائية القلق والطمأنينة. ..... 62
ثنائية الخوف واليقين..... 63
ثنائية البر والبحر. ..... 63
ثنائية الخفاء والتجلي. ..... 64
ثنائية الماضي والمستقبل..... 64
ثنائية الصوت والسكون. ..... 65
ثنائية العوج والاستقامة. ..... 66
المرحلة الثالثة (المتغير الثالث): مرحلة تفتيت الجبال. ..... 66
المرحلة الرابعة (المتغير الرابع): مرحلة بس الجبال..... 70
المرحلة الخامسة (المتغير الخامس): مرحلة تسيير الجبال. ..... 76
الفصل الثاني: الثبات والتغير في صورة الإنسان. ..... 81
المبحث الأول: الصورة السيكولوجية للإنسان. ..... 82

مدخل..... 83
أولًا: سيكولوجية الإنسان الغافل المسرف. ..... 85
ثانيًا: سيكولوجية الإنسان العنيد. ..... 93
ثالثًا: سيكولوجية جنون العظمة (الإنسان البرانويدي). .....101
المبحث الثاني: الثنائية الدلالية (الثبات والتغير) للإنفاق عند المؤمنين والكافرين.....106
مدخل.....107
المطلب الأول: الثنائية الدلالية (الثبات والتغير) للإنفاق عند المؤمنين.....109
أولًا: التشبيه التركيبي للسنبلة في سياق تشبيه الإنفاق عند المؤمنين.....109
ثانيًا: التشبيه التركيبي للجنة في سياق تشبيه الإنفاق عند المؤمنين. .....116
المطلب الثاني: الثنائية الدلالية (الثبات والتغير) للإنفاق عند الكافرين. .....125
أولًا: الصورة التركيبية للإنفاق.....125
ثانيًا: التشبيه التركيبي للحرث في سياق تشبيه الإنفاق عند الكافرين. .....135
المبحث الثالث: البعد النفسي للبخل. .....141
مدخل.....142
المطلب الأول: البعد النفسي للبخيل في قصة أصحاب الجنة.....147
المطلب الثاني: البعد النفسي للبخيل في قصة صاحب الجنتين.....156
الفصل الثالث: الثبات والتغير في صورتي الحياة الدنيا والآخرة.....171
المبحث الأول: الآفاق الدلالية لصورة الحياة الدنيا.....172
المطلب الأول: البعد التربوي للثبات والتغير في صورة الزرع الحصيد في الحياة الدنيا.....173
المطلب الثاني: البعد التربوي للثبات والتغير في صورة الزرع الهشيم في الحياة الدنيا. .....176
المبحث الثاني: الثبات والتغير في صورة البعث والحشر. .....180
المشهد الأول: تشبيه كثرة الخارجين من الأجداث بالجراد المنتشر (سورة القمر).....184
المشهد الثاني: تشبيه حركة الخارجين من الأجداث بالفراش المبثوث (سورة الواقعة).....194
المشهد الثالث: تصوير سرعة الخارجين من الأجداث يوم القيامة (سورة يسن). .....197
المشهد الرابع: الصورة النفسية للخارجين من الأجداث يوم القيامة (سورة المعارج). .....200
المبحث الثالث: مشاهد تصويرية في الجنة. .....205
المطلب الأول: مشهد ثواب أهل الجنة.....206
المطلب الثاني: المشهد التأملي الجمالي للجنة والراحة الجسدية والنفسية لأصحابها. .....211
خاتمة.....218
التوصيات .....220

قائمة المصادر والمراجع .....221
أ)الأبحاث المنشورة في المجلات.....229
ب) الرسائل والأطاريح الجامعية.....233
1) رسائل الدكتوراه:.....233
2) رسائل الماجستير:.....234
ت) المعاجم اللغوية.....234
ث) المواقع الإلكترونية.....235
ج) المؤتمرات العلمية.....236
ح) المقابلات.....236
فهرس المحتويات.....237